الإسلام في عالم متغيّر

ومقالات إسلامية أخرى

حسين أحمد أمين

الإهداء

الى امراتى

احب الناس الى

اقرارا بدين ليس بوسعي ، ولا وسع بناتنا الثلاث

ـ هبة ورانية ونسرين ـ ان نوفيه .

صدمة الغزو الفرنسى
وبداية انفتاح مصر على الغرب
١٧٩٨ - ١٨٠١

« ... وعاد أهل البلد من بولاق الى المدينـة فى بكاء ونحيب ، يلطمون وجوههم ويقولون : يا ويلنـا ، قد وقعنـا فى أسر الافرنج ! »

نقولا الترك

« وكان صراخ عظيم فى مصر »

سفر الخروج ١٢ : ٣٠

١

ما بين « كتاب الاعتبار » و « عجائب الآثار »

خلف لنا الأمير اسـامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨ م) فى « كتـاب الاعتبار » ، والشيخ عبـد الرحمن الجبرتى (١٧٥٦ - ١٨٢٥ م) فى كتابه « عجائب الآثار » ، صورتين بالغتى الأهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما . وقد جمع بين الحدثين انهما يمثلان عدوانين أوروبيين مفاجئين على الشرق ، وأن العدوانين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب ، على حد سواء ، على أوضاع غير مألوفة البتة فى حياة الطرف الآخر . غير أن القرون السبعة التى تفصل بين الحـدثين كانت قد شهدت من التطـورات

الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافا جوهريا فى خلفيتيهما الحضاريتين ٠

فأما ما شهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية فى الشام ٠ وبالرغم من أن الشعوب الاسلامية فى وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفرقة ، واستنزفت طاقاتها الحروب فيما بينها ، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى فى مجالات شتى من النظم الحضارية فى الغرب ٠ وكان بوسع أسامة أن ينظر الى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء ، وأن يصفهم بأنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل »(١) ، وأن يقول ان « كل من هو قريب العهد (منهم) بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين عاشروا المسلمين »(٢) ، « ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة »(٣) ، وأن « طبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربى »(٤) ، و « محاكماتهم غبية غريبة »(٥) ٠ وهو مع ذلك يدعو الفرسان الداوية(٦) « بأصدقائى »(٧) ، ونسمع صديقا افرنجيا له يدعوه « باخى » ،ويرجو أسامة أن يسمح لابنه « مرهف » بأن يرافقه الى بلاده « يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، واذا رجع كان مثل رجل عاقل » ٠ فيتعجب أسامة من غباء الرجل وكلامه الذى « ما يخرج من رأس عاقل » ، فان ابنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه الى بلاد

---

(١) أسامة بن منقذ : « كتاب الاعتبار » - مطبعة جامعة برينستون بالولايات المتحدة ، ١٩٣٠ ، ص ١٣٢ ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ٠

(٥) المرجع السابق ، ص ١٣٨ - ١٤٠ ٠

(٦) Templars

(٧) المرجع السابق ، ص ١٣٤ ٠

الافرنج » !(٨) ٠

وأما ما شهده الشيخ المؤرخ (الجبرتى) فسنوات الحملة الفرنسية على مصر التى وصفها بأنها « سنو الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع »(٩) ، وهو فى نظرته الى الافرنج وعاداتهم ليس أقل وقارا من أسامة ، وليس بأخف حدة فى استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم ٠ غير اننا نتبين مع هذا اختلافا كبيرا بين موقفيهما ٠ ان كل ما يستنكره الجبرتى من الفرنسيين ان هو ناجم فى رأيه عن « كفرهم » ، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق ، بينما يجد وقاره حيالهم سندا له فى ايمانه بأنه من أهل هذا الدين ٠ أما أسامة ، فهو وان نعت الافرنج بالكفرة ، واستنزل عليهم لعنة الله(١٠) ، فان وقاره ازاءهم منبثق الى حد كبير عن تفوق حضارة قومه ٠ كان بوسع الجبرتى أن يحتقر اقبال الفرنسيين على شرب الخمر ، وان يستنكر سفور نسائهم وقلة حيائهن ، غير أنه لم يعد بالوسع ان يصفهم بالبهائم ، أو أن يقول ان محاكماتهم غبية وطبهم ساذج(١١) ٠ بل أصبح اذا رأى سلعة

---

(٨) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ٠

(٩) الجبرتى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ، لجنة البيان العربى بالقاهرة ، ١٩٥٨ ـ ١٩٦٧ ، الجزء الرابع ، ص ٢٨٤ ٠

(١٠) « كتاب الاعتبار » ، ص ١٢٨ و١٣٩ ٠

(١١) راجع الرسالة التى وجهها شيوخ الديوان بمصر الى ديجينيت Desgenettes رئيس أطباء الحملة الفرنسية يشكرونه فيها على رسالته التى أرسلها اليهم عن داء الجدرى السائد فى مصر فى ذلك الحين ٠ وقد وصف الجبرتى رسالة الطبيب بأنها لا بأس بها فى بابها ، وقال ان ديجينيت بعث الى كل من الشيوخ « نسخة على سبيل المحبة والهدية لعائلها الناس ، ويستعملوا ما أشار اليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال » (« عجائب الآثار » : ١٩٩) ٠ أما رسالة الشيوخ فقد ورد نصها فى صحيفة « لا ديكاد اجيبشيين » Décade Egyptienne (الجزء الثالث ، ص ١٩٦) ، وهو :

مصرية جيدة الصنع يقول ان من يشـــاهدها لا يشك فى أنهـــا من صنع الافرنج(١٢) ، وأن من يذهب الى بلادهم « تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمـــارة بلادهم ، وحسن ســـياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم وصنائعهم ، وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم »(١٣) • لقـــد شهدت القرون السبعة انقلابا فى الأوضاع وتغيرا فى الموازين • وعاد الافرنج الذين بهرهم فى عصر أسامة ما أنجزته حضارة الاسلام ، واقتبسوا منهـا ما رأوه جديرا بالاقتباس ، عادوا بعد تلك القرون الســبعة الى الشرق ، ناظرين الى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا الى قبائل البدائيين(١٤) •

« من محفل الديوان العـالى بمصر المحروسة ، خطابا الى الســيتوين (المواطن) الخواجة دجنط ، رئيس الأطباء الفرنســاوية ، جعل الله الخير على يديه • اما بعد الدعا لكم بخير ، فانه ســابقا وصلت من بينتكم وهى الرســالة التى عم نفعها بين الخاص والعام من أهالى مصر من جهة الرســالة والكتاب الذى اللفتوه (كذا) فى علاج الجدرى واسبابه ، واصلاح غذايه ، وتدبير ادويته ، وقطع ضرره • وقد شــكر الناس جميعا كمال عقلكم وحسن صنيعكم ، وعلموا مزيد اتقانكم فى علم الحكمة والطب ، وفرح الناس جميعا بهذا الكتاب ، وادخروه عندهم ليحفظوا انفسهم من هذا الداء العضــال الكثير المنتشر فى اقليم مصر • وكثرت دعوات الناس الصالحة لكم ، وشـــكروا احسانكم ومعروفكم ، وعلموا أن الفرنســاوية لهم خبرة ومعرفة واتقان بعلم الطب • وكان السبب فى اعتراف الناس بذلك هو هذا الـكتاب • ولا تقطعوا عن الناس معارفكم وعلومكم • قال النبى صلى الله عليه وسلم « خير الناس من نفع الناس » ، ومن علم علما وعلمه حصل له "الثواب الكثير والأجر العظيم من الله • والسلام عليكم ورحمة الله »"•

هذا فى الوقت الذى كان المجمع العلمى الفرنسى فى مصر يذكر أطبـاء الحملة بأن مصر « كانت مهـد الطب القديم ، وربما بقيت فيها آثار من حـكمة القدماء • فالواجب دراسة أنواع التطبيب البلدى بعناية » •

(كريستوفر هيرولد : « بونابرت فى مصر » ، ترجمة فؤاد اندراوس • دار الكتاب العربى بالقـاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤١) •

(١٢) عجائب الآثار ٧ : ٢٠٥ •

(١٣) المرجع السابق ٦ : ٣٤٣ •

(١٤) يقول الرحالة الدنماركى نيبور Niebuhr فى كتابه «Travels Through Arabia and Other Countries in the East» طبعة ادنبرة ١٧٩٢ : ١ : ٢٢٨ — ٢٢٩ ، الذى زار مصر فى ١٧٦١ — ١٧٦٢ وقضى بها نحو عام : « ان العرب ينظرون الينا نظرتنا الى الصينيين ، ويرون انفسهم أكثر استنارة وابداعا منا ، معتقدين أنهم يشرفوننا اذ يحلوننا فى المرتبة الثانية بعدهم » • غير أنه هنا يتحدث عن سكان شبه الجزيرة العربية ، ويضيف (ص ٢٤٨) قوله انه لاحظ أن العرب يغدون أكثر تحضرا كلما بعد المسافر عن مصر •

٢

الصدمة الناجمة عن تفوق السلاح الغربى

كانت الانتصارات الحربية والسياسية التى حققها الاسلام فى حقبته التاريخية الأولى ، قد غرست فى نفوس الشعوب الاسلامية شعورا من الاطمئنان والرضا عن النفس ، لم تر معهما حاجة الى تقليد ما ابتدعه الغرب منذ بداية عصر نهضته من اسلحة وادوات ونظم وافكار ، كوسيلة للتصدى لهذا الغرب ذاته • وهى حاجة شغلت تفكير بطرس الأول فى روسيا وكيفت سياساته باسرها ، بعد مرور أقل من قرن على احتلال الغزاة البولنديين الغربيين لموسكو فيما بين عامى ١٦١٠ و ١٦١٢ • وقد كانت ذكرى هذه الانتصارات الاسلامية هى أيضا مما جعل الغرب يتردد طويلا فى شان الانتقال من طور الدفاع الى طور الهجوم ، خشية أن تتكرر هزائمه فى الحروب الصليبية المتتالية • غير انه ما أن احرز الغرب انتصاره الحاسم عام ١٦٨٣ على الأتراك العثمانيين المهاجمين عند فيينا ، حتى بدأ يدرك حقيقة ضعف خصمه ، ويتطلع الى الهجوم المضاد •

وقد تاخر هذا الهجوم المضاد مع ذلك قرابة قرن من الزمان • لانشغال الدول الأوروبية بتاسيس مستعمرات لها فى كل من آسيا والعالم الجديد ، ولأنها كانت تخشى ان يؤدى هجومها على أملاك « الرجل الضعيف » والشروع فى اقتسامها ، الى ضعف الدولة العثمانية ضعفا يغرى بها روسيا فتسعى الى ان تجد لنفسها منفذا الى البحر الأسود فالبحر الأبيض المتوسط • فما أن اشتعلت نيران الحرب الروسية التركية عام ١٧٦٨ ، وتوالت على العثمانيين الهزائم الساحقة طوال السنوات الست التى استغرقها القتال ، حتى أدركت تركيا انه لا مفر من أن تحذو حذو بطرس ، وأن تسمح بادخال اصلاحات

عسكرية على النمط الغربى . وكان أول من نهض بهذه الاصلاحات السلطان سليم الثالث الذى تولى السلطنة عام ١٧٨٩ ، أى قبل تسع سنوات فقط من قيام قطر أوروبى آخر - هو فرنسا - يغزو أحد أقاليم دولته(١٥) .

وقد جاء هذا الغزو ثمرة لمخططات عديدة قديمة تهدف الى اقتسام الامبراطورية العثمانية ، اشترك فى وضعها بابوات وملوك واباطرة ودبلوماسيون ورحالة ومنجمون وحالمون وعلماء اللاهوت ، وكان معظمها يجعل مصر من نصيب فرنسا . وقد اقترح الفيلسوف الألمانى لايبنيتز (١٦٤٦ - ١٧١٦) على لويس الرابع عشر غزو مصر ، كى يحول أنظار الملك الفرنسى عن الراين ، ويصرفه عن غزو هولندا فيدفع الخطر عن البلد الذى ولد فيه . قال للملك : « ان مصر هولندا الشرق ، فاذا كانت لفرنسا السيادة على تلك البلاد كانت لها الكلمة العليا فى البحر المتوسط ، وقبضت على طريق الهند ، وبعبارة أخرى ، على تجارة العالم »(١٦) . كما نصح السياسى الفرنسى شوازيل (١٧١٩ - ١٧٨٥) لويس الخامس عشر أن يسعى الى تملك وادى النيل كى يعوض ما خسره فى أمريكا وجزر الهند الغربية من مستعمرات . فكان الغزو الفرنسى لجزيرة كورسيكا خطوة فى هذا الاتجاه . وفى عهد لويس السادس عشر قدمت الى الملك مذكرات عديدة حول الموضوع ، وأرسل بعض الضباط الى مصر لدراسة امكان غزوها . وظهر فى فرنسا عام ١٧٨٧ كتاب لفرانسوا فولنى ، صديق بونابرت ، يصف فيه رحلته الى سوريا ومصر . ورغم أنه لم يقترح فيه غزو مصر ، فقد ساهم كتابه فى تبديد الأساطير الشائعة عن قوة المماليك العسكرية . وفى

---

(١٥) راجع فى هذا الفصل الثانى من كتاب ارنولد توينبى
«The World and the West»

(١٦) مقال سابا حبشى فى كتاب « حضارة مصر الحديثة » . نشرته الجامعة الامريكية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . المطبعة العصرية . ص ١٩٣ .

٩ فبراير ١٧٩٨ ، قدم القنصل الفرنسى السابق فى مصر ، ماجالون ، مذكرة الى حكومته عن غزو مصر باعتباره انجع وسيلة لضرب النفوذ البريطانى فى الشرق • وقد اتخذ المشروع طابعا رسميا بتولى تاليران وزارة الخارجية الفرنسية • فقد أخبر بونابرت بان الحكومة مهتمة بكل بلدان حوض البحر المتوسط ، وخاصة مصر التى يمكن إن تحل كمستعمرة محل جزر الأنتيل فى تزويد فرنسا بالصادرات ، وأن تنقل الى فرنسا تجارة الهند(١٧) •

اما عن الحكام المماليك فى مصر فلم يكونوا قد كونوا لأنفسهم بعد اية صورة عما وصل اليه الغرب من تفوق فى فن الحرب • وعندما حذرهم الانجليز قبل وصول اسطول بونابرت بأيام قلائل من الخطر الذى يتهددهم ، لم يأبهوا لهذا التحذير ، وكانوا على ثقة تامة فى قدرتهم على صد غزو من ظنوهم « أشباه الخواجات التجار الذين نراهم بيننا »(١٨) ، فاكتفوا بارسال قنطارين من البارود الى الاسكندرية !(١٩) • يقول الجبرتى : « واما الأمراء فلم يهتموا بشىء من ذلك ، ولم يكترثوا به اعتمادا على قوتهم وزعمهم أنه اذا جاءت جميع الافرنج ، لا يقفون فى مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم(٢٠)• وحتى بعد وصول مراكب الفرنسيين الى الاسكندرية ، ونزول جندهم الى البر ، بحيث « لم يشعر اهل الثغر وقت الصباح الا وهم كالجراد المنتشر حول البلد ••• فلم يستطيعوا مدافعتهم ، ولم يثبتوا لحربهم »(٢١) ، نجد

---

(١٧) راجع فى هذا الموضوع الفصل الأول من كتاب شفيق غربال
«The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehmet Ali» 1928, Routledge.

(١٨) كلوت بك « لمحة عامة الى مصر » ٢ : ٢٥٩ •

(١٩) المرجع السابق ٢ : ٢٦٠ •

(٢٠) « عجائب الآثار » ٤ : ٢٨٥ •

(٢١) المرجع السابق ٤ : ٢٨٥ •

مراد بك ، حين أنبىء قبل التحامه لأول مرة بالفرنسيين بأن جيش بونابرت لا يكاد يملك خيـــالة ، يضحك عاليا ويقول انه سيشرحهم كمـــا يشرح الشمام !(٢٢) ٠

كانت هزيمة لويس التاسع عنـــد المنصورة لا تزال ماثلة فى ذاكرة المماليك ، وهى هزيمة حلت بجيش الافرنج فى وقت كانوا فيه دون المسلمين فى مضمار الحضارة والحرب ٠ فان كانت فرنسا قد تركت مصر لشأنها بعـد ذلك لمدة خمسة قرون ونصف قرن ، فقد استطاعت فى تلك الحقبة أن تطور من نظمها وجيشها الى حد بعيد ، بينما بقى المماليك عـلى حالهم دون تغيير يذكر ، اللهم الا احلالهم البنادق الانجليزية محل أقواس آسيا الصغرى ٠ وقد افترض المماليك حين اتاهم نبأ وصول بونابرت ، ان فرنســا باقية ـ شأنهم ـ على حالها وقت الصليبيين ٠ وعندما قابلوه مقابلتهم للصليبيين ، اذا بهم لا يصادفون رجالا عاديين ، وانما مخلوقات مسلحة بقوى لا تدركها عقولهم ، ولا يقهرها سلاحهم ٠ وقد سحقتهم هذه المخلوقات سحقا شدهت له عقلية الشرق(٢٣) ٠ وكانت موقعة امبابة (فى ١٨ يوليو ١٧٩٨) التى هزم فيها المماليك « أحسن الفرسان طرا على وجه الأرض »(٢٤) ، خاتمـة المعارك التى أديرت وفق القواعد العسكرية المعروفة فى العصور الوسطى ٠

كان أمراء المماليك « متنــافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفـــة آراؤهم ، حريصـــين على حيـــاتهم وتنعمهم ورفاهيتهم » ٠ وهم مع ذلك « مختـــالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شـأن عدوهم ٠٠٠

---

(٢٢) « بونابرت فى مصر » : ١٢٨ ٠

(٢٣) راجع مقدمة أرنولد توينبى لكتاب شفيق غربال المذكور آنفا ٠

(٢٤) كلوت بك « لمحة عامة الى مصر » ٢ : ١٤٠ ، وراجع ما كتبه مونتى عن فرسان المماليك فى المقال ٤٨ عن احصنة القتال ٠

مغمورون فى غفلتهم »(٢٥) • وكان لابد لهم من أن يروا الفرنسيين وهم يصطفون فى مربعاتهم حتى تأخذهم تلك الحيرة التى يحسها كاب الصيد حين يصادف قنفذا لأول مرة فى حياته • اما عامة الشعب فكانوا اقل ثقة واستخفافا بالقادمين • فقد كثرت بينهم المقالات والأراجيف(٢٦) ، « ورفعوا الأصوات بقولهم : يارب يا لطيف ، ويا رجال الله ، ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم • فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويامرونهم بترك ذلك ، ويقولون لهم ان الرسول والصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه »(٢٧) •

وأما علماء القوم ومشايخهم فانهم حين برز مراد بك وجيشه لقتال الفرنسيين ، صاروا يجتمعون « بالأزهر كل يوم ، ويقرءون البخارى وغيره من الدعوات ••• ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء ••• وصعد عمر افندى (مكرم) نقيب الأشراف الى القلعة ، فانزل منها بيرقا كبيرا اسمته العامة البيرق النبوى ، فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق ، وامامه وحوله الوف من العامة بالنبابيت والعصى ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور ••• وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر »(٢٨) •

وفى رأينا أن « الصياح والجلبة والصراخ والنباح » لم يكن مبعثها الخوف ، اللهم الا ان كان ثمة خوف من الوقوع فى أسر افرنج كفرة غير

---

(٢٥) عجائب الآثار : ٤ : ٢٩٥ •
(٢٦) المرجع السابق ٤ : ٢٨٥ •
(٢٧) المرجع السابق ٤ : ٢٩٦ •
(٢٨) المرجع السابق ٤ : ٢٩١ — ٢٩٣ •

مالوفين • بل اننا نشك حتى فى أن المصريين كانوا يشعرون بمثل هـذا الخوف الأخير • كتب الكولونيل لوجييه فى يومياته أثنـاء زحف الحملة الى القاهرة يقول : « اننا نسير بحذاء النيل ، مخترقين منطقة طيبة الزرع ••• والسـكان يصطفون على جانبى الطريق ليرونا فى سـيرنا ويحيونا ••• الفلاحون يرتدون ثيابا حسنة وعليهم سيماء الرزانة والمهابة ••• أما النساء فيطلقن زغاريد كهديل الحمائم ليعبرن عن سرورهن »(٢٩) • فحكم العثمانيين والمماليك الذى عهدوا فى ظله شظف العيش ما كان مما يؤسف على زواله ، او يتوقع ما هو أسوأ منه • « فقد اعتاد المصريون النظر دون اكتراث الى تغير ساداتهم • واذ ضمن لهم بؤس حالهم أن أى تغيير يطرأ لن يكون تغييرا الى ما هو أسوأ ، فانه ليس ثمة دولة تقارب مصر فى سهولة حدوث الانقلابات بها فى القمة ، وليس ثمة شعب يماثل المصريين فى قلة احتفـالهم بعواقب هذه الانقلابات • وهم فى أوقات الأزمات والمحن أميل الى أن يصابوا بتراخ شامل فى الشعور والفكر ، لا تثـيرهم عندئذ الا أقاصيص الخوارق غـير الممكنة ، والحكايات عن عجائب المـاضى وغرائب الأقطار البعيدة »(٣٠) •

وانما كان الصياح والصراخ نابعين فى الغالب عن صدمة الحدث ، أو ميل الى التفريج عن ملل جاثم ، أو اضطرار الى ممالأة الأمراء • وقد كتب بونابرت الى حكومة الادارة بباريس حين استقر بالقاهرة يقول : « ان هذه الأمة تختلف كل الاختلاف عن الفكرة التى اخذناها عنها من رحالتنا • انهـا امة هادئة باسلة معتزة بنفسها » • وكتب اخوه لويس الى جوزيف بونابرت يقول : « ان فى الشعب رباطة جاش مدهشـة • فلا شىء يهزهم • وليس

---

(٢٩) « بونابرت فى مصر » : ١١٧ • أما نرفال ١ : ٢٩ فيصف صوت الزغاريد بصياح الدجاج •

(٣٠) انظر فى هذا كتاب شفيق غربال ٢٠٨ — ٢٠٩ •

الموت عندهم باكثر من رحلة عبر المحيط عند الرجل الانجليزى »(٣١) .

هو اذن ، كما وصف الشـــاعر ميلتون الشعب الروسى ، « شـــعب لا يهاب الموت ، لأن حياته ليست بأفضل كثيرا منه »(٣٢) .

٣

الانطباعات الأولى

« ... غير ان البشر جميعا يتخلون عن دهشتهم شيئا فشيئا »

لوكريتيوس

« شوارع ضيقة قذرة غير مرصوفة ، وبيوت مظلمة متداعية ، وابنية عامة تبدو كانها السجون ، وحوانيت أشبه بمرابط الخيل ، وجو عبق بعطر التراب والقمامة ، وعميان وعور ورجال ملتحون وأشخاص يرتدون أسمالا محشورون فى الشوارع ، أو قاعدون يدخنون قصباتهم كالقردة امام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة مقززات ، يخفين وجوههن العجفاء وراء خرق نتنة ، ويبدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، واطفـــال صفر الوجوه ، رقاق الأجســـاد ، ينتشر الصديد عـــلى جلدهم ، وينهشهم الذباب »(٣٣) .

---

(٣١) « بونابرت فى مصر » : ١٠٠ .

(٣٢) راجع ما ذكره كلوت بك (٢ : ١٥٥ ـ ١٥٦) عن هدوء المصريين المحكوم عليهم بالاعدام وعدم اكتراثهم بحبل المشنقة : « وانك لتعتقد اذا رايتهم انهم ليســوا المقصودين بتنفيذ الحكم .. لقد كنت ارى المحكوم عليهم بالاعدام يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث وبدون ان تبدو على وجوههم علامات الانفعال او الذعر ، بل ويتحدثون بهدوء مع حراسهم . اما الجمهور فقلما تسوقه الرغبة الى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ ، كما تفعل الجماهير عندنا .. ويصعد المحكوم عليهم بالاعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد .. ويمدون عنقهم .. بدون ان يبدو على وجوههم اثر الخوف ، حتى ان المتفرس فيهم لا يفرق بين حالتهم فى موقفهم امام الموت وحالتهم العادية قبله » .

(٣٣) « بونابرت فى مصر » ١٨٧ ـ ١٨٨ .

هذه هي الصورة التي وجد الميجور ديتروا القاهرة عليها حين دخلها الجيش الفرنسي في أواخر يوليو ١٧٩٨ ۰ وهو يستطرد فيصف أسباب التسلية واللهو فيها مما لا يرقى فوق لعب الحواة ورقص الراقصات الذى لا يوحى بفرح أو انشراح والذى « يبدأ شهوانيا ثم ما يلبث أن يصبح داعرا لا يحمل للناظر غير تعبير مبتذل عن نشوة الحس »(٣٤) ۰ ويقول عن بعض احتفالات أهل العاصمة ان الألوف ساروا في مواكب يحملون المشاعل والشموع الكبيرة ، وهم ينشدون «أغاني كلها نشاز ، ترافقها موسيقى أكثر نشازا ، ويتصايحون ويزعقون ويحدثون ضجيجا شنيعا(٣٥) ۰۰۰ ترى في الميادين العامة الدببة والقردة المدربة والمغنين والمغنيات ۰۰۰ والحواة يأمرون الثعابين فتختفي ، والأطفال يرقصون رقصات غاية في الفجور ۰۰۰ وفي المساء ظهر الدراويش ، والشعب يجل هؤلاء المتعصبين الذين يطلقون شعورهم ويسيرون عراة تقريبا ۰۰ واجتمع الأتقياء في حلقات يجلس فيها الرجال متلاصقين وقد عقد كل منهم ذراعه بذراع صاحبه ۰ ثم بدأوا يهتزون في حركة عنيفة ذات اليمين وذات اليسار ، حتى خارت قواهم »(٣٦) ۰

أما قائد الحملة ، بونابرت ، فقد كتب الى حكومة الادارة يوم دخوله

---

(٣٤) المرجع السابق ١٨٩ ، والوصف لفرنسي آخر هو دينون ۰ ويلاحظ ان معظم الرحالة الاوروبيون وصفوا الرقص في مصر بانه بذيء يخدش الحياء ۰ (راجع كلوت بك ٢ : ١٢٨ ، وادوارد لين ، ونيبور ١ : ١٤٢ ، ووسائل فلوبير) ۰ بيد أن نيبور يضيف أن استنكار الشرقيين لرقص الأوروبيين مع النساء ليس أقل من استنكار الأوروبيين لبذاءة الرقص الشرقي، ويقول ان احد الاتراك الذين شهدوا االكرنفال بايطاليا ظن ان الأوروبيين يصابون بمس من الجنون في موسم معين من السنة !

(٣٥) راجع في مقابل ذلك وصف كراهة المصريين للموسيقى الغربية في كلوت بك ٢ : ١٢٤ ونيبور ١ : ١٣٢ ـ ١٣٣ ۰ وقد صرح أحد المصريين لنيبور بقوله : « موسيقاكم هوجاء بغيضة ، ولا يمكن لعاقل أو وقور ان يستمتع بها » ۰ اما جيراردو نيرفال ١ : ١٢٧ فيصف الموسيقى المصرية بانها « نغمات حزينة من آلات تحاكي صرير الأبواب أو صوت عربة تجرب عجلات جديدة » !

(٣٦) « بونابرت في مصر » ٢٠٧ ۰

أكثر من ثلاثمائة الف نفس تضم اقبح ما تضم مدينة من غوغاء »(٣٨) .
القاهرة يقول : « من الصعب أن يجد الانسان بلدا أكثر غنى ، وشعبا أشد
بؤسا وجهلا وضراوة »(٣٧) . وفى رسالة أخرى : « ان القاهرة التى يسكنها

غير ان صدمة اللقاء الأول لدى كل من الطرفين ما لبثت حدتهـا ان تضاءلت(٣٩) . فالجندى الفرنسى الذى يقال ان ابراهيم بك صوره للمصريين على أنه « شـيطان طول أظافره قدم » ، تبينوا أنه فتى دمث طيب القلب ما لم يستفز ، قليل الاعتداد بكرامته ، ظمآن للشراب . ولا شك أنه قـد راعهم ان يجدوا القائد بونابرت يحضر أمامه جنديا فرنسيا انتزع خنجرا من عربى مسالم ، فيامر باعدامه بالرصاص فورا . وأما الوجوه التى تقزز الميجور ديترو منها عند قدومه ، فقد كتب عنها لويس بونابرت فى رسالته المشار اليهـا يقول : « أما طلعتهم فمهيبة ، وسحنتنا نحن ، حتى أقواهـا وابرزها ملامح ، تبدو كوجوه الأطفال اذا قيست بسحنتهم » . ويعلق الجندى مييه على ثياب القوم بقوله : « قد يبدو زى الأهالى لأول وهلة عديم الشكل . ولكنى بعد أن تاملته جيدا أدركت أنه أكثر وقارا من زينا »(٤٠) . بل انه

---

(٣٧) المرجع السابق ١٤٠ .

(٣٨) المرجع السابق ١٨٧ .

(٣٩) كان أهل الاسكندرية دون سواها كبيرى الاحاطة بأحوال الافرنج المترددين عليها للمتاجرة . ويقول نيبور ١ : ٣٦ ـ ٣٧ انه لم يصادف فى اى مكان مثل ذلك العدد الكبير من الناس ـ كما بالاسكندرية ـ ممن يلمون الماما سليما باللغات الأوروبية ، حتى لغات أوروبا الشمالية . « وقد تعود سكان الاسكندرية الالتحاق كبحارة فى سفن المسيحيين . وبعد أن يروا العالم ويتعلموا بعض اللغات ، يعودون الى وطنهم ويصبحون رسلا او مترجمين للأمم التى خدموها ... (والواقع) أن المصريين المعاصرين أصلح من غيرهم من المسلمين للتعامل التجارى مع الأوروبيين حيث انهم اقل تعلقا باحكام دينهم وعاداتهم » .

(٤٠) « بونابرت فى مصر » ١٠٠ ـ ١٠١ . وقد أبدى نيبور أيضا اعجابه الشديد بالبساطة المتناهية التى يتسم بها زى المصريين الذين يكرهه معظم الزى الأوروبى . ويقول ان عروض الفانوس السحرى فى مصر كانت دائما تتناول ملابس الأوروبيين وعاداتهم بالسخرية . وان الأوروبيين كانوا يتعرضون للمضايقات فى مصر بسبب هذا الزى الا فى الاسكندرية لتعود

حتى اللواط بالاكراه الذى تعرض له من وقع من الفرنسيين فى أيدى البدو . والذى أثار دهشتهم فى البداية وقلل من اعجاب تلاميذ روسو برجل الطبيعة ، ما لبثوا أن تقبلوه على أنه من الأخطار التى يتعرض لها المحاربون فى بلاد الشرق ا(٤١) .

« ومشت الفرنساوية فى الأسواق من غير سلاح ولا تعد ، بل صاروا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتاجون اليه بأغلى ثمن ... قياسا على أسعار بلادهم ، وأثمان بضائعهم . فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم ، واطمأنوا لهم ، وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج ... وفتح غالب السوقة الحوانيت والمقاهى ... ثم ان عساكرهم صارت تدخل المدينة شيئا فشيئا ، حتى امتلأت منهم الطرقات ، وسكنوا فى البيوت ، ولكن لم يشوشوا على أحد ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها . ففجر السوقة ، وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه ، وفتح الناس

أهلها على مشاهدة الافرنج ١ : ٢٤ ثم ١٤٤ - ١٤٥ . ويقول نيرفال ١ : ٢٢٢ ان اللباس الأوروبى يبدو سخيفا فى نظر الشرقيين لدرجة أنهم يحتفظون دائما فى المدارس بقبعة افرنجية يضعونها على رءوس الأطفال الكسالى أو غير المطيعين . وهى بمثابة الطرطور بالنسبة للتلميذ التركى .

(٤١) والظاهر أن اللواط الذى عرفه الفرنسيون فى مصر لم يكن كله بالاكراه ! فالجبرتى يحكى عن علاقة بين الشيخ الخشاب سكرتير الديوان بشاب فرنسى « من رؤساء كتابهم كان جميل الصورة ، لطيف الطبع ، عالما ببعض العلوم العربية ، مائلا الى اكتساب النكات الأدبية ، فصيح اللسان بالعربى ، يحفظ كثيرا من الشعر . فلتلك المجانسة مال كل منهما للآخر ، ووقع بينهما توادد وتصاف ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر . فكان (الخشاب) تارة يذهب لداره ، وتارة يزوره هو » . وأورد الجبرتى بعض ما نظمه الخشاب من « الغزل الفائق » فى هذا الشاب ، ومنه :

علقته لؤلؤى الثغر باسمه ... فيه خلعت عذارى بل حلا نسكى
ملكته الروح طوعا. ثم قلت له ... متى ازديارك لى افديك من ملك
فقال لى وحميا الراح قد علقت ... لسانه ، وهو يثنى الجيد من ضحك
اذا غزا الفجر جيش الليل وانهزمت ... منه عساكر ذلك الأسود الحلك

« عجائب الآثار » ٧ : ٣٣٧ .

عدة دكاكين بجوار مساكنهم ، وفتح نصارى الأروام عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة ، وخمامير وقهاوى ، وفتح بعض الافرنج البلديين(٤٢) بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم فى بلادهم(٤٣) ... ويعمل على بابه علامة لذلك ... فيدخلون الى ما يريدون من المجالس ، وفى وسطه دكة من الخشب ، وهى الخوان التى يوضع عليهـــا الطعام ، وحولهـــا كراسى فيجلسون عليهـــا ، ويأتيهم الفراشون بالطعام عـــلى قوانينهم ، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه . وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ، ويذهبون لحالهم »(٤٤) .

وقد شغف الفرنسيون من مدنيين وعســكريين على الســواء بركوب الحمير ، « فان للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة فى الأجرة ، بحيث أن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجرى بها مسرعا فى الشـــارع . وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمـــير ويجهدونها فى المشى والاسراع ، وهم يغنون ويضـــحكون ويتمسخرون ، ويشاركهم المكارية فى ذلك »(٤٥) .

ويشرع الرسام ريجو فى سلسلة من الدراسات حول الطبيعة والبشر فى مصر ، فيلفت نظره ملامح « قائد قافلة نوبية يدعى عبد الكريم لشـــدة وضوح الخلق النوبى فى هيئته . فعزم ريجو على رسمه وشرع فى اجتذابه الى منزله ... وبعد مفاوضة طويلة جاء عبد الكريم الى حجرة رســم ريجو مصحوبا بحاشية من مواطنيه يبلغ عددها قرابة عشرة أشـــخاص ، ومتخذا

---

(٤٢) يقصـــد بالافرنج البلديين من كانوا مقيمين منهم بمصر وقت وصول الحملة .
(٤٤) يعنى المطـــاعم .
(٤٤) عجائب الآثار ٤ : ٣٠١ - ٣٠٤ .
(٤٥) المرجع السابق ٥ : ١٧ - ١٨ .

احتياطات رجل قد اقتنع بأنه جذب الى فخ ··· وأظهر النوبى رضـــاه عن الرسم التخطيطى ، وكان يشير باصبعه الى أجزاء الرسم ، وهـــو فى الحجم الطبيعى ··· ويقول « طيب » · ولكن حين أتم الفنــــان التلوين كان الأثر مخالفا لهذا تماما ، فلم يكد عبد الكريم يلقى بصره على الرسم حتى تراجـع بعنف وهو يصيح صيحات الفزع ··· وفتح باب حجرة الرســـم وهرب بأقصى سرعة ·· وقال فى الحى انه قادم من بيت أخـــذوا فيـه منه رأسه ونصف جسمه ! »(٤٦) ·

ويطلع المصريون شيئا فشيئا على عادات القـــادمين الغرباء ، ويتبنى بعضهم — خاصة القبط — بعض هذه العادات · وقد جمـــع يعقوب القبطى الذى جعله الفرنسيون « سارى عسكر القبطة ، جمع شبان القبط ، وحلق لحاهم ، وزياهم بزيّ مشابه لعســـكر الفرنساوية ، مميزين عنهم بقبـــع يلبسونه على رءوسهم مشابه لشكل البرنيطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة ، مع ما يضاف اليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم وزفارة أبدانهم ، وصيرهم عسكره وعزوته ·· وبنى له قلعة ·· رتب على أبوابها ·· عددا من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا وبأيديهم البنادق على الطريقة الفرنساوية »(٤٧) · كما شرع الفرنسيون فى تدريب بعض المغاربة على « كيفية حربهم وقانونهم ، ومعنى اشاراتهم فى مصافاتهم » للاستعانة بهم فى جيشهم · « فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صـفا ، وبأيديهم بنادقهم ، فيشير اليهم بألفاظ بلغتهم ، كأن يقـول « مردبوش » فيرفعونها قابضين بأكفهم عـــلى أسافلها ، ثم يقول « مرش » فيمشـــــون

---

(٤٦) « كورييه دو ليجيبت » عدد ٢٥ · والقصة تذكرنا بقولة صامويل جونسون فى خطاب له الى بوزويل بتاريخ ١٧٨٠
«There is a superstitious reluctance to sit for a picture»

(٤٧) عجائب الآثار : ٥ : ٢٣٩ ·

صفوفنا »(٤٨) ٠

أما العلماء والمشايخ فانهم بعد تحققهم من انتصار الفرنسيين ، اجتمع عدد منهم بالأزهر للتشاور ، ثم اتفقوا على ارســـال رسلهم الى بونابرت للاستفهام عن قصده ٠ « فقال (لهم بونابرت) على لسان الترجمان : وأين عظماؤكم ومشايخكم ؟ لم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة ؟ وطمنهم وبش فى وجوههم ٠٠٠ ثم قال : لابد أن المشـايخ ياتون الينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة اشخاص عقـلاء يدبرون الأمور ٠ ولمـا رجع الجواب بذلك ، اطمأن الناس ، وركب الشيخ مصطفى الصـاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون الى الجيزة ، فتلقاهم (بونابرت) وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فاعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا ٠ فقال : لأى شىء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور ، ونعمل لكم ديوانا لأجـل راحتكم وراحة الرعية واجراء الشريعة ٠ فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضــور والأمان ٠٠ فحضروا الى مصر ، واطمأن برجوعهم الناس ، وكانوا فى وجـل وخوف على غيابهم »(٤٩) ٠

ويبذل الفرنسيون جهدا صادقا للتقرب من الشعب ، خاصة المشايخ والأعيان ٠ والواقع انه رغم ما ذكره ادواردلين(٥٠) عن أن أبرز جانب من شخصية المصريين هو الاعتزاز بدينهم ، والايمان بسموه فوق سائر العقائد ، وأنهم ينظرون الى غـــير المسلمين على أنهم ضائعون جديرون بالاحتقـار ، (و « يقرنون اشارتهم الىغير المسلمين بشتائم مثلالكلب أو الكافر »)(٥١) ،

---

(٤٨) المرجع السابق : ٤ : ٣٣٦ ٠

(٤٩) المرجع السابق ٤ : ٢٢٩ ـ ٣٠٠ ٠

(٥٠) «Manners and Customs of Modern Egyptians» طبعة Everyman's ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ٠

(٥١) كلوت بك ٥٥٣ ٠

فهم متسامحون معهم بقدر احتقارهم لهم ، يعاملون المسيحيين – خاصة ان كانوا اوروبيين – بأدب ، ويحادثونهم فى ود ظاهر يخفى ما قد تكنه بعض القلوب سواء بدافع الأدب أو المصلحة ٠

ففى رمضان « صار الفرنساوية يدعون أعيان الناس والمشايخ والتجار للافطار والسحور ، ويعملون لهم الولائم ويقــدمون لهم الموائد عـلى نظام المسلمين وعاداتهم ، ويتولى أمر ذلك الطباخون والفراشــون من المسـلمين تطمينا لخواطرهم ، ويذهبون هم أيضا ويحضرون عندهم الموائد ، ويأكلون معهم فى وقت الافطار ، ويشاهدون ترتيبهم ونظامهم ويحذون حذوهم ٠ ووقع منهم من المسايرة للنــــاس وخفض الجانب ما يتعجب منـه ٠ والله أعلم »(٥٢) ٠

وفى العيد « ركب آكابر الفرنسيس وطافوا على أعيان البلد ، وهنوهم بالعيد ، وجاملهم الناس بالمداراة أيضــا »(٥٣) ٠ وسال صارى عسـكر (بونابرت ، المشــايخ) عن المولد النبوى ، ولمـاذا لم يعملوه كعـادتهم ٠ فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال ، فلم يقبل ، وقال : لابد من ذلك ٠ واعطى لهم ثلثمـائة ريال فرانسا معــاونة ، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل ٠ واجتمــع الفرنسـاوية يوم المولد ٠٠٠ وضربوا طبولهم ودبادبهم ٠٠ وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة ، وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء »(٥٤) ٠ وبعــد ذلك بأيام أمر بونابرت بتشهيل مهمات الحج ٠

ويدرك الفرنسيون سريعا مدى شغف المصريين بالاحتفــالات العـامة

---

(٥٢) عجائب الآثار ٥ : ٢٥ ٠
(٥٣) المرجع السابق ٥ : ٢٦ ٠
(٥٤) المرجع السابق ٤ : ٣١٠ ٠

بسبب قلة صلاتهم الاجتماعية ووسائل لهوهم ؛ فباتوا يحرصون على اشراكهم فى احتفالاتهم هم ٠ ففى ذكرى قيام جمهوريتهم آقاموا احتفالا ببركة الأزبكية ، « وضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة ٠٠٠ وضربوا طبولهم واجتمعت عساكرهم ٠٠٠ واصطفوا صفوفا على طرائقهم المعروفة بينهم ، ودعوا المشايخ واعيان المسلمين ٠٠٠ ثم ان العساكر لعبوا ميدانهم ، وعملوا هيئة حربهم ، وضربوا البنادق ، وقرأ عليهم كبير قسوسهم ورقة بلغتهم لا يدرى معناها الا هم ، وكانها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ(٥٥) ٠٠٠ ورجع صارى عسكرى الى داره فمد سماطا عظيما للحاضرين ٠٠٠ وعند العشاء عملوا حراقة بارود وسواريخ »(٥٦) ٠

وقد اضطر المشايخ فى وليمة بونابرت — لأول مرة فى الغالب — الى الأكل بالشوكة والسكين(٥٧) ٠

مثل هذه الاحتفالات كان بونابرت يرى فيها فرصة لربط الشعب المصرى بالعادات والنظم الفرنسية ٠ وقد شاء ، بما اوتيه من طبيعة بهلوانية ، أن يذهل القاهريين ، فامر بان تلصق فى الأسواق أوراق مطبوعة « مضمونها : ان فى يوم الجمعة (اول ديسمبر ١٧٩٨) قصدنا ان نطير مركبا ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية(٥٨) ٠ فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم ٠ فلما كان ذلك اليوم قبل العصر ، تجمع الناس٠٠

---

(٥٥) لم تكن هذه العظة فى الحقيقة سوى اعلان من بونابرت الى الجيش قرأه أحد ضباطه (راجع وصف صحيفة « كوريه دو ليجبت » للحفل) ٠

(٥٦) « عجائب الآثار » ٤ : ٣١٦ ٠

(٥٧) « بونابرت فى مصر » : ٢١٢ ٠

(٥٨) المقصود هنا اطلاق بالون فى الجو ٠ وكان الفرنسيون قد عبروا المانش قبل ذلك فيه عدة مرات ٠ اما فى هذه المناسبة التى يتحدث عنها الجبرتى فقد اطلقوه خاليا من الركاب « لأن احدا لم يرد التطوع بطيران قد يحط به وسط خيام البدو » ! (« بونابرت فى مصر » : ٢١٢ — ٢١٣)٠

ليروا تلك العجيبة ، وكنت بجماعتهم ، فرأيت قماشـــا على هيئة الأوية على عمود قائم ، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دائرة الغربال ، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان ، وتلك المسرجـة مصلوبة بسلوك من حديد منها الى الدائرة ، وهى مشدودة ببكر وأحبـال ، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قائمين بأسطحة البيوت القريبة منها • فلما كان بعـد العصر بنحو ساعة ، أوقدوا تلك الفتيلة ، فصعد دخانها الى ذلك القمـاش وملاه فانتفخ ، وصار مثل الكرة • وطلب الدخان الصـــعود الى مركزه فلم يجد منفذا ، فجذبها معه الى العلو ، فجذبوها بتلك الاحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض ، فقطعـــوا تلك الحبـال فصعدت الى الجو مـع الهواء ، ومشت هنيهة لطيفة ، ثم سقطت طارتهـــا بالفتيلة ، وسقط أيضـــا ذلك القماش ، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة(٥٩) • فلمـا حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها ، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنهـا على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة ، ويجلس فيهـا أنفار من الناس ويسافرون فيهـــا الى البلاد البعيدة لـكشف الأخبـار وارســـال المراسلات • بل ظهر أنها مثل الطيـــارة التى يعملها الفراشون بالمواسـم والأفراح »(٦٠) •

وكبار المشايخ أيضا يولمون الولائم لبونابرت وكبـار رجال حملته • فالشيخ المهدى يدعوهم الى حفل عرس أحـــد أولاده(٦١) ، والشيخ البكرى يدعوهم للعشاء عنده فى ذكرى المولد النبـوى(٦٢) • وقد أوردت صـحيفة « كوربيه دوليجيت » وصفا مفصلا للوليمة التى أولمهـــا الشيخ السادات

---

(٥٩) منشورات مطبوعة •

(٦٠) « عجائب الآثار » : ٤ : ٣٤٤ — ٣٤٥ •

(٦١) المرجع السابق ٥ : ٧٤ •

(٦٢) المرجع السابق ٥ : ٨٠ •

للجنرال بونابرت وصحبه بمناسبة مولد السيدة زينب · قالت الصحيفة :

« وفى المنظرة ، قدم الطعام على عدة صوان سهلة الحمل والنقل · يستطيع عشرة اشخاص او اثنا عشر شخصا ان يصطفوا حولها · وكانت حافة هذه الصوانى محلاة بكمية كبيرة من خبز رخو ، قليل السمك ، منتفخ كالعجة ، وباطباق من الخضر الباردة استمرت مكانها طوال وقت تناول الطعام · اما مركز الصوانى فقد شغل على التوالى بحوالى ثلاثين طبقا قدم الواحد تلو الآخر بسرعة ، ولم يستمر أحدها فى مكانه أكثر من دقيقتين · فكان طبق من اللحم يرفع ليحل مكانه طبق من الخضر او من الحلوى أو من الزبد ··· وحين فرغت هذه السلسلة ، قدم أرز بلبن من أنواع مختلفة·· وتبع الخشاف بانواعه هذا الأرز ، وهو لا يشبه فى شىء المشروبات المثلجة التى نتناولها فى اوروبا ، فهو ماء مسكر وضعت فيه بعض الروائح العطرية مع بعض الفاكهة مثل الموز ونواة الفستق ···

« وكان الطعام قد قدم وتبع بالأحاديث ··· قال الجنرال بونابرت للشيوخ ان العرب كانوا قد أزهروا العلوم والفنون التى عرفت أيام الخلفاء ، ولكنهم اصبحوا اليوم فى جهل مطبق ، ولم يتبق لهم شىء من معارف اجدادهم · فاجاب الشيخ السادات بان القرآن بقى محتويا على كل المعارف· فسال الجنرال عما اذا كان القرآن يعلم كيف يصهر المدفع · فاجاب كل الشيوخ الموجودين بجرأة أن نعم »(٦٣) ·

غير ان الحديث عن هؤلاء المشايخ والعلماء المصريين ، وعن علاقة الفرنسيين بهم ، يحتاج الى بيان واف ·

---

(٦٣) كوريه دو ليجيبت ـ العدد ٢٢ ص ٢ ، والترجمة من كتاب « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » للدكتور ابراهيم عبده ـ مكتب الآداب بالقاهرة ـ طبعة ١٩٤٩ ·

٤

الركود الفكرى فى ظل العثمانيين

قبل أن يبزغ فجر عصر النهضة فى أوروبا ، كان الشرق والغرب يكادان أن يسيرا متحاذيين • ثم جاءت النهضة فاذا الغرب يأخذ مجرى حضاريا مباينا ، يقفز فيه الى الأمام قفزات مفعمة بالنشاط والحيوية والتطلع ، ويضع أسسا جديدة لحياة جديدة قوامها تحكيم العقل ، وتحرير العواطف من قيود التقاليد ، واخضاع كل قضية للبحث والتجربة والمناقشة، فى حين انحسر المد الشرقى فى مجالات العلوم والآداب والصناعة وسائر ضروب الحضارة • وبمضى السنين والقرون ، عظمت الفجوة بينهما ، وزاد انغلاق الشرق على نفسه فلم يتصل بالغرب الا اتصالا عدائيا حربيا ، أو اتصالا تجاريا ضعيف الأثر ، فلم تسر اليه عبر الحواجز والأبواب الموصدة عدوى ما يحدث فى الغرب من تغييرات غيرت وجه حياته تغييرا شاملا •

وفى رأينا أنه لولا هذا الانغلاق ، لأخذ التأثير المتبادل بين الجانبين طريقا صحيا مثمرا ، ولتحقق التطور فى الشرق على نحو متدرج يتسم بالتمييز والتمثل الهادىء غير المتعجل أو الأهوج ، ولما أطارت الصدمة العنيفة التى حدثت عند العودة المفاجئة الى الاتصال ، لب الشرقيين ووقارهم ، وأفقدتهم توازنهم وثقتهم فى أنفسهم ، حين رأوا من الغرب فى ميادين العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب ، انجازات « لا تسعها عقول أمثالنا »(٦٤) •



(٦٤) التعبير للجبرتى ، « عجائب الآثار » ، ٤ : ٣٥١ •

كانت الكوارث المتلاحقة التي شهدها المصريون ، من تدمير وخراب وفقر وطواعين ، قد قتلت نفوس افراد الشعب ، بينما قتل السجن والتعذيب نفوس أصحاب اية دعوة جريئة غير مألوفة من العلماء . وكان رجال الدين الذين يحترمهم الشعب البائس ويسمع لأوامرهم ونواهيهم ، يسخرهم الحكام كيفما شاءوا . فكان الصمت والاستسلام ، وكان الاعتقاد بأن الظلم من غضب الله ، والفقر قدر مكتوب . وبقي امر الفكر في يد الفقهاء والصوفية ، الفقه قد تحول الى شكل ، والتصوف الى شعوذة . وكان هؤلاء جميعا قادة الشعب روحيا ، والحكام الطغاة قادته اداريا ، وتصالح هؤلاء وهؤلاء على اماتة نفسية الشعب .

واستمر المصريون في ظل حكم العثمانيين في دائرتهم المغلقة ، يحاكون حياة الشرق الأولى من غير روح ، فذبلت الحياة الفكرية في البلاد ، واصبح طابع نتاجها طابع تقاليد للسابقين ، او جمع لما قال الأولون ، ثم اذا هو قد اضحى تقليدا للتقليد ، وصورة ممسوخة لأدب ممسوخ ، ونفسا ينبعث من صدر شيخ فان ، أو حركة معادة كحركة الماء على سطح البحيرة الراكدة . وقد نهب العثمانيون عند فتحهم مصر خزائن كتبها القيمة ، ونقلوا كثيرا من الأدباء والعلماء والمهندسين والوراقين وارباب الصناعات الى بلادهم . وكان الجو السياسي والاجتماعي في عهدهم خانقا ، وعيشة الشعب ضنكا ، مما لم يترك فضل طاقة لفكر أو غيره . واذ لم يكن في الدولة العثمانية بأسرها حتى وقت مجيء الحملة الفرنسية سوى مطبعتين ، ليس في مصر واحدة منهما ، واذ كان انتشار القراءة والكتابة محدودا لا يحسنهما غير بعض المشايخ والأقباط ، لم يكن بوسع الأدباء أن يعتمدوا في الكسب على غير من بيده مقاليد الأمور من الحكام . غير أن مقاليد الأمور كانت قد اضحت في ايدي اتراك حولوا الدواوين الى اللغة التركية ، لا يحسنون

العربية ، ولا يفرقون بين البليغ والأنوك ، ولا يتذوقون أدبا ، بل ولا يثيبون شاعرا مادحا الا عن تقليد · فليس عجيبا اذن أن تتقاصر الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة(٦٥) ·

صار الأدب فى عصرهم فاتر الحرارة مهلهل النسج · قد ظن أهله أن قيمته فى كثرة حليته ، فأقبلوا يتفننون فى زيادة هـذه الحلية حتى ثقلت عليه وأعجزته عن الحركة وأفقدته روحه · فأما الشعر فكان تقليدا ، يقرأ « الشاعر » من المتأخرين ما تصل اليه يده من دواوين السابقين ، ويستل معانيهم ، ويصوغها صياغة من عنده هى فى الأغلب أقل قيمة من صياغة من سبقه وان زاد فى حليتها · وهو يقلد وان لم يذق ، يكون رجـــل دين فيتغزل فى الخمر ، وعفيفا فيتغزل فى الغلمان ، وفى وسط المدينـة فيبكى الأطلال · واذ فقد المعانى والعواطف عمد الى الزينة يفرط فيهـا لتكون عوضا عما فقده · وتسابق الشعراء فى استكشاف أنواع البديع وتسميتها حتى أوصلوها الى أكثر من مائة وأربعين نوعا · كما أكثروا من المقطعات فى وصف الأشياء المـألوفة ، كوصف سجادة أو مسبحة ، وفى الحوادث التى تعرض كوصف سقوط مئذنة وقتل زنديق ، ومن الأبيات فى الألغاز وغير ذلك من الموضوعات التى لا يمكن أن تتمتع بروح شـــاعرية عاليـة · وزاد اتجاه الشعراء الى المدائح النبوية بسبب ما غلب على الناس من الالتجاء الى الدين لفساد الدنيا ، وبسبب شيوع التصوف وما حرموه من عطاء الأمراء على مدائحهم ، فأصبح كل شاعر يرى واجبا عليه أن يقول فى هذا الباب ·

وأما الشطر الأكبر من النثر الفنى فكان عبارة عما يسمى بالاخوانيات، وهى فى العادة مكاتبات بين أصدقاء من الكتاب فى عتاب أو اعتذار أو تعزية

الأدب فى العالم » لاحمد امين وزكى نجيب محمود · لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ ·

(٦٥) راجع فى هذا الموضوع الفصل الرابع عشر من الجزء الثانى من كتاب « قصة

أو تهنئة أو شكر على هدية ، يلتزمون فيها السجع ويغرقون فى البديع ، ويراعون الشكل اللفظى أكثر من المعنى والموضوع ، بل وقد يديرون المعنى ليتفق مع البديع والسجع • فان تجاوزنا الاخوانيـــات نجد الفلسفة قـد أهملت تماما باعتبارها نمطا من الزندقة ، ونجد حركة التاليف حركة دينية بحتة ، يؤلف العلماء فى التفسير والحديث والفقـــه للباعث الدينى ، وفى اللغة والنحو والصرف باعتبارها من وسائل فهم القرآن والحـديث • وكان كثير من العلماء البارزين شيوخا فى الأزهر وغيره من المساجد والمدارس يتعيشون على أوقافها ، ويقرأون من كتب مكتباتهـا يستعينون بهـــا على التاليف •

وكان فى ذلك العصر نوع من الشعر الشعبى ، هو الموشحات والأزجال والدوبيت والمواويل ، تحرر من التقيـــد باللفظ الفصيح والنحو السليم والقوافى والأوزان • وكان هذا النوع أكثر قبولا عند العـامة ، بل وبعض الخاصة ، وانبض بالحياة • وترى لهذا الشعر العامى أمثلة كثيرة فى القصص الشعبية من أمثال سـيرة عنتر ، وقصة أبى زيد الهـلالى ، وقصة الأمـيرة ذات الهمة والظاهر بيبرس والزير سالم والزناتى خليفـــة ، ثم ألف ليلة وليلة ، وهو كتاب لم يعره أدباء العربية التفاتا الا بعد أن ذاع فى أوروبا وقدر هناك تقديرا كبيرا • وكانت هذه القصص تسلى جهود الشعب وتغذى خياله وعواطفه ، يقرؤها من يعرف القراءة ، ويستمع اليهـــا النـــاس فى المقاهى والدور من قارئين يحترفون قراءتها • وهى — وان فضلت المقامات من ناحية فنها — لا تعد راقية أمام الذوق الفنى المهذب • ونلاحظ فى ذلك العصر بوجه عام انفصالا شديدا بين أدب الخاصة وادب العامة ، فى الوقت الذى بدأت الهوة بينهما تضيق فى الأدب الغربى •

ومن ناحية اخرى نجد الناس فى مصر وقد رأوا من غيرالممكن الاستمتاع

بالحياة فى ظل ظلم الحكام واختناق الحريات السياسية والاجتماعية والفقر السائد ، قد غرقوا فى التفكير فى الآخرة الى حد التخريف ، وفشا التصوف سواء بين الخاصة والعامة ، وكانما صار أمامهم فى السماء بعد أن يئسوا من العدالة فى الأرض ٠ ولم يجرءوا أن يثوروا فى وجه الحكام ، بل قنعوا بالسلامة فى ظل الأمل ٠ وضعفت عقولهم عن التمييز بين الحق والباطل ، فملأوا التصوف بالأوهام ، بل وادخلوا فيه ما لم يفقدوه من حب اللهو ، فكان فيه الغناء والموسيقى والرقص وألعاب البهلوان ٠ وامتلأت البلاد بارباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدعى الولاية ، كما امتلأت كتب ائمة الصوفية ، كالشعرانى وغيره بالحكايات عن مشاهداتهم الروحانية ، واحاديثهم مع الملائكة والأنبياء ، بينما كان المشعوذون « يدورون فى الأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ٠٠ وتعتقدهم العامة »(٦٦) ، مما اثار ثائرة الفرنسيين عند قدومهم ، فأودعوا بعضهم فى المارستانات ، وتخلصوا من الباقين باخراجهم من البلد ٠

٥

قادة الرأى العام

من حكم العرب : « شر الأمراء أبعدهم من العلماء ، وشر العلماء أقربهم الى الأمراء » ٠ والواقع أنه لولا أن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » لم يقتصر على الحديث عن مشاهير مشايخ عصره وعلمائه من القريبين الى السلطة ، وخلف لنا صورا مشرقة لبعض العلماء المغمورين ممن فروا بعلمهم ودينهم من شراك المال والجاه والسلطان ، وفضلوا خمول الذكر على الاتجار بالحياء ، ولولا أن حياة هذا المؤرخ الفذ نفسه وخلقه ودينه هى أنصع

---

(٦٦) عجائب الآثار ، ٥ : ١٩٩ ٠

صورة للعالم الشريف الحر شهدها الفكر المصري الحديث ، لخرجنا من دراسة تاريخ ذلك العصر والعصر الذى تلاه ، بانطباع غير جميل البتة عن خلق أهل العلم ورجال الدين فى زمنه .

فان نحن اخترنا ، كأمثلة نستدل بها على ما نقول ، بخمسة من أبرز المشايخ الذين عاصروا الحملة الفرنسية (وأربعة منهم أعضاء فى الديوان) . نجد الشيخ خليل البكرى مشهورا بين الناس « بالرعونة وبارتكابه أمورا غير لائقة »(٦٧) ، مشغولا بهوى الغلمان(٦٨) . ويروى أحد مماليكه ـ وهو رستم رضا الذى أصبح فيما بعد مملوكا لبونابرت واصطحبه بونابرت معه الى أوروبا ـ أن الشيخ البكرى ألف كل ليلة أن يثمل بشرب خمر مزجت فيه زجاجة من البرجندى بأخرى من البراندى(٦٩) . فلما وصل الفرنسيون، وفر السيد عمر مكرم نقيب الأشراف الى الشام ، تداخل الشيخ معهم تداخلا قبيحا وخضع لهم ، فجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان ، « وافر الحرمة ، مسموع الكلمة ، مقبول الشفاعة عندهم » ، وقلدوه نقابة الأشراف التى كان يطمع اليها منذ زمن . فما تقلدها حتى استولى على وقفها وايرادها . وكانت له ابنة تدعى زينب ، كانت وقت دخول الفرنسيين فى نحو السادسة عشرة، « خرجت عن طورها فى أيام الفرنسيس »(٧٠) ، وقيل انها « كانت تذهب الى الفرنسيس بعلمه » ، كما قيل فى رواية ينقصها السند الكتابى انها أصبحت لفترة من الفترات عشيقة لبونابرت ، وأنها عرفت فى أيام مجدها بفتاة القائد المصرية(٧١) .

---

(٦٧) « عجائب الآثار » ٧ : ٥٠ ـ ٥٢ .

(٦٨) الجبرتى . « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » لجنة البيان العربى بالقاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٣٤ .

(٦٩) بونابرت فى مصر : ٢٥٥ .

(٧٠) « عجائب الآثار » ٧ : ٥٠ ـ ٥٢ .

(٧١) بونابرت فى مصر : ٢٨٢ .

أما الشيخ سليمان الفيومى(٧٢) ، فكان « فى أول عمره يمشى خلف حمار الشيخ الصعيدى » ، ثم « اختلط ببعض الأعيان ... وبهم توصل الى نساء الأمراء والسعي فى حوائجهن وقضاياهن وصار له قبول زائد عندهن ... وتجمل بالملابس وركب البغال واحدق به المحدقون ، وتزوج بامرأة .. سكن بدارها فماتت فورثها ، وبنى له دارا عظيمة بحارة عابدين واشتهر ذكره .. واقبلت عليه الهدايا من الأمراء والحريمات والأغوات والأقبـاط وغيرهم واعتنوا بشأنه ، وزوجته الست زليخا زوجـة ابراهيم بك الـكبير ببنت عبد الله الرومى ، وتصرف فى أوقاف أبيها ... وكان يدخل الى بيت الأمير ، ويعبر الى محل الحريم ، ويجلس معهن وينسرون بدخوله عندهم » . ولمـا « طرقت الفرنساوية البلاد واخرجوا منهـا الأمراء ، خرج النساء من بيوتهن وذهبن اليه أفواجا أفواجا حتى امتلأت داره وما حولهـا من الدور بالنساء ، فتصدى لهن وتداخل فى الفرنساوية ، ودافع عنهن ، واقمن بداره شهورا ... واحبه الفرنساوية أيضا وقبلوا شـفاعاته ويحضرون الى داره ويعمل لهم الولائم ... واستمر معهم فى وجاهته الى أن انقضت أيامهم » . ويقول الجبرتى انه كان قليل البضاعة فى العلم ، وأنه حين مات فى أوائل عصر محمد علي ، وخرجت جنازته ، « كان جمع النساء خلفه كجمع الرجال فى الكثرة » .

وأما شيخ الاسـلام والمسلمين عبد الله الشرقاوى(٧٣) ، شيخ الجامع الأزهر ورئيس الديوان فى عهد بونابرت ، فقـد بدأ حيـاته متصـوفا ، ثم « حصل له وله واختلال فى عقله ، ومكث بالمارستان أياما ثم شفى » . وكان كلما ارتفع شأنه يزيد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يضرب بعظمهـا .

---

(٧٢) راجع ترجمته فى « عجائب الآثار » ، ٧ : ٨٦ — ٨٩ ، ومنها اقتبسنا ما سبق .
(٧٣) راجع ترجمته فى « عجائب الآثار » ، ٧ : ١٨٩ — ١٩٦ .

المثل » . فلما حضر الفرنسيون واختير رئيسا للديوان « انتفهع فى أيامهم بما يتحصل اليه من المعلوم المرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات لبعض الأجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرجت من أربابها فى حادثة الفرنساوى وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها » . وكانت زوجته « هى التى تدبر أمره ، وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ، ولا يروح ولا يغدو الا عن أمرها ومشورتها ... وكانت قبل زواجه بها فى قلة من العيش ، فلمـا كثرت عليه الدنيـا ، اشترت الأملاك والعقار والحمامات والحوانيت » . ويضيف الجبرتى قوله ان الشرقاوى الف كتابا فى تراجم الفقهاء الشـافعية المتقدمين والمتأخرين ، نقل تراجم المتقدمين منهم من «طبقات الشـافعية » للسبكى والاسنوى ، « وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد » ! وعندما مات ، « وضعوا على تابوته عمامة كبيرة أكبر من التى كان يلبسها فى حياته بكثير » !

وأما الشيخ السـادات(٧٤) فكان قد قرأ القرآن وتولع بطلب العلم ، ومهد أحواله مع من يخشى صولته ومعارضته من الشيوخ وغيرهم ، فانتظم أمره واحسن سلوكه بشهامة وحشمة مع الأشياخ والأقران ، وتحبب الى أرباب المظاهر والأكابر ، « كل ذلك مع الجد والتحصيل للاسباب الدنيوية وما يتوصل به الى كثرة الايراد بحسن تداخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار .. فلما انقرضت بقايا الشـيوخ الذين كان يهابهم ويخضـع لهم ويتادب معهم (وكانوا على طرائق الأقدمين فى العفة والانجمـاع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بنى الدنيا الا بقدر الضرورة) ، وخلف من بعدهم من هم على خلاف ذلك وهم أعاظم مدرسى الوقت ، أحدقوا به وأكبروا

---

(٧٤) راجع ترجمته فى الجبرتى : ٧ : ٢٣٦ ـ ٢٥٧ .

من التردداد عليه وعلى موائده ، وبالغوا فى تعظيمه وتقبيل يده ، ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا فى صلاته وجوائزه القليلة وحصول الشهرة لهم وزوال الخمول ، والتعرف بمن يتردد الى داره من الأمراء والأكابر » ، وصار منهم من اذا دخل عليه « وحصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبى على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه » . فأصبح « لا يريهم فضلا بسعيهم اليه ، ويزداد كبرا وتيها ، وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم اذا دخل عليه » . واذا دخل عليه اقباط أو كبار المباشرين وقبلوا يده » وخاطبهم فى أشغاله وهم قيام وانصرفوا ، طلب الطست والابريق وغسل يده بالصابون لازالة أثر افواههم » . وجعل بداره مسجدا يصلى فيه الجمعة « لبعد المساجد الجامعة عن داره ، وتعاظمه عن السعى الكثير والاختلاط بالعامة » . ويقول الجبرتى انه « بعد ان كان منزلهم (أى عائلة السادات) محل سلوك ورشاد وولاية واعتقاد ، صار كبيت حاكم الشرطة .. وكان كل قليل يقع فى بيته الضرب والاهانة لأفراد من الناس » . وقد زاد من خراج الفلاحين فى الحصص التى امتلكها والتزم بها ، ويحبسهم عند التقصير فى الدفع شهورا ويضربهم بالسياط . وصار يتحاماه الناس من جميع الأجناس ، وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه فى شئ بل يوافقونه ولا يتكلمون معه الا بميزان » . وكان بعض خطباء المساجد التى يؤمها السادات لصلاة الجمعة يدرجون فى خطبهم الاطراء العظيم له « حتى انى سمعت قائلا يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب الا أن يقول : اركعوا واسجدوا وأعبدوا شيخ السادات » ..

« ولم يزل كلما طال عمره زاد كبره وقل بره وتعدى شره ، ولازم استعمال المنعشات والمركبات المفرحة» . ولما قدم الفرنسيون مصر راعوا جانبه وقبلوا شفاعاته ، وتردد عليه بونابرت وغيره من القادة فى منزله حيث كان يولم لهم الولائم . وكان هو يزورهم فى مساكنهم مع الجبرتى « للتفرج على صنائعهم ونقوشهم وتصاويرهم وغرائبهم » .

وأما الشيخ المهدى(٧٥) فكان قبطيا ثم أسلم وهو دون البلوغ على يد أحد المشايخ ، وفارق أهله وتبرأ منهم ، واقام فى منزل هذا الشيخ يقرأ القرآن مجتهدا فى تحصيل العلم ليلا ونهارا ، حتى مهر ونجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر . ثم تداخل فى الأكابر وزادت ثروته وسعيه فى أسباب تحصيل الدنيا ، وعانى الشركات والمتاجر فى الكتان والقطن والأرز وغير ذلك . ولما حضر الفرنسيون « لم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم ، بل اجتمع بهم وواصلهم وانضم اليهم وسايرهم ولاطفهم فى اغراضهم . وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله ، فكان هو المشار اليه فى دولتهم مدة اقامتهم بمصر ، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس فى قضاياهم وحوائجهم ، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية يتلافاه بمراهم كلماته .. ولما رتبوا الديوان كان هو المشار اليه فيه . وراج أمره فى أيامهم جدا ، وزاد ايراده وجمعه ، واحتوى بلادا وجهات وأرزاقا ، ويأتيه الفلاحون منها ومن غيرها بالهدايا والأغنام والسمن والعسل وما جرت به العادة ويتقدمون اليه بدعاويهم وشكاويهم ، ويفعل بهم ما كان يفعله ارباب الالتزامات من الحبس والضرب » . فلما خرج الفرنسيون وعاد العثمانيون ، كان المهدى أعظم المتصدرين فى مقابلتهم ، وأوجه الوجهاء فى مخاطبتهم .. ولازمهم فى عشياته وبكوره ، وبهرهم بتحيله واحتياله » . ولما مات الشيخ الفيومى عن زوجته المعروفة بالسحراوية ، وكانت طاعنة فى السن مشهورة بالغنى (كان الشيخ الفيومى تزوجها حماية لمالها ، واذ كانت طاعنة فى السن اشترت له جارية بيضاء وأعتقتها وزوجتها له) ، ثم ماتت السحراوية عن غير وريث ، وضع المهدى يده على دارها ومالها وجواريها ، وزوج الجارية لابنه عبد الهادى » ، وكأنها سقطت بمالها ونوالها فى بئر عميق » .

---

(٧٥) ترجمته فى الجبرتى ٧ : ٣٢٥ - ٣٣٣ .

يقول الجبرتى : « ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين وبعض اللاحقين ولم يشتغل بالانهماك فى الدنيا لكان نادرة عصره » .

ومع هذا فقد كان هؤلاء المشايخ الكبار قادة الرأى العام فى مصر دون منازع ، وكان لا بد لأية ساطة زمنية تريد تحقيق أغراضها ازاء الأمة أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار . فقد صار لهم فى عهد العثمانيين لدى جمهور الشعب منزلة تشبه ما كان لرجال الدين فى أوروبا فى العصور الوسطى . وما دامت البيئة التى هم فيها تسود فيها الجهالة والسذاجة والخرافات والخزعبلات ، فقد كان لهم - مهما قلت بضاعتهم من العلم - مكانة ذات شأن ، هى مكانة الأعور بين العميان . « فأما مصادر تلك القوة ، فأولها اعتقاد الناس فى صلاحهم وتقواهم ومعرفتهم ، ثم تظاهرهم وادعاءاتهم، واخيرا ما كانوا فيه من الثروة الطائلة بسبب أراضى الوقف التى كانوا يقامون نظارا عليها ، ويستغلونها كما لو كانت أملاكهم الخاصة»(٧٦) .

وقد أحاط نابليون علما ، قبل مجيئه الى مصر ، بمدى نفوذ هؤلاء المشايخ ، ولا بد أنه سرعان ما أدرك فى القاهرة حقيقة خلقهم . كتب الى كليبر يقول : « اننا اذا كسبنا تأييد شيوخ القاهرة كسبنا الرأى العام فى مصر كلها . وليس بين زعماء الأمة كلهم من هو أقل خطرا علينا من الشيوخ ، فهم جبناء ، عاجزون عن الكفاح ، يوحون - كجميع رجال الدين - بالتعصب ، دون أن يكونوا هم أنفسهم متعصبين »(٧٧) . لقد كان موقف كل من نابليون ومحمد على فيما بعد ، من العلماء المصريين ، يستهدف مصلحة خاصة . غير ان الأول لم يلجأ ، كما لجأ الثانى ، الى استغلال ضعفهم الخلقى

---

(٧٦) محمد رفعت : « تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة » ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٤ . الجزء الأول ص ١٩ .

(٧٧) بونابرت فى مصر : ١٩٧ .

الكامن فى ضرب بعضهم ببعض ، واتاحة الفرص فالمزيد من الفرص امامهم حتى يمعنوا فى التردى فى مهاوى الخلق ، ثم العمل على الاساءة الى سمعتهم لكسر شوكة نفوذهم . وربما كان ذلك لأنه كان أجهل من محمد على باحتمالات شخصية العالم فى الشرق ، او أنه كان لا بد مواجها صعوبة فائقة — وهو غير المسلم — فى بث الفرقة بينهم أو كسر شوكة هذا النفوذ على شعب مسلم ، او أنه — بجيشه الصغير فى بلد غريب — كان مضطرا الى الاعتماد فى حكمه على « الصفوة » من الأهالى ، أو انه — وهو ابن مبادىء الثورة الفرنسية قريبة العهد — كان مجرد أكرم خلقا من الألبانى المسلم .

٦

الفرنسيون والمشايخ

يتحدث نابليون فى مذكراته عن رعايته للأزهر فيقول :

« ان مدرسة الأزهر — التى تقابل السوربون عندنا — هى اشهر مدارس الشرق قاطبة ... وهى المركز الوحيد الذى يستطيع أن يضرب للناس المثل فيقتدى به الرأى العام ... كان الشيوخ جديرين بالاحترام ، لفضلهم وعلمهم وثرائهم بل ومولدهم ... وفى القصر كانوا يستقبلون بالاجلال ، ويقدم لهم الشربات والقهوة . ثم أقبل فاجلس وسطهم على الأريكة وأحاول كسب ثقتهم بالمناقشة فى القرآن ، وبطلبى تفسير الآيات الهامة ، وابداء اعجابى العظيم بالرسول . حتى اذا غادروا القصر ، وانصرفوا الى المساجد التى يجتمع فيها الناس ، حدثوهم بآمالهم ، وهدأوا من روع هذه الأمة الكبيرة وعدائها للفرنسيين . فكانوا يؤدون للجيش خدمات ايجابية جدا »(٧٨) .

---

(٧٨) المرجع السابق ٢٥٢ .

وقد نظم غداة دخوله القاهرة من كبار المشايخ ديوانا « لتدبير الأمور ، وصلاح الجمهور » ، وأنشأ فى الأقاليم دواوين على غراره ٠ واذ طلب من أعضاء ديوان القاهرة أن يختاروا من بينهم رئيسا عليهم « قال بعض الحاضرين : الشيخ الشرقاوى ! فقال (الترجمان) : نو ! نو ! ، وانما ذلك يكون بالقرعة ٠ عملوا قرعة بأوراق ، فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى !

« والزموهم بالحضور فى كل يوم »(٧٩) ٠

كما أمر بونابرت جنوده بأداء التحيةالعسكرية للمشايخ متى مروا بهم٠ ويوجه كليبر فيما بعد حديثا الى مشايخ الديوان فيقول فيه : « اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه ، نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس ، والناس بهم يقتدون ، ولأمرهم يمتثلون ٠ ثم انكم اظهرتم لنا المحبة والمودة ، وصدقنا ظاهر حالكم ، فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم ٠٠٠ وغمرناكم بالاحسان ٠٠٠ وجعلناكم مسموعى القول ، مقبولى الشفاعة »(٨٠) ٠

ويطلب بونابرت من المشايخ يوما ان يأتوه ، « فلما استقروا عنده نهض من المجلس ، ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة الوان ٠٠ أبيض واحمر وكحلى ، فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوى ، فرمى به الى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه ٠ فقال الترجمان : يا مشايخ ، أنتم صرتم احبابا لصارى عسكر ، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس ، وصار لكم منزلة فى قلوبهم ٠ فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند

---

(٧٩) « عجائب الآثار » ، ٤ : ٣٢٦ ٠

(٨٠) المرجع السابق ، ٥ : ١٣٢ ٠ وقد وصفت بونابرت فى مراسلاته مداولات العلماء فى الديوان بالبطء « بسبب هدوء الشخصية الشرقية وتحفظها ، وطرافة الأمر ، واختلاف العادات بين الأقاليم » ٠ غير انه وجدهم يتسمون بوجه عام بالروح المحافظة الذكية ٠ (راجع شفيق غربال : ٧٣) ٠

اخواننا من المسلمين ، فاغتاظ (بونابرت) لذلك ، وتكلم بلسانه ، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى انه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك • فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك • فقال : ان لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم • وهى العلامة التى يقال لها الوردة • فقالوا : امهلونا حتى نتروى فى ذلك • واتفقوا على اثنى عشر يوما • ونودى فى ذلك اليوم على الناس بوضع علامة الوردة ، » وهى اشارة الطاعة والمحبة • فانف أغلب الناس من وضعها ، وبعضهم رأى ان ذلك لا يخل بالدين ••• وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر ، فوضعها • ثم فى عصر ذلك اليوم نادوا بابطالها من العامة ، والزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة بوضعها • فكانوا يضعونها اذا حضروا عندهم ، ويرفعوها اذا انفصلوا عنهم »(٨١) •

وكان الفرنسيون بقدر محاولتهم الاعتماد على الشيوخ فى جس الرأى العام لهم ، ونقل شكاوى الأهالى اليهم ، واضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية واقرارها ، يحاولون فى الوقت ذاته الأخذ بأيديهم ، وربطهم بنظمهم ، واشراكهم فى سعيهم للقضاء على جمود الشعب ، وتباطئه فى الخروج من العصور الوسطى الى عصر جديد ، واستسلامه لقضاء لم يكتب عليه • وهم مع ادراكهم أن هم الديوان كان ارضاءهم دون احداث أى تغيير حقيقى فى النظم الاجتماعية ، لم يدخروا وسعا لتذكير هؤلاء المشايخ بالمهمة المطلوبة منهم • وها هو رئيس المجمع العلمى مونج ، فى الاحتفال بالسنة الفرنسية الجديدة الذى حضره الشيوخ ، يطلب من الحاضرين أن يشربوا « نخب النهوض بالفكر الانسانى وتقدم العقل »(٨٢) • ويكتب اليهم مينو

---

(٨٢) « بونابرت فى مصر » : ٢١٢ •

ردا على تهنئتهم بمولد ابن له من زوجته المسلمة الرشيدية زبيدة ، فيقول :
« باسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله ، محمد رسول الله . من عبد الله جاك مينو ... الى حضرة المشايخ والعلماء أهالى الديوان ... أدام الله تعالى فضائلهم ، وزينهم بلميع النور ، لاكمال وظائفهم ، وانجاز فرائضهم ، آمين يا معين . والآن نخبركم أن الذى حررتموه لنا ملأ نفسنا سرورا .. فثبت عندنا وتحقق وفور ما عندكم من المحبة ... فحقا انكم لمستحقون لأن تكونوا فى مثل هذا المحل الذى اخترتم عليه .. نحن نعلم ان القرآن العظيم الشأن ... يشتمل على مبادىء الحكمة السنية ، والحقوق اليقينية . وهذه المبادىء المذكورة لا يصح بناؤها المتين على الحكم والحق اليقين ، الا اذا عرضت على أحسن الآداب ، وتعليم العلوم بغير ارتياب ، وبهذين تنتج أعظم الفوائد ، وذلك بمساعى أناس متحدين معا ... فيا أيها المشايخ المكرمون ، والعلماء المحققون ، ومن هم بالعلم موصوفون . لا يخفى عليكم أن أجمل ما فى .. هذه الدنيا .. هو الميل الى النظام .. وقد تقدم جناب حضرة بونابرته الشهير النبيل ... فأمر بأن يحرر دفتر تكتب فيه أسماء كامل الميتين . والآن حضرتكم طلبتم منى دفترا آخر خلافه يتحرر فيه أسماء المولودين أيضا . ومن حيث ذلك فلا بد أن أعتنى منذ الآن مع جزيل الاهتمام بهذين الأمرين . وهكذا أيضا بتحرير دفتر الزواج ... وضبط الأملاك ... فعلى هذا الحال يتيسر للحاكم الشرعى الحكم بالعدل والانصاف ، وينقطع الخلف والخصام بين الورثة .. ثم ان أراد الله .. ندبر أشياء تستفيد بها هذه المملكة التى قد تسلمنا سياستها ... فيا لحضرة المشايخ الكرام ، اننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا تهنئة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك منو . فنطلب من الله سبحانه وتعالى ، واسألوه كذلك بجاه رسوله سيد المرسلين .. أن يكون للعدل محبا ... وألا يصرف اعتناءه الا فى خير الأدب ، لا فى قنية الفضة

والذهب »(٨٣) ٠

وكان الفرنسيون يسمحون للمشايخ بحضور الاجتماعات غير الرسمية التى كان المجمع العامى يعقدها كل مساء فى حديقة المجمع ، فيتبادلون الاحاديث فيها عن اكتشافاتهم ومشروعاتهم وافكارهم ٠ ويروى انه بعد أن قرا سانيلير ، وهو احد أعضاء المجمع ، على الحاضرين بحثا عن أنواع الأسماك ، وقف احد الشيوخ المصريين وطلب الكلمة ثم قال : « ان هذا البحث لا غناء فيه ، لأن النبى قال فيه كلمته الفاصلة ، وهى أن الله خلق ثلاثين الف نوع ، عشرة آلاف منها تعيش فى اليابس والجو ، ويعيش عشرون الف منها فى الماء »(٨٤) ٠

ويصحبون المشايخ لزيارة المطبعتين اللتين جلبهما بونابرت معه الى مصر ، فكانتا أول ما دخل مصر من المطابع ٠ كتبت جريدة « كورييه دو ليجيبت » فى عددها الصادر فى ٣ فبراير ١٨٠١ تقول : « من الأشياء التى اثارت دهشة سكان مصر وعجبهم منذ وصولنا الى بلدهم ، وكان لها تأثير عظيم عليهم ، وتعتبر شيئا جديدا كل الجدة بالقياس اليهم ، صناعة الطباعة ٠ وقد زار المطبعة الأهلية عدة مرات فى العام الماضى كبار أعضاء الديوان ، ومن بينهم المشايخ المهدى والفيومى والصاوى وغيرهم ، وتطلعوا بشغف معجبين الى العمليات المختلفة التى جربت أمامهم ، سواء باللغة الفرنسية او باللغات الشرقية المختلفة » ٠

---

(٨٣) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٠٢ — ٢٠٣ ٠

(٨٤) « بونابرت فى مصر » : ٢٥١ ٠ والغالب فى راينا ان مثل هذه الأقوال التى نسبها الفرنسيون الى المشايخ هى من قبيل التندر والتظارف ، وان كان من المحتمل صدورها عن فريق معين منهم ٠ غير اننا لا نذكر ان الجبرتى نفسه ، بصدد الحديث عن الحملة ، اورد قولا له او لغيره شبيها بهذا ٠

وقد رسم لنا الجبرتى صورة شيقة للانطباع الذى أحدثه فى نفوس العلماء المصريين ، اتصالهم بالعلماء والفنانين الفرنسيين الذين أفردت حارة الناصرية لسكناهم ومعاملهم ومراسمهم • فيقول الجبرتى عن هذه الدور :

« وفيها جملة كبيرة من كتبهم ، وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ، ويحضرون للطلبة ومن يريد المراجعة ، فيراجعون فيها مرادهم •• ويتصفحون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر • واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة ، لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف ، بذلوا له مودتهم ومحبتهم ، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار • ولقد ذهبت اليهم مرارا وأطلعونى على ذلك • فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم ، وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة ، وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب ، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف ••• وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرامات وبرابى الصعيد ، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها ، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنباتات والأعشاب ، وعلوم الطب والتشريح والهندسات وجر الأثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم • ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ••• والبردة للبوصيرى ، وهم يحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم • ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن • ولهم تطلع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهاد كبير

فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار ٠ وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغـات وتصاريفها واشـتقاقاتها بحيث يسـهل عليهم نقل ما يريدون من اى لغة كانت الى لغتهم فى أقرب وقت ٠ وعند « توت » الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنع ، وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن ٠٠٠ كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة ، بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة ٠٠٠ وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها الى المرئى ٠٠٠ وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وارصادها ومعرفة مقاديرها واجرامها وارتفاعاتها ٠٠٠ وأنواع الساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن ، وغير ذلك » ٠

ويتحدث عن الرسامين ، « ومنهم ريجو المصور ، وهو يصور الآدميين تصويرا يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ ، مجسم يكاد ينطق ، حتى انه صور صورة المشـايخ ، كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الأعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر ٠ وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات ، وآخر يصور الأسماك والحيتان بانواعها واسمائها ٠ ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم ، فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم ، فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ٠٠٠

« ومن اغرب ما رأيته ان بعض المتقدمين اخذ زجاجة فيها بعض الميـاه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كاس ، ثم صب عليها شـيئا من زجاجة اخرى ، فصـعد دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكاس ، وصار حجرا اصفر اخذناه بايدينا ونظرناه ٠٠٠ وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض، ووضعه على السندال ، وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صـوت هائل انزعجنا منه ، فضـحكوا منا ٠ واخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة ضيقة الفم ،

فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح الداخل بالرصاص ، وادخل معها اخرى على غير هيئتها ، وانزلهما فى الماء ، واصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى احداهما ، واتى آخر بفتيلة مشتعلة وابرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الآخر الشعلة اليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس ، وفرقع بصوت هائل ايضا • وغير ذلك الأمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ••• ولهم فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا يسعها عقول إمثالنا »(٨٥) •

٧

بونابرت والاسلام

وصف بونابرت فى أيامه اللاحقة الفترة التى قضاها فى مصر بأنها « اجمل فترة فى حياتى لأنها كانت احفلها بالاحلام »(٨٦) • « فى مصر وجدت نفسى وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة • وكانت الاحلام تملأ راسى ••• ورايتنى اؤسس دينا ، وازحف على آسيا وعلى راسى عمامة وفى يدى القرآن الجديد الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى • وكنت سأجمع فى مشروعاتى بين خبرات العالمين ، واسخر لمنفعتى مسرح التاريخ كله » • وهو فى أول حديث له مع حاكم سانت هيلانه ، منفاه الأخير ، يقول فى تأكيد : « ان مصر

---

(٨٥) « عجائب الآثار » ، ٤ : ٣٤٨ ـ ٣٥١ •• اما نيبور فيتحدث عن كيف انه اثناء قيامه بعملية قياس للارض قرب قرية فى الدلتا ، اثار اهتمام احد الفلاحين بعمله ومعداته ، فجعل الفلاح ينظر فى عدسة جهاز القياس • وقد انزعج الفلاح انزعاجا شديدا اذ يرى قريته فى العدسة مقلوبة راسا على عقب • وعندما اخبره خادم نيبور ممازحا ان الحكومة غاضبة على تلك القرية وانها ارسلت نيبور لتدميرها ، توسل الفلاح اليه على الفور ان ينتظر بضع لحظات ريثما ينقذ زوجته وبقرته ، ثم عدا بسرعة تجاه بيته ! (١ : ٣٩) •

(٨٦) « بونابرت فى مصر » : ٩ ـ ١٠ •

أهم بلد فى العالم »(٨٧) . ويتابع الحديث عنها فيقول : « ما الذى يمكن عمله فى هذا البلد الجميل خلال خمسين عاما من الرخاء والحكم الصالح ؟ ان الخيال ليرتفع فى هذا المنظر الساحر » ... « بعد خمسين سنة تكون الحضارة قد وصل نورها الى قلب افريقيا عن طريق سنار والحبشة ودارفور وفزان ، وتكون عدة شعوب عظيمة قد مكنت من المشاركة فى بركات الفنون والعلوم وفى دين الاله الحق ، لأنه من يد مصر يجب أن تتلقى شعوب أواسط افريقيا النور والسعادة »(٨٨) .

وكان أهم هدف لبونابرت فى مصر ان يكسب ثقة الشعب ، وثقة قادة الرأى العام فيها من العلماء والمشايخ . والواقع انه ما من مستعمر أوروبى فاقه فى محاولة كسب الأهالى لصفه(٨٩) . واذ كان يدرك فى وضوح ان اختلاف الدين هو العقبة الكبرى فى سبيل كسب الثقة ، فقد ظل يعلن ويكرر منذ منشوره الأول الى أهل مصر انه وجيشه يحترمان الاسلام والمسلمين . والظاهر أن بونابرت الملحد كان فى حقيقة الأمر مخلصا فى

---

(٨٧) Rose : Life of Napoleon, Vol. I, p. 356 ، وقد صدر كرومر كتابه « مصر الحديثة » بهذه العبارة .

(٨٨) « بونابرت فى مصر » : ٢٦ — ٢٧ .

(٨٩) يقول كلوت بك (٢ : ٢٥٣) فى حديثه عن الفرنسيين فى مصر فى عهد محمد على ان المصريين كانوا يؤثرونهم بمحبتهم لما جبلوا عليه من الأدب والذكاء الحاد وحضور الذهن والبشاشة والكياسة ، بالاضافة الى ما تركوه فى مصر من ذكرى اقامتهم بها . كما يقول (١ : ٨٩) انه كثيرا ما سمع المصريين يذكرون بونابرت (أو ابو نبرت كما كانوا يسمونه) بعبارات الحماس والاعجاب . ومن حديث أحدهم اليه : « لم يكن أبو نبرت عدوا للمسلمين . اذ كان باستطاعته لو اراد ان يقلب جميع المساجد بسن الابرة . ولكنه لم يفعل ذلك .. وقد أكدوا لنا انه فى ساعة موته على صخرة البحر الكبير التى تمكن اثنا عشر ملكا من ملوك النصارى من ارساله اليها وتكبيله بالأغلال فيها بعد ان سقوه شرابا منوما ، رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقفت على حد السيف .. فلبستريح فى أمان وسلام » .

ويقول جوان فى « مصر فى القرن التاسع عشر » ص ١٤٩ انه « استغلق على فهم المصريين التوفيق بين قصر قامة بونابرت وجلال فتوحاته . فهم معتادون تقدير المقول بمقتضى ما يشهدونه من ضخامة الأبدان » .

ادعائه احترام الاسلام الذى رآه ينبــع من موقفه العملى البحت من الدين ، وانسب من المسيحية لحاجات النظام الاجتماعى ، حيث أنه لا يشجع الصراع بين العالم المـادى والعالم الروحى • وقد أبلغ الشيخ المسيرى عام ١٧٩٨ انه ينوى اقامة حـكومة موحدة تقوم على مبادىء القرآن التى هى وحدها المبادىء الحقة القادرة على اسعاد الناس »(٩٠) •

وقد كان حـكيما اذ أدرك « أنك كلمــا جعلت الدين أو حتى الخـرافة يصطرع مع الحرية ، فان النصر سيعقد دائما للدين على الحرية فى عقـل الشعب » ، وان « علينا أن نهدهد التعصب حتى ينـام قبل أن نسـتطيع اقتلاعه » • فأما الشعب المصرى « فان الأفكار الدينية كانت على الدوام مسيطرة عليه فى شتى العصور ••• وعندما جعل الاسكندر الأكبر كاهنة معبد آمون تستقبله بوصفه ابن جوبيتر ، كان على وعى تام بعقلية هؤلاء الناس ••• وقد حقق بعمله هذا من حيث تثبيت دعائم فتحه للبلاد أكثر مما كان يحققه لو أنه بنى عشرين حصنا وعزز جيشــه بمائة الف من المقاتلين المقدونيين »(٩١) • واذ كان الاســكندر قدوته معظم الوقت ، كان عليه أن يحل الأزهر محل معبد آمون رع •

فهو اذن لم يهدف الى القضاء على الاســلام ، على الأقل قبل أن « يهدهد التعصب » • وقد ارسل الى قائده جاك مينو ، الذى كان على الدوام أشـد القواد الفرنسيين فى مصر تحمســا لقضية الاستعمار والاندماج ، يهنئه على « تضــحيته » فى سبيل القضية الوطنية باشهاره اسلامه واختتانه وزواجه من ابنة صاحب حمام فى رشــيد • ولم يكن مينو مخلصــا فى اســلامه

---

(٩٠) المرجع السابق : ٢٠٠ •

(٩١) المرجع السابق : ٢٥١ •

بدليل ارتداده عنه الى المسيحية بعد عودته الى فرنسا(٩٢) . أما عن زواجه فالظاهر أنه لم يكن « تضحية » رغم أنه هو نفسه قد وصفه بأنه « اجراء يخدم الصالح العام » . فقد ظل يكن المودة لزبيدة ، وصحبها معه الى أوروبا ، وأفلح فى اقناعها بالتحول الى المسيحية(٩٣) . وعندما سئل فى مصر بعيد زواجه عما اذا كان ينوى أن « يتحف زوجه برفيقات لها جريا على عادة البلاد » ، أجاب : « ان زوجتى ... حسنة الصورة من جميع الوجوه . فلها عينان رائعتان ، ولون بشرتها هو اللون المصرى المألوف ، وشعرها طويل فاحم . وهى لطيفة الطبع . وقد وجدتها تتقبل كثيرا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت .. وأنا لم ألح عليها بعد فى الخروج سافرة على الرجال ، لهذا يأتى شيئا فشيئا ... ولن أنتفع بما أباحه النبى من الزواج بأربع نساء خلاف السرارى ، فان فى النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة ، وفى زوجة واحدة أكثر من الكفاية لى »(٩٤) .

---

(٩٢) رفاعة الطهطاوى « تخليص الابريز » . وزارة الثقافة المصرية ، ١٩٥٨ ، ص ١٠١ . وقد وصف الجبرتى أيضا اسلام منو بأنه ليس الا تظاهرا ولأسباب سياسية .

(٩٣) يقول رفاعة الطهطاوى فى « تخليص الابريز » ص ١٠٢ ان مينو عند عودته الى فرنسا « رجع الى النصرانية وأبدل العمامة بالبرنيطة . ومكث مع زوجته وهى على دينها مدة أيام . فلما ولدت وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لتنصره ، أبت الزوجة ذلك ، وقالت : لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل . فقال لها الزوج : ان كل الأديان سوى ، وان مآلها واحد ، وهو عمل طيب . فلم ترض بذلك أبدا . فقال لها : ان القرآن ناطق بذلك . وأنت مسلمة فيلزمك أن تصدقى بكتاب نبيك . ثم أرسل باحضار أعلم الافرنج باللغة العربية ، البارون دوساسى . فانه هو الذى يعرف يقرأ القرآن . وقال لها : سليه عن ذلك . فسألته . فأجابها (دوساسى) بقوله : انه يوجد فى القرآن قوله تعالى « ان الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فحجها بذلك . فأذنت بمعمودية ولدها . ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل انها تنصرت . وماتت كافرة :

« كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام »

(٩٤) « بونابرت فى مصر » : ٥٠٥ .

أما بونابرت نفسه فلم يستطع أن يتخذ الخطوة الحاسمة فيعتنق وعموم جيشه الاسلام ، مع علمه بأن تسمية الفرنسيين بالكفرة قد ساهمت فى اثارة القلاقل ، ورغم أن الحاده والحاد معظم أفراد الجيش كان من شأنهما أن يهونا من أمر الاقدام على هذه الخطوة(٩٥) . غير أنه لم يأل جهدا فى سبيل اقناع المشايخ والشعب بأنه مسلم بقلبه معلنا أنه ليس مسيحيا وأن جنوده ليسوا مسيحيين ، مستدلا على ذلك بأن الفرنسيين سجنوا البابا وأغلقوا الكنائس فى بلادهم . وهو يحاول أن يقنع المشايخ بأن الرسول خصه برعايته ، والا فكيف أتيحت له هزيمة المماليك الشجعان ؟ « ان هذه الثورة العظمى قد تنبأ بها القرآن فى عدة آيات »(٩٦) . ولا بد أنه هو الذى أوحى الى علماء الأزهر بعد عودته من حملته الفاشلة على الشام ، بأن يصدروا بيانا يذكرون فيه أن بونابرت « يحب المسلمين ويعز الرسول ، ويهذب نفسه بقراءة القرآن كل يوم ، ويريد بناء مسجد لا نظير له فى بهائه وفخامته، ويود اعتناق الاسلام »(٩٧) . وهو يمعن فى حيله البهلوانية التى أخفقت فى التأثير فى مشايخ الديوان ، فيرتدى العمامة والملابس التركية يستقبلهم بها . يقول بوريين : « كان يبدو مضحكا فى عمامته وقفطانه ، وقد غلب عليه الارتباك والخجل فى هذا الرداء الذى لم يألفه ، فبارح الحجرة ليخلعه ، ولم تحدثه نفسه بعدها بالعودة الى هذه المسخرة »(٩٨) .

---

(٩٥) فى « عجائب الآثار » ٦ : ٣٥٩ ، يقول الجبرتى أنه لما قدمت حملة فريزر عام ١٨٠٧ لنصرة المماليك على محمد على ، حاول رجال محمد على أن يقنعوا المماليك بعدم الانضمام الى الانجليز ، وعدم تصديق انهم اتوا لمساعدتهم ، فهم « اذا تملكوا البلاد لا يبقون على احد من المسلمين .. وحالهم ليس كحال الفرنساوية ، فان الفرنساوية لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية . واما هؤلاء الانكليز فانهم نصارى على دينهم ، ولا تخفى عداوة الأديان ، ولا يصح ولا ينبغى منكم الانتصار بالكفار على المسلمين » .

(٩٦) بونابرت فى مصر : ٢٥٢ .

(٩٧) المرجع السابق : ٢٥٥ .

(٩٨) المرجع السابق : ٢١٠ .

غير أنه لا هو اسلم ولا افلح فى اقناع المشايخ الدهاة باخلاصه ، رغم أنه كان يقول ان الشيخ السادات والشيخ البكرى اعتبراه مسلما فعلا • والواقع أن كلا من الطرفين تظاهر بأن صاحبه استغفله • كان المشايخ يدارونه وينخدعون له • ان شكا اليهم من المواعظ العدائية التى يلقيها الأئمة فى المساجد فى صلاة الجمعة ، تظاهروا بتوجيه الانذار الى هؤلاء الأئمة . ولاموهم لوما واضح الفتور ، ضعيف الأثر • وان هو طلب الى الأزهر أن يصدر فتوى تأمر الناس بحلف يمين الطاعة له ، نصحه الشيخ الشرقاوى بأن يؤجل ذلك حتى يعتنق الاسلام وينضوى العرب حينئذ تحت لوائه • ويرد بونابرت بأن الختان عقبة دون اسلامه هو وجيشه ، فيفتون بأن الختان نافلة ، وانه ليس ضرورة لمن يعتنق الاسلام • ويشير هو الى صعوبة امتناع الفرنسيين عن شرب الخمر ، فيفتون بأن بوسع الفرنسيين أن يشربوها ويدخلوا الجنة ، متى كفروا عن هذا الاثم بالتصدق بخمس دخلهم بدلا من العشر المألوف(٩٩) •

فلئن كانت الحرية والديموقراطية هما ثمرتا كفاح قرون من جانب بعض الشعوب الأوروبية ضد الاستبداد ، فان خضوع المصريين للاستبداد على مر آلاف السنين كان ثمرته قدرة مذهلة على مراوغة الحكام •

---

(٩٩) المرجع السابق : ٢٥٥ •

٨

اصلاحات الفرنسيين فى مصر

كثيرا ما تكون « الاصلاحات » التى يقوم بها الحاكم فى قطر من الأقطار ، مرتبطة بهدف أساسى له ، فلا يقصد من وراء سياسته بكافة جوانبها غير خدمة هذا الهدف ، نبيلا كان أو غير نبيل ٠ وكثيرا ما يتناسى المؤرخون بعد زمن الحاكم هذا الهدف فى حديثهم عن الاصلاحات ، اما عن اعجاب بصاحبها أو عن اضطرار الى التظاهر بالاعجاب ، أو لأن الاصلاحات نجم عنها فوائد ضخمة لم تكن مقصودة فى ذاتها ٠

فان نظرنا الى الاحتلال الفرنسى لمصر ، وجدنا الفرنسيين يقاومون الأوبئة وينشئون المستشفيات خشية انتقال المرض اليهم ٠ ويعملون على استقرار ملكية الزارع فى الأرض حرصا منهم على النهوض بالانتاج الزراعى الذى يمول الخزانة العامة والضرائب ، ويصلحون من نظام الضرائب والجباية وضبط الأموال العامة لزيادة قدر ما يحصلونه من المال ٠ وينيرون الطرق ليلا ويحفظون الأمن لضمان سلامة أرواح جنودهم ٠ ويوسعون الطرق ليحولوا دون اقامة المتاريس وينشئون الديوان من المشايخ ليتعرفوا منهم على اتجاهات الشعب وليكونوا الوسيط بين الحاكم والمحكوم ، ويقوموا بتفهيم الرعية خطط الفرنسيين ويزينوها لهم٠ ويتمسكون بالمركزية الشديدة حتى تبقى أعينهم رقيبة على كل ما يدور ٠ ويصلحون من نظم التجارة والمعاملات اصلاحا يضمن فتح الأبواب أمام رءوس الأموال الفرنسية ٠ ويعنون باعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الادارة الى صغار الموظفين ، وحاجة الجيش الى الجند ، وذلك لقلة عدد الفرنسيين فى البلاد ٠ ثم هم بعد ذلك كله ومع حرصهم على اقامة الانتاج المادى على قواعد غربية صرفة ، لا يشجعون الانقلاب الاجتماعى الا بالقدر الذى لا يؤدى فى النهاية الى الرغبة

فى التخلص من حكمهم · ولا يتعرضون للدين ولا التقاليد الشرقية حرصا على تهدئة مخاوف العامة · فهى اذن اصلاحات لهدف ، وتنمية مخططة ، ولكن القصد هو ابطالها متى بلغوا الهدف او تعارضت معه ، مع انصراف يكاد يكون تاما عن اصلاحات حقيقية اخرى مطلوبة ولكنها لا تخدم اغراضهم فى شىء(١٠٠) ·

كان بونابرت يعد نفسه لمقام طويل بمصر والشرق · واذ كان هدفه تحويل مصر الى مستعمرة لفرنسا تجنى من ورائها كسبا ، وأن يحقق الاندماج بين الغرب العلمانى والشرق الاسلامى ، فقد بذل جهدا صادقا لارساء حكمه على مبادىء عقلية رفيعة ، هى احترام عادات الأهالى وعقائدهم ، وتنمية موارد البلاد الطبيعية ، وتوزيع اعباء الضرائب بالعدل ، وتطبيق القانون بشدة ولكن فى نزاهة ومساواة ، ورد الحكم الذاتى شيئا فشيئا لشعب ألف العبودية منذ عهد الفراعنة(١٠١) ·

وقد كان يدرك ان غزوه لمصر سيوافق هوى فى نفوس «اصدقاء الحرية» الفرنسيين المنادين بكسر القيود التى ترسف فيها أمم الشرق ، واعادة مصر الى ركب الحضارة وهى التى راى فيها العالم والفن النور لأول مرة بأن يزيحوا عنها ما تراكم من رمال الصحراء ، وينهوا ليلها الطويل · وكان من بين التوجيهات التى اصدرتها حكومة الادارة لبونابرت قبل سفره الى مصر ان يعمل على تحسين حال المصريين بكل الوسائل الممكنة(١٠٢) · وقصد الفرنسيون ان يظهروا للمصريين بمظهر المحررين لا الغزاة ، وأن يقنعوهم

---

(١٠٠) راجع شفيق غربال « محمد على الكبير » ، سلسلة اعلام الاسلام ، طبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٤٤ ، ص ١٨ — ٢٠ ·

(١٠١) بونابرت فى مصر ، ٢٤٤ ·

(١٠٢) شفيق غربال « المسألة المصرية » ٣١ ، ٣٤ ·

بان هدفهم هو القضاء على طغيان المماليك ، وأن يضمنوا للفلاحين المغلوبين على أمرهم تمتعهم بثمار كدهم ٠٠ قال مينو فى منشوره الى الشعب بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٨٠٠ بشأن ادخال تغييرات فى وسائل جمع الضرائب : « من اعطى الكبار والأقوياء حق اتعاس الشعب ؟ هل هو القرآن ؟ لا ٠ فالقرآن يأمر بمساعدة المساكين والعطف على الفقراء واعطاء الصدقة ٠ فان كنتم قد نسيتم دينكم فانى سأذكركم به باسم الجمهورية وبونابرت الشهير ٠ فانى هنا لتحرير الشعب من الاستبداد »(١٠٣) ٠

ولأول مرة فى تاريخها الحديث تسمع مصر صوت الحرية والمساواة والاخاء ، وذلك من الاعلان الأول لبونابرت الى اهل مصر الذى جاء فى مطلعه « من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية ٠٠٠ » وقد هاجم فى هذا المنشور عهد المماليك الذين « يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن ، الذى لا يوجد (مثله) فى كرة الأرض كلها ٠٠٠ قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ٠ فذلك كذب صريح ٠٠٠ اننى أكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ٠٠٠ ان جميع الناس متساوون عند الله ، وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ٠ وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ٠ فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شىء حسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة ؟ ٠ ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم ٠٠٠ ومن الآن فصاعدا لا ييأس احد من أهالى مصر من الدخول فى المناصب السامية ، واكتساب المراتب العالية ٠ فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الامة

---

(١٠٣) المرجع السابق : ص ١٢٤ ٠

كلها »(١٠٤) ٠

وفى منشــور آخر قرىء على المشــايخ والأعيان والتجار بعد اشــهر قليلة من وصول الحملة ، جاء « أن قطر مصر هو المركز الوحيد ، وأنه أخصب البلاد ٠٠٠ وأن العلوم والصــنائع والقراءة والــكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجـداد اهل مصر الأول ٠ ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ٠٠٠ الا أن دولة الترك شددت فى خرابه ، لأنها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها٠فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من ســوء ظلمهم ٠ ثم ان طائفة الفرنســاوية ٠٠٠ اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه ، واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة ٠٠٠ ان غرضهم تنظيم أمور مصر ٠٠ فالمناسب من أهلها ترك الشغب واخلاص المودة ٠ وان هذه الطوائف المتحضرة ٠٠ يترتب على حضورها أمور جليلة ، لأنهم أهل خبرة وعقل »(١٠٥) ٠

حاـول بونابرت بعنـاية كافة الجوانب الجغرافية والدينية والحضــارية والعادات والمشكلات والموارد والطبقات الاجتماعية المختلفة وكيفية التعامل معها ٠ وكان يرى بنظره الثاقب وراء حجاب الفقر والهوان قيمة حقيقية لهذا الشعب ٠ وقد كان المبـدأ الأول لحـكومته السماح للأهالى بقدر كبير من ادارة

---

(١٠٤) « عجائب الآثار » ٤ : ٢٨٨ — ٢٨٩ ٠ وقد وصف نابليون هذا المنشور فى سانت هيلانة بأنه قطعة من الدجل ، « ولكنه دجل من أعلى طراز » ٠ اما مدام دوســتال فكانت ترى أنه فى منشوراته الى المصريين كان يقصد اثارة اعجاب الشعب الفرنسى ، اذ هى الجمع بين خاصيتين حبيبتين دائما الى الفرنسيين ، وهما « نوع من العظمة الى جانب السخرية » (شفيق غربال : ٧٤) ٠٠ وبعد اصدار المنشور بيومين ، كتب الجنرال ديزيه من قرية على حافة الصــحراء الليبية يطلب مزيدا من نســخ المنشــور ، قائلا « انه يحدث تأثيرا كبيرا » ٠ (انظر « بونابرت فى مصر » ٩٨ — ٩٩) ٠

(١٠٥) « عجائب الآثار » : ٤ : ٣٢٥ ٠

شـــؤونهم ، خاصة ما يتصل منها بتطبيق العدالة · غير أنه رأى أن المصريين فى حاجة الى نظم ثابتة لضـــمان تحقيق « المنافع الكبيرة التى تنجم عن مجتمع منظم ، الا وهى حماية الفرد والملــكية » · مثل هذه النظم ستمكن الشعب من التعبير عن دفين أفكاره فيطلع الفرنسيون على حقيقة المطلوب لتحسين أحواله · وقد اختار الاعتماد على المشــايخ الذين هم القادة الطبيعيون للشعب لغناهم ، وحبهم للعدالة ، وتمســكهم النسبى بأهداب الأخلاق ، ولكراهيتهم للترك والمماليك معا · أما الأقبــاط فان احاطتهم بأسرار المــالية المصرية ، جعلت من المحتم على الادارة الجديدة الاستعانة بهم · وأما المستوطنون الأجانب فحثالة شعوب البحر المتوسط ومن الواجب اهمالهم(١٠٦) · وقد استشــار بونابرت المشــايخ بشان ادخال النظم الغربية الخاصة بالملــكية والضرائب ، فوافقوه على أن هذه النظم تتمشى مع تعاليم الاسلام · وكان الحل الذى اقترحه عليهم الغاء الوســيط بين الفلاح والحــكومة (الملتزم) ، غير أنه اقتنــع فيما بعد بان الوقت لم يحن لمثل هذا الاصلاح الجذرى(١٠٧) ·

وكتب بونابرت عقب وصوله الى القــاهرة قائمة بالأشياء التى أراد من حكومة الادارة بفرنسا أن تشحنها اليـــه بالبحر ، ومن بينهـــا « فرقة من الممثلين ، وفرقتين من راقصات الباليه ، وثلاثة أو أربعة على الأقل من ممثلى مسرح العرائس لعــامة الشعب ، ونحو مائة امرأة فرنســية ·· وعشرون جراحا ، وثلاثون صــيدليا ، وعشرة أطبــاء ، وعمال للمســابك ، وصــناع ومقطرون للخمور ، ونحو خمسين بستانيا ، وبذور لمختلف أنواع الخضر ·· وصابون وزيت »(١٠٨)· غير أن الأهم من ذلك كله ، ذلك الحشد من المدنيين البــارزين ، بل ذوى العبقــرية ، من المهندسين والعلماء والفنانين والأثريين

---

(١٠٦) شفيق غربال : ٧٢ ·
(١٠٧) المرجع السابق ١٢٣ — ١٢٤ ·
(١٠٨) بونابرت فى مصر ١٩٠ ·

والاقتصاديين والكيميائيين والموسيقيين والمترجمين والطابعين الفرنسيين الذين اصطحبهم معه الى مصر ، وكان على راسهم العالم الرياضى جاسبار مونج الذى وصف بأنه أعظم الشخصيات تعددا فى الكفايات فى تاريخ العلم ·

وكان هؤلاء المدنيون على وعى تام بالهدف الايجابى الذى يستطيعون تحقيقه فى مصر · فهنا فرص لا حد لها ، وكل شىء ينتظر ان يكشف عنه وان يصنع · وقد شاركوا قائدهم شعوره بأن العلم يترك آثارا أبقى من الحرب ، وبأن مصر تصلح معملا تجريبيا لتحقيق غايات ضخمة فى مجالات التشريع والتقدم الصناعى والعلمى والفنى ، وهى مجالات كان بونابرت يقول عنها ـ باخلاص أو بغير اخلاص ـ انه ما لم يترك وراءه أثرا فيها فلن يكون حظه فى سجل التاريخ أكثر من فقرة عابرة ·

وقد كون القائد من بعض هؤلاء مجمعا علميا كى تساعده معلوماته وأبحاثه ومشورته فى ادارة البلاد وارساء الأساس لتقدمها فى المستقبل ، والنهوض بالعلوم فى مصر ونشرها · وكان من المهام العملية التى كلفه بها سد الحاجات العاجلة فى البلاد ، مما يقتضى اقامة طواحين للهواء ، وتطهير الترع وصيانتها ، وطرق تنقية ماء النيل ، وشق قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، وأخرى بين النيل والاسكندرية ، وبناء قناطر على النيل ، وادخال محاصيل جديدة ، وتحسين وسائل الزراعة ، ومنع الأوبئة ، وصنع الأدوات التى تعذر جلبها من فرنسا بسبب الحصار البحرى الانجليزى ، واصلاح النظام المالى ، ووضع نظام تعليمى جديد ، وادخال تعديلات يقبلها الأهالى على القانون المدنى والقانون الجنائى · وكان هدف المجمع ارتياد كل جوانب هذا البلد الذى لا يعرف عنه الا القليل ، تاريخه وآثاره وفنونه وبيئته الجيولوجية وحيوانه ونباته · وكتب مونج يقول : « انه لو استوطن مصر عشرون ألف اسرة فرنسية ليشتغل أفرادها بالمشروعات التجارية والمؤسسات

الصناعية ... الخ ، لغدا هذا البلد أجمل مستعمراتنا وألمعها وأفضلها موقعا »(١٠٨) .

أنشأوا حديقة صغيرة للحيوان ، وأخرى للطيور ، وخصصت أرض للتجارب الزراعية، وأنشأوا معملا كيميائيا، ومتحفا صغيرا للتاريخ الطبيعى. ومكتبة ومرصدا ، وكونوا مجموعة من الآثار كانت نواة لمتحف القاهرة ، وبدأ بفضلهم علم الآثار المصرية . وابتكروا نوعا جديدا من الأفران لصنع قنابل المدافع العالية الحرارة ، وصنعوا آلة عائمة لاطفاء الحريق ، وقاموا بمسح طوبوغرافى للبلاد ، ووضعوا مشروعا لانشاء مدرسة لتعليم المصريين الفنون الجميلة ، وبحثوا فكرة انشاء كليات للزراعة ، ووضعوا الخطط لانشاء مستشفى مدنى يتسع لنحو ثلاثمائة سرير ، وانشاء صيدلية مركزية بالقاهرة ومدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، ومدرسة ابتدائية تعلم الأهالى الفرنسية ليتابعوا دراسات يلقيها المعلمون الأوروبيون فى مدارس أعلى . وقد ظل الكثير من هذه المشروعات حبرا على ورق بسبب قلة المال وقصر المدة التى أتيح لهم أن يبقوها . غير أن الكثير منها نفذ بعد سنوات من خروجهم .

وقد جلبت الحملة معها - كما سبق أن ذكرنا - مطبعتين بأحرف فرنسية ويونانية وعربية(١٠٩) . وعليهما طبعت جميع المنشورات التى وجهها الفرنسيون الى الشعب ، والتى كانوا يلصقون نسخا منها فى مفارق الطرق ورءوس العطف وعلى أبواب المساجد ، كما تولت طبع كتيبات بالعربية من بينها رسائل فى علاج الطاعون البقرى والجدرى ، و « محفوظات من لقمان الملقب بالحكيم » ، و « تطبيقات فى العربية الفصحى مختارة من القرآن

---

(١٠٨) المرجع السابق : ٢٣٢ .

(١٠٩) كان بونابرت قد استولى على المطبعة العربية من الفاتيكان .

لينتفع بها دارسو العربية » (وهو أول كتاب طبع فى مصر) ، كما طبعت فيما بعد « مجموعة المستندات الخاصة باجراءات محاكمة سليمان الحلبى قاتل القائد العام كليبر » • واصدرت الحملة صحيفتين باللغة الفرنسية ، هما « لوكوربيه دوليجيبت » السياسية ، و « لاديكاد اجيبسيين » للآداب والفنون والعلوم والاقتصاد • وعندما تولى مينو الحكم ، فكر فى اصدار صحيفة عربية « لتلقى النور على خدمات الفرنسيين لمصر ، وترد على دعاة السوء ؛ وتدل الناس على طريق الاصلاح الذى يراه المصريون خرافة ••• ولتحقيق الثقة وتمكين الألفة اللتين تتوطدان أكثر فاكثر بين هذه البلاد وبين الفرنسيين ••• دون أن تتضمن الصحيفة أى شىء يسىء الى تقاليد الشرق المدنية والدينية(١١٠) • غير ان هذه الصحيفة العربية لم يقدر لها الصدور • أما مطبعة الحملة فقد أخذها الفرنسيون معهم عند رحيلهم ، وان كان هناك من يقول انها بقيت فى القاهرة حتى اشتراها محمد على وحسنها واضاف اليها ، بحيث اصبحت فيما بعد مطبعة بولاق(١١١) •

والواضح أن الشيوخ والعلماء المصريين وعامة الشعب قد أعجبوا كل الاعجاب بانقطاع العلماء الفرنسيين للعلم • كتب نابليون يقول : « كان الوطنيون غاية فى البطء فى فهم كنه المجمع الذى ضم رجالا وقورين مجتهدين لا يحكمون ولا يديرون ولا يقومون بأى وظيفة دينية • وقد حسبوهم يصنعون الذهب • على أنهم فى النهاية كونوا فكرة صحيحة عنهم ، فلقى العلماء الاجلال لا من الشيوخ والأعيان فحسب ، بل من أقل الطبقات

---

(١١٠) ابراهيم عبده : « تاريخ الطباعة والصحافة فى مصر خلال الحملة الفرنسية » ، ص ٩١ •

(١١١) فيليب دى طرازى : « تاريخ الصحافة العربية » ، الجزء الأول ، ص ٤٩ ، طبعة ١٩١٣ •

(١١٢) « بونابرت فى مصر » : ٢٣٨ •

وأدناها . والواقع أن العلماء الفرنسيين اختلطوا كثيرا بالعمال ، فعلموهم مبادىء الميكانيكا والكيمياء وهم يشرفون على أشغالهم »(١١٢) . وقد شملت جهود الفرنسيين ميادين أوثق صلة بالعامة من المطابع والمتاحف . فالجبرتى يحدثنا عن تتبعهم للكلاب الشاردة وسمها ، « فارتاحوا هم والناس منها » وعن استحداثهم قرب الأزبكية لأبنية لهو يجتمع بها النساء والرجال « فى أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل اليها قدرا مخصوصا يدفعه أو يكون ماذونا وبيده ورقة » ، وعن دار أنشأوها بالأزبكية تسمى « فى لغتهم بالكمرى (Camera) وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون به على ملاعيب يلعبها جماعة منهم بقصد التسالى والملاهى مقدار أربع ساعات من الليل »(١١٣) ، وعن بنائهم لطواحين « تدور فى الهواء عجيبة ، وتطحن الأرادب من البر » ، وعن انشائهم لجسر عظيم ممتد ممهد مستو على خط مستقيم من الأزبكية الى بولاق ، وغرسهم بجانبه الأشجار ، « وفعلوا هذا الشغل الكبير فى أقرب زمن ، ولم يسخروا احدا فى العمل ، بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ، ويصرفونهم من بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ ، السهلة التناول ، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة ... ولا يقطعون الأحجار والأخشاب الا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة »(١١٤) .

« ونبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن . واذا دفنوا يبالغون فى تسفيل الحفر . ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة ... وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة العفونة ... ومن قولهم أيضا : ان مرض مريض لا بد من الاخبار عنه ، فيرسلون من

(١١٣) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٠٠ .
(١١٤) المرجع السابق ، ٤ : ٣٤٦ — ٣٤٧ .

جهتهم حكيما للكشف عليه ان كان مرضه الطاعون أو بغيره »(١١٥) ٠

« ونادوا (فى الأسواق) بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق وان يكون على كل دار قنديل ، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل ، وان يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات » ٠ « وشرعوا فى ترتيب ديوان سموه محكمة القضايا ٠٠٠ وجعلوا له قواعد وأركانا من البدع السيئة ٠٠٠ وشرطوا فى ضمنه شروطا بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التامل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ، ومحصلته التحيل على أخذ الأموال » !(١١٦) ٠

٩

« تبرج المصريات وخروجهن عن الحشمة والحياء »

ومع ذلك لقد كان من بين هذه « الاصلاحات » ذاتها ما أثار ثائرة الشعب ٠ فهم ان هدموا بالشوارع مصاطب الحوانيت التى اعتاد التجار الجلوس عليها ، بقصد توسيع الأزقة كى تتسع لمرور العربات الكبيرة ، « حصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك ، وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران فى الشقوق »(١١٧) ٠ وقد استاء البعض حين قبضوا على مدعى الولاية من المشعوذين ، واستاء الكثيرون حين حاولوا هدم مقابر الأزبكية الواقعة وسط المساكن ، فخرج الناس « الى ان صاروا كالجراد المنتشر ، ولهم صياح وضجيج ، واجتمعوا بالأزبكية ، ووقفوا تحت بيت صارى عسكر ، فنزل لهم المترجمون ، واعتذروا بأن صارى عسكر

---

(١١٥) المرجع السابق ، ٤ : ٣٢١ ـ ٣٢٢ ٠
(١١٦) المرجع السابق ، ٤ : ٣١٨ ـ ٣١٩ ٠
(١١٧) المرجع السابق ، ٥ : ٢٣٧ ٠

لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به »(١١٨) . كما تضايق الناس من تشديد الفرنسيين على ايقاد القناديل ليلا بالطرق والأسواق وخارج الدور ، « حتى فى الأزقة والعطف غير النافذة ، حتى كان الناس ليس لهم شغل الا القناديل ! »(١١٩) . وكان سخطهم بحيث اضطر الفرنسيون بعد ذلك الى تعطيل الأمر ، والمناداة بأن يوقدوا عوضا عنها فى وسط الأسواق « مجامع فى كل مجمع أربعة قناديل ... ويقوم بذلك الأغنياء دون الفقراء . ففرح بذلك فقراء الناس ، وانفرجت عنهم هذه الكربة »(١٢٠) .

بل انه حتى ديوان المشايخ الذى كان يمكن ان يكون خطوة فى سبيل تحقيق الحكم الذاتى فى البلاد ، والذى كان من مبدأ بونابرت أن ينفذ أكبر قدر ممكن من اقتراحاته ، لم يأخذه المصريون على نحو جدى ، بل وكرهوه .. لقد كانت النظم التى يعيشون فى ظلها قبل مجىء الحملة انما تتصل أساسا بجمع الضرائب أو تصيد الأنفار للحرب أو السخرة . فان كان المماليك يستخدمون فى هذا الصدد أقصى ضروب العنف ، فهو عنف يلجأون اليه فى أوقات معينة ووفقا لأوامر تصدر فى حينها لا وفق قوانين ثابتة . أما فى غير هذه الأوقات ، فكان المماليك يتركون الرعية لشأنها تحيى حياتها دون تدخل من السلطات . أما اقامة ادارة حكومية منظمة تختص أساسا بالضرائب - وهو ما حاوله بونابرت - فكان من شأنها أن تسد على الرعية منافذ التهرب من الضريبة . وهى منافذ طالما لجأ المصريون اليها فى الماضى . وقد عرف الفلاح المصرى منذ قديم الأزل بأنه لا يدفع الضريبة الا مضطرا وفى آخر لحظة حين تعوزه الحيل . فمنذ عشرين قرنا لاحظ ديودور الصقلى

---

(١١٨) المرجع السابق ، ٤ : ٣٢٢ .
(١١٩) المرجع السابق ، ٥ : ٨ .
(١٢٠) المرجع السابق ٥ : ١٢ - ١٣ .

أن المصريين يعتبرون أنفسهم مغفلين اذا دفعوا ما يجب عليهم دفعه دون أن يضربوا أولا ! ويضيف دينون قوله عن الفلاحين وقت الحملة انه ما من حيلة بارعة لم يلجأوا اليها ليؤجلوا الدفع ولو لساعات قليلة . وكان الفرنسيون يعززون جبهاة الضرائب بقوات عسكرية . غير أنهم كثيرا ما كانوا عند وصولهم الى القرية يجدون سكانها قد جلوا عنها(١٢١) .

غير انه يبدو أن من أهم ما أثار الشعب على الفرنسيين ما يتصل بشرب الخمر والأخلاق الجنسية . وقد وقعت من الفرنسيين — خاصة اثناء قتالهم للمماليك بالصعيد — حوادث اغتصاب للنساء المصريات ، فكان الأهالى يحتاطون لذلك بالالتجاء الى وسائل رهيبة كتلك التى يتحدث عنها دينون أثناء محاولة احتلال جزيرة فيلة عند أسوان : « وكنت ترى النساء الثابتات على فطرتهن الوحشية ، يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهن معهن ، ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين . ووجدت فتاة فى السابعة أو الثامنة خيطت بطريقة منعتها من قضاء الضرورة العاجلة ، وسببت لها تشنجات رهيبة . ولم استطع انقاذ حياة هذه المخلوقة الصغيرة التعسة الا بعد عملية مضادة وحمام . وكانت الفتاة غاية فى الجمال(١٢٢) .

غير أن نساء المدن من المصريات كن أقل عناية بصون أنفسهن والواقع أن دواعى العفة لم تكن لتقف حائلا ضخما بين المصريات ومسايرة هوى الفرنسيين . فقارىء المقريزى وابن اياس وغيرهما من المؤرخين المصريين أو كتب الرحالة العرب والافرنج ممن قدموا الى مصر ، يخرج بانطباع سىء عن الأخلاق الجنسية للمصريات بوجه عام . يقول كلوت بك : « ان مصر

(١٢١) بونابرت فى مصر : ٣١٩ ، وشفيق غربال ص ٧٣ .
(١٢٢) المرجع السابق ، ٣٤٧ .

خالفت ممالك الشرق فى أكثر من حال من أحوالها العامة ، لا سيما فى ارتخاء حبل الأخلاق »(١٢٣) . ويقول ان عفة المصرية لا ترتكز على قواعد وطيدة من الأخلاق ، « فاذا وقين انفسهن شر العار فما ذلك الا لخشيتهن بأس أزواجهن لا لاحترامهن انفسهن » ، وان هذا هو سبب تضييق الأزواج الخناق عليهن(١٢٤) . وقد يؤيد ذلك الملاحظة التى دونها نيبور(١٢٥) ولين(١٢٦) دون ان يذكرا لها سببا وهى أن المرأة الشرقية متى فاجأها رجل غريب عارية أسرعت بتغطية وجهها دون اى موضع آخر من مفاتنها . وسبب ذلك فى رأينا ان همها الأول هو الا يتحقق من هويتها عند الفضيحة .

ويضيف ادوارد لين قوله ان النساء المصريات معروفات بأنهن افسق النساء طرا . « ويقال ان الكثيرات منهن يسئن استخدام الحرية المتاحة لهن ، ومعظمهن لا يرى معهن أمان ما لم توصد الأبواب عليهن ... وان بعض القصص عن مكائد النساء فى « الف ليلة وليلة » تقدم صورا صادقة عن احداث ليست نادرة الوقوع فى العاصمة المصرية ... وقد يرجع طابع الدعارة لدى غالبية نساء مصر والسلوك الفاسق من عدد كبير منهن الى أسباب عديدة ، منها الجو ، ومنها افتقارهن الى التعليم السليم ، وقلة ما يتهيأ لهن من وسائل قضاء الوقت والأشغال . غير أن السبب الأكبر هو سلوك الأزواج انفسهم .. فعموم الأزواج فى مصر يحاولون أن يزيدوا من شهوة نسائهم بكل وسيلة ممكنة رغم أنهم فى نفس الوقت يحرصون جاهدين على الحيلولة دون اشباع هذه الشهوات بطريقة مشروعة » . ولا شك أن شهوانية الرجل قد انتقلت عدواها الى المرأة وأفسدتها . ويضيف لين

(١٢٣) كلوت بك ١ : ٦٢٧ .

(١٢٤) المرجع السابق ، ١ : ٦٢٦ .

(١٢٥) نيبور ١ : ١١٨ .

(١٢٦) E.W. Lane «Manners and Customs of the Modern Egyptians», Everyman's Libary, 1963, p. 183.

قوله ان النسـاء المصريات حتى الفضليات منهن بذيئات اللسان فى الحديث ، لدرجة ان الفاظهن قد يتورع المومسات الاوروبيات عن استخدامها(١٢٧) .

وعلى الرغم من حديث البعض ، مثل كلوت بك(١٢٨) عن رضا المصريات بحالهن . فقد كان وضعهن قبل مجىء الحملة ، وبعد خروجها ، وضعا محزنا مهينا . لان نسـاء الطبقتين العليا والوسطى يقمن فى حرم اشبه ما يكون بالاديرة . ليس لحجراتهن نوافذ تطل على الطريق . وكان الغالبية من الرجال يؤمنون بأنهن من جهة العقل والفهم أحط درجة من الرجل ، وبعض العلماء يشكون فى أن لهن روحا . وكثيرا ما كان احقر الخصيان ممن يقومون بحراسة المرأة يتولى تاديبها ومعاقبتها بالضرب بتصريح من الزوج . فلا عجب اذن ان كان يلاحظ سرعة ذبول زهرة شبابهن بحيث ترى المصرية فى الخامسة والعشرين قد عراها من علامات الذبول والهرم ما لا يعرو المرأة الأوروبية فى الخمسين . فان قارنا بين ما كانت تتعرض له المرأة المصرية من معاملة بين اهلها وتلك التى لمستها من الفرنسيين ، والتى سنحدثك عنها حالا ، سهل فهمنا لانبهارها بالقادمين . يقول نابليون ان مينو بعد زواجه من زبيدة « عاملها معاملة السيدات الفرنسيات ، يمد اليها يـده كلما هم بالدخول معها الى غرفة الطعـام ، ويتحرى لها اوفق المجالس ، ويقدم اليها خير الأطعمة وأشهاها . وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخـذه واعادته الى مكانه . فلما روت تلك المرأة هذه الأمور لصاحباتها فى أحد حمامات رشيد ، لاحت لهاته النسوة بارقة الأمل فى تغير أحوالهن وعاداتهن ، وحررن عرضـا قدمنه الى السلطان الكبير (بونابرت) ليحمل أزواجهن على معاملتهن بالمثل »(١٢٠) .

---

(١٢٧) المرجع السابق ، ٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

(١٢٨) كلوت بك : ١ : ٦٢٣ .

(١٢٩) المرجع السابق ، ١ ، ٦٢٤ ـ ٦٢٥ .

ويقول نقولا الترك فى عرضه لأسباب ثورة القاهرة ان نساء المصريين « خرجت خروجا شنيعا مع الفرنساوية ، وبقيت مدينة مصر مثل باريس فى شرب الخمر والمسكرات والأشياء التى لا ترضى رب السماوات » . ويقول : « كانوا (أى أهل البلد) يروا نساهم وبناتهم مكشوفين الوجوه ، مملوكين من الافرنج جهارا ، ماشيين معهم فى الطريق ، نايمين قايمين فى بيوتهم . فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر . وناهيك تلك الخمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع ايضا » . غير أنه يضيف قوله انه فى عهد الفرنسيين « كانت الناس الدون فى احسن حال ، من بياعين وشيالين وأرباب صنايع وحمير وسياس وقوادين ونساء خوارج . وبالنتيجة الأناس الأدنيا كانوا منشرحين ، وسببه كان اطلاق الحرية . وأما الشطر الثانى الأعلى والأوسط (فكان) شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج »(١٣٩) .

ويتحدث الجبرتى عن « تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء » فيقول : « انه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم(١٣١) ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ... ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة . فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن . وكان ذلك التداخل أولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه . فلما وقعت

---

(١٣٠) نقولا الترك : « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية .... » ص ٣١ .

(١٣١) بلغ عدد النساء الفرنسيات المرافقات للحملة نحو ثلاثمائة امرأة ..

الفتنة الأخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيس بولاق ، وفتكوا فى أهلها ، وغنموا اموالها ، واخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن ماسورات عندهم فزيوهن بزى نسـائهم ، واجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال ٠ فخلع اكثرهن نقاب الحيـاء بالكلية ، وتداخل مع أولئك الماسـورات غيرهن من النسـاء الفواجر ، ولما حل باهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوز الفرنسيس ومن والاهم ، وشـدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن ، وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاموستها ٠ فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشـهوات ، وخصوصا عقول القاصرات ٠ وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم فيظهر حالة العقد الاسلام وينطق بالشهادتين لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها ٠ وصار مع حـكام الأخطاط منهم النسـاء المسلمات متزييات بزيهم ، ومشوا معهم فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعية والأحكام العادية ، والأمر والنهى والمناداة ٠ وتمشى المراة بنفسها ، أو معها بعض اترابها واضيافها على مثل شكلها ، وامامها القواسة والخدم وبأيديهم العصى يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحـاكم ، ويامرن وينهين فى الأحـكام ٠

« ولما أوفى النيل اذرعه ودخل المـاء الى الخليج وجرت فيه السفن . وقع عند ذلك من تبرج النسـاء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن فى المراكب والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وصحبتهم آلات الطرب ، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ، ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضوعاتهم وكنائف مطبـوعاتهم ، وخصوصا اذا دبت الحشيشة فى رءوسـهم وتحكمت فى عقولهم ، فيصرخون ويطبلون

ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية فى غنائهم وتقليد كلامهم ٠

« وأما الجوارى السود ، فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ، ذهبن اليهم أفواجا ، فرادى وأزواجا ، فنططن الحيطان ، وتسلقن اليهم من الطبقات ، ودلوهم على مخبآت أسيادهم وخبايا أموالهم »(١٣٢) ٠

ويفسر الجبرتى اصرار الفرنسيين على عودة الناس الى الاحتفال بالموالد بعد أن كانوا قد أهملوا شأنها عند قدومهم ، أنهم رأوا مثل هذه الاحتفالات تشجع على « الخروج عن الشرائع ، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات ، والتلاهى وفعل المحرمات »(١٣٣) ٠ كما يلاحظ أن نصارى المصريين كانوا أسرع محاكاة لعادات الفرنسيين من المسلمين ، وأسعد حالا خلال سنى اقامتهم ٠ يقول فى حديثه عن الاحتفال بوفاء النيل :

« وخرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والأروام ، وتأهبوا للخلاعة والقصف٠٠٠وأكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغانى٠ وخرجوا فى تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة ، وسلكوا مسلك الأمراء سابقا ٠٠٠ وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم ، وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين ، وبعضهم تزيا بزى أمراء مصر ولبس سلاحا وتشبه بهم وحاكى ألفاظهم ، على سبيل الاستهزاء والسخرية وغير ذلك ٠ وأجرى الفرنساوية المراكب المزينة وعليها البيارق وفيها أنواع الطبول والمزامير فى البحر ٠ ووقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف ٠

---

(١٣٢) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٣٧ — ٢٣٩ ٠
(١٣٣) المرجع السابق ، ٥ : ٨٧ ٠

وسلك بعض غوغاء العـامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخـلاعة ورذالة الرقاعة ، بدون أن ينكر احد على احد من الحـكام أو غيرهم ، بل كل انسان يفعل ما تشتهيه نفسه ، وما يخطر بباله وان لم يكن من أمثاله .

اذا كان رب الدار بالدف ضاربا فشيمة اهل الدار كلهم الرقص »(١٣٤)

وقد كان رهيبا ذلك المصير الذى لقيـه الأقباط و « النسا الخوارج » بعد خروج الفرنسيين . وقد حفظ لنا التاريخ قصة نهاية احدى هؤلاء النسوة « التى درن مع الفرنساوية »(١٣٥) ، وهى زينت ابنة الشيخ خليل البكرى . فقد كانت سمعة الشيخ وابنته قد افقدته احترام العامة . وعندما وقعت الحرب بين الأتراك والفرنسيين وظن الناس ان الفرنسيين على وشك الخروج من مصر « هجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعروه من ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الراس ... (ثم) أطلقوه بعد أن اشرف على الهلاك »(١٣٦) . وعندما تم الاتفاق فى النهاية على رحيل الحملة وعاد العثمانيون الى مصر « طلبت ابنة الشيخ البـكرى ... بمعينين من طرف الوزير ، فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب ، واحضروها ووالدها ، فسالوها عما كانت تفعله . فقال : انى تبت من ذلك . فقالوا لوالدها : ما تقول أنت ؟ قال : أقول انى برىء منها . فكسروا رقبتها ، وكذلك المراة التى تسمى هوى التى كانت تزوجت نقولا القبطان .. ، خنقهـا فى ذلك اليوم أيضا ومعها جاريتها البيضـاء أم ولده ، وقتلوا ايضـا امراتين من اشباههن »(١٣٧) . أما الشيخ البـكرى فقد عزل عن نقابة الأشراف ، وخلفه فيها السيد عمر مكرم الذى عاد مع العثمانيين . ثم اتهم البـكرى بعد ذلك

---

(١٣٤) المرجع السابق ، ٥ : ٨١ - ٨٢ .
(١٣٥) التعبير للجبرتى ، المرجع السابق ، ٥ : ٣٠١ .
(١٣٦) المرجع السابق ، ٧ : ٥١ .
(١٣٧) المرجع السابق ، ٥ : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

بانه « مرتكب للموبقات ، ويعاقر الشراب ، وغير ذلك ••• وأنه قتل ابنته خوفا وتبرئة لنفسه من الشهرة التى لا يمكنه سترها ، ولا يقبل عذره فيها ، ولا التنصل منها »(١٣٨) • وعلى أى حال ، فقد خمل ذكر الرجل بعد ذلك الى أن مات فى أوائل عهد محمد على •

وأما غير من كسرت رقابهن أو خنقن من النساء أو رحلن مع الفرنسيين، فقد عدن بخروج الفرنسيين الى من قبل عودتهن من أولياء أمورهن ، ورجعن الى الحجاب والنقاب وظلمة الدور • ثم سعى لهن أقاربهن الراغبون فى ستر عارهن ، لتزويجهن بالجنود العثمانيين القادمين الجاهلين بما وقع • فما ان شاع الخبر ، حتى أصدر الأتراك أمرهم بمنع عقد تلك الزيجات(١٣٩) •

١٠

رحيل الحملة

« والتاريخ الصحيح لا يجد فى الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم الا باعثا ايجابيا واحدا : هو العودة لما الفه الناس » •

شفيق غربال : محمد على الكبير ، ص ٢٤

من المؤكد أنه لم يكن لكبار المشايخ والعلماء يد فى التحريض على الثورة ضد الفرنسيين ، وان كانوا قد أمسكوا عن الفرنسيين علمهم بقرب اشتعالها • ولم يكن الفرنسيون قد انخدعوا قط بصدد حقيقة ولائهم ، غير أنهم كانوا يعتمدون على جبنهم • كذلك فانه لم يشارك فيها أكثر التجار وأصحاب الحوانيت ، رغم هدم مصاطبهم ! ، بل كان الكثيرون منهم يخفون الفرنسيين عندهم ويقدمون لهم العون • أما أصحاب المصلحة الحقيقية فى

---

(١٣٨) المرجع السابق ، ٧ : ٥١ •

(١٣٩) المرجع السابق ، ٥ • ٣٠١ •

خروج الحملة فأعيان الناس وأغنياؤهم من الموالين للترك أو المماليك ، وصغار المشايخ ممن أثار سلوك الكفرة وتحكمهم فى المسلمين عواطفهم الدينية ٠ وقد استطاع هؤلاء وأولئك أن يستخدموا الطبقات الدنيا التى حسنت أحوالها بعض الشىء مطية لبلوغ أهدافهم ٠

غير أنه من المؤكد كذلك أن غالبية الشعب فرحت فرحا كبيرا بخروج الفرنسيين الكفرة وعودة الأتراك والمماليك المسلمين ٠٠٠ فى الأيام الأولى على الأقل ٠ يقول الجبرتى : « وفرح الناس كعادتهم بالقادمين ، وظنوا فيهم الخير وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم من الطيقان وفى الأسواق ٠٠٠ وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم ٠ « نصر الله السلطان ، ونحو ذلك » (١٤٠) ٠ وعندما دخل رجال الدولة العثمانية » حصل للناس ضجة عظيمة ، وازدحموا على الفرجة عليهم ،وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف ، وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان »(١٤١) ، نفس الزغاريد التى قابلن الفرنسيين الوافدين بها عند مرورهم بالريف ٠ وفرض على الناس تحصيل مبلغ كبير للمعاونة فى ترحيل الفرنسيين ، « فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ، ويقول : سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة ٠ كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم ، وهم يحقدون ذلك عليهم ٠٠٠ وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر ، فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ، ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار ٠٠٠ وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ٠٠٠ حتى ان

---

(١٤٠) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٧ ٠

(١٤١) المرجع السابق ، ٥ : ٩٩ ٠

فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم ، كقولهم : « الله ينصر السلطان ، ويهلك فرط الرمان »(١٤٢) ٠

كان بوسع الفرنسيين أن يتظاهروا ما شاءوا باحترام الاسلام ، وأن يقولوا انهم ليسوا مسيحيين بل ربوبيون أو ملحدون أو من عباد الهة العقل أو الكائن الأعظم ٠ غير انهم كانوا جميعا فى نظر المسلمين كفارا ٠ أما المماليك والعثمانيون فمسلمون ٠ قد يعتصرون أرزاقهم ويسومونهم سوء العذاب ، ولكنهم اخوة لهم فى الدين ٠ وما ان أذل الفرنسيون المماليك البغيضين حتى أصبح هؤلاء البغيضون موضع الشفقة والرثاء ٠

بيد أن الظاهر أن السنوات الثلاث التى قضاها الفرنسيون فى مصر ، كانت قد أنستهم فظائع العهد الماضى ٠ وسرعان ما أعاد اليهم جند الأتراك ذاكرتهم ! فقد تعرضوا على الفور لايذاء عسكر العثمانية القادمين للحلول محل الفرنسيين « وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنوا زوالهم ورجوع الفرنسيس على حالتهم التى كانوا عليها »(١٤٣) ٠ وتسلط عسكر العثمانية على الناس بالضرب وأخرجوهم من مساكنهم ، فان اشتكى احدهم « يقال له ٠ الا تفسحون لاخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وانقذوكم من الكفار الذى يسومونكم العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم ، وهم ضيوفكم أياما قليلة »(١٤٤) ٠٠٠ « وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ويجعلونهم كفرة وفرنسيس وغير ذلك ، وتمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية »(١٤٥) ٠

---

(١٤٢) المرجع السابق ، ٥ : ١٠٠ ٠
(١٤٣) المرجع السابق ، ٥ : ١٢٤ ٠
(١٤٤) المرجع السابق ، ٥ : ٢٩٧ ٠
(١٤٥) المرجع السابق ، ٥ : ٣١٠ ٠

وشرع الفرنسيون فى الرحيل ، مصطحبين معهم « جماعة كثيرة من القبط وتجار الافرنج والمترجمين ممن تداخل معهم وخاف على نفسه بالتخلف »(١٤٦) . كما فضل مرافقتهم عدد من المسلمين وبعض النساء المصريات « اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن »(١٤٧) . وقد قابل الشيخ رفاعة الطهطاوى بعضا من هؤلاء فى مارسيليا بعد ربع قرن من سفرهم ، فوجدهم « جميعا يلبسون لبس الفرنسيس » . أما المسلمون منهم « فان منهم من مات ومنهم من تنصر والمياذ بالله ... وممن تنصر انسان يقال له عبد العال ... بسبب الزواج بنصرانية .. ويقال انه سمع منه عند موته يقول : اجرنى يا رسول الله ! ولعله ختم له بخير وعاد الى الاسلام .. ولقد رأيت له ولدين وبنتا أتوا فى مصر وهم على دين النصرانية ، أحدهما معلم الآن فى مدرسة أبى زعبل .

« ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليا ، انسان لابس أيضا كالافرنج ، واسمه محمد ، منطلق اللسان فى غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير . فسألته عن بلده ببر مصر ، فأجاب بأنه من مدينة أسيوط من أشرافها ، وان أباه يسمى السيد عبد الرحيم ... وأمه تسمى مسعودة ... وانه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره . ويقول انه باق على اسلامه . وكل ما يعرف من الأمور الدينية (هو) : الله واحد ، ومحمد رسوله ، والله كريم ! »(١٤٨) .

غير انه كما رحل المئات من المصريين الى فرنسا ، فقد آثر المئات من

---

(١٤٦) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٥ .

(١٤٧) رفاعة الطهطاوى : « تخليص الابريز » ، ص ١٠١ .

(١٤٨) المرجع السابق ، ١٠١ - ١٠٢ .

الفرنسيين البقاء فى مصر بعد خروج الجيش ، والتحق الكثيرون منهم فيما بعد بخدمة محمد على ٠

وودع القائد الفرنسى العام مينو مشايخ الديوان فى رسالة عبر فيها عن أسفه اذ لم يتمكنوا من « تنظيم اهالى البلد بالهدى والطاعة الموجبة منه لحكومة الفرنساوى » ، وعن أمله فى أن « نرى فضائلكم عن قريب ، ونواجه سكان محروسة مصر » حين يتمكن « المقدام الجسور بونابرته المشهور ٠٠ بعون الله هادى كل شىء » من قهر الأعداء فى مصر(١٤٩) ٠ وقرأ الترجمان على المشايخ « خطاب محبة من حضرة استوف مدبر الحدود العام فى مجلس الديوان العالى » جاء فيه :

« كل واحد منكم رأى المحبة والاخوة التى كانت موجودة ما بين الفرنساوية وما بين أهل الديار المصرية ٠ قد كان الجيش والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة ٠٠ (وان) حضرة بونابرته القنصل الأول ٠٠٠ هذا الشجاع الأعظم المعان بقوة الله ، الذى عقله ما له مثيل ، كان يستحق أن يكون حاكما عليكم دائما ٠٠٠ والعشم أن يترتب فى الديار المصرية العدل الذى كان وعدكم به وقت ما كان عندكم ٠ ومن اللازم أنكم تعرفون جميع ما صدر لكم من الخيرات بواسطة حكم الفرنساوية ٠٠٠ وهلبت أن يصادف يوم اننا نرجع الى عندكم لأجل تمام الخير الذى يصدر من حكم الفرنساوى ، والذى ما أمكننا تتميمه ٠

« وانفض الديوان ، وركب المشايخ ، وخرجوا للسلام على الوزير يوسف باشا الذى يقال له الصدر الأعظم ٠٠ والقادمين معه »(١٥٠) ٠

* * *

---

(١٤٩) « عجائب الآثار » ، ٥ : ٢٨٠ - ٢٨٢ ٠

(١٥٠) المرجع السابق ، ٥ : ٢٨٢ - ٢٨٤ ٠



وكانت البذرة برحيل الراحلين قد تم بذرها ٠

وحسب القادمون الغافلون أن الأمور قد عادت بعودتهم الى نصـــابها القديم ٠ بيد انهم كانوا ـ كما وصفناهم ـ غافلين ٠٠٠

إنجلترا والألفي بك

« ولكن الاقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد »

محمد بك الألفى (الجبرتى ٦ : ٣٤٤)

كانت الحملة الفرنساوية على مصر فى نظر الجميع وقت انسحابها ، وبالنسبة لفرنسا بالأخص ، حملة فاشلة من كافة الوجوه ، قد وصفها البعض مثل تيير Thiers بانها « أكثر محاولة فى التاريخ تهورا ، أكثر تهورا من حملة بونابرت على موسكو » . ولا نكاد نجد فى التاريخ مشروعا بدأ بمثل ما بدأت به هذه الحملة من الطنطنة والمبادىء الرفيعة والأهداف واسعة النطاق ، ثم اذا هو بعد بضعة اشهر يتدهور الى حد أن يهجره صاحبه ، بونابرت ، لمصيره ، ولا يكاد خلفه كليبر يفكر الا فى كيفية تخليص رجاله من الورطة والرحيل .

والواقع ان السبب الأكبر فى فشل الحملة هو ذلك الافتقار الرهيب الى التناسب بين ضخامة المشروع والوسائل المستخدمة لتنفيذه . وقد اضطرت الضائقة التى عاناها الفرنسيون فى مصر بعد رحيل بونابرت المفاجىء ، والتى نجمت عن ضغط قوات العثمانيين والانجليز وثورة الأهالى ، اضطرت الفرنسيين الى التخلى عن الكثير من الاصلاحات التى دشنوها او فكروا فيها ، والى انتهاج وسائل قمع وجمع للمال لا تقل قسوة عن وسائل المماليك والعثمانيين . غير انه من الظلم أن نشارك البعض فى اعتقاده أن هذا التراجع عن الاصلاح والضائقة كشفا النقاب عن الوجه الحقيقى للنوايا

الفرنسية فى مصر ٠ اذ مهما خالط هذه النوايا من الدجل وبواعث النفع الذاتى ، ومهما تدهورت الى حد اللجوء الى العسف والعنف ، فلا مفر من الاعتراف لهم بقسط كبير من الرغبة الصادقة فى الاصلاح ، وفى تحرير البلاد من أغلال العصر الوسيط وأوهامه ٠ فان كانت الأهداف قد تعثرت ، فما كان ذلك الا لقصر الأمد ، وبسبب الظروف المضطربة المعاكسة التى لم تتح الفرصة لاحداث تغييرات عميقة واسعة المدى ٠

ومع قصر المدة التى قضاها الفرنسيون فى مصر ، فقد كان لاقامتهم آثار باقية في تاريخها ٠ فقد فتحت الحملة اعين الجميع : فتحت أعين المصريين الذين فقدوا عذريتهم باطلاعهم الأول هذا على عادات الفرنجة ونظمهم ، بعد أن ظلوا أكثر من خمسة قرون كزوجة هيبرو التى يتحدث عنها مونتنى والتىكانت تظن لعفتها أن رائحة أفواه الرجال كافة خبيثة لأن رائحة فم زوجها خبيثة ! وفتحت أعين العثمانيين على حقيقة أن تمسكهم بتقاليدهم الشرقية لن يجدى شيئا في مواجهة عدوانية الغرب ، وأن عليهم أن يتبنوا نفس سلاح الغرب لمحاربته به ، وان كان هذا التبنى من شأنه حتما أن يقضى تدريجا على هذه التقاليد ، حتى ما لم يكن له منها علاقة بالسلاح والحرب ٠ وفتحت أعين الدول الأوروبية على أهمية الاستحواذ على مصر ، أو ، على الأقل ، مراقبة سير الأحداث فيها باهتمام ، وضرورة التدخل فى الوقت المناسب لفرض ارادتها قبل أن تأخذ الأمور فيها مجرى فى غير صالحها ٠

انجلترا تفكر فى مصير مصر

وقد بادرت انجلترا بالذات ، فور خروج الفرنسيين ، وأثناء اقامة قواتها فى مصر للاشراف على رحيل الحملة عن البلاد واقرار الوضع الجديد فيها ، الى التفكير الجدى النشط فى مستقبل هذه الأمة التى طفرت فجأة الى مسرح السياسة الدولية ٠ وكان تفكير أعضاء الوزارة البريطانية ومن

استعانت بهم من الدبلوماسيين والساسة فى دراسة الموضوع ، على المنوال التالى :

لقد كان المماليك قبل قدوم الحملة الفرنسية هم أصحاب السلطةالحقيقية فى مصر ، بينما كانت سيادة العثمانيين اسمية فحسب · وقد وجه الفرنسيون الى المماليك ضربة قوية ، غير أنه لم يزل بهم رمق ، والعثمانيون اضعف من أن يجهزوا عليهم · ومن الواضح أن كلا من الفريقين عاجز عن حماية مصر من غزو كالغزو الفرنسى · ولذا فانه ليس من الحكمة السماح بالعودة الى حالة الفوضى والاستبداد التى سهلت وقوع البلاد فى أيدى أعداء الانجليز · وقد عاد المماليك والعثمانيون الى مصر ، وعادوا الى الصراع فيما بينهم ، مما يوضح أن انفجارا ما قد أصبح وشيك الوقوع ، وان صعب التنبؤ بالجهة التى سيصدر عنها · فالحل اذن هو أحد ثلاثة أمور :

الأول : احتلال بريطانى صريح لمصر · والثانى : أن تظل مصر تحت سيادة الباب العالى ، مع تعيين بعض أمراء المماليك ذوى الشعبية والنفوذ حكاما للاقاليم ، وتعيين مندوب بريطانى مع كل منهم ، ومراعاة نقل هؤلاء الحكام من المماليك بين حين وآخر من اقليم لاقليم · والحل الثالث هو تدمير مصر عن طريق اغراقها ، وان كان فى ذلك خطر الاساءة الى سمعة بريطانيا اساءة بالغة · (من مذكرة الدبلوماسى البريطانى ج· ب· موريير الى حكومته بتاريخ ٧ يوليو ١٨٠١) · والرأى على كل حال هو أنه « يجب ألا يسمح لمصر بأن تبقى فى وضع نشط ، أو فى أيد نشطة »
(من تقرير للكابتن بلانكيت الى الحكومة البريطانية بتاريخ ٢٦ يناير ١٧٩٩) ·

تعاطف بريطانيا مع المماليك

غير أن رأى الحكومة البريطانية استقر فى النهاية على أن تقوم بدور الوسيط بين الأطراف المختلفة ، وأن تسحب جيشها من مصر . واذ رأت أنه قد ينجم من جراء هذا الانسحاب خطر عودة البلاد الى الطغيان والفوضى ، فقد أوصت الباب العالى باجراء اصلاحات فى مصر أبدت بريطانيا استعدادها للمساهمة فى تنفيذها . بيد أن نظرة البريطانيين الى طبيعة الاصلاحات المطلوبة كانت تختلف عن نظرة الفرنسيين . فهم شعروا بأنه من الواجب أولا احداث تغيير جذرى فى عادات المصريين وأخلاقهم ونظم الحكم فى بلادهم ، وأن عليهم أن يتعلموا نمطا من التفكير لم يعهدوه ، وسلوكا لم يألفوه ، وأن تمر سنوات من السلام والنظام والأمن والحكم الصالح قبل النهوض بالاصلاحات المالية الضرورية . والمصريون بوجه عام ضعيفو الرغبة فى تبنى أى تغيير فى عاداتهم . وهم مع تمتعهم بالصفات التى قد تجعلهم ، لو أنها نميت ، قادرين على أن يصبحوا أمة حرة ، سيظلون أمدا طويلا محرومين من الحرية ومن الطاقة اللازمة لنيل الاستقلال . وكان البريطانيون يؤمنون بأنه من الضرورى من أجل اقامة وحدة وطنية ، أن تقوم سلطة مركزية توفر الأمن ، وتستأصل احتكار الامتيازات ، كما ينبغى خلق صلة حقيقية أو مفتعلة بين مصر الفرعونية ومصر الحديثة ، حتى تحرر البلاد من الارتباط بالتاريخ الاسلامى ، وتسهل اقامة المسيحيين من أقطار البحر الأبيض المتوسط فيها . وهذا المسلك الهادىء التدريجى كفيل بأن يجنب البلاد الفشل الذى كان نصيب تجربة الفرنسيين ، وهم الذين حاولوا « الحاق عضو حى بجثة عفنة » .

وكانت بريطانيا أميل الى أن تكون السلطة الفعلية فى مصر فى يد المماليك دون العثمانيين . فهم رغم عيوبهم قد ألف المصريون حكمهم . فان

ساعدتهم بريطانيا على استعادة مكانتهم ، ووثقت صلاتها بهم ، أمكنهم فى المستقبل طرد العثمانيين من مصر ، وحفظوا لبريطانيا مشاعر الولاء والامتنان .

وانسحبت القوات البريطانية من مصر عام ١٨٠٣ مصطحبة معها الى انجلترا أميرا من أعظم أمراء المماليك نفوذا وجاها ، وهو محمد بك الألفى ، زاعمة أنها تود أن يكون فى انجلترا ممثل للمماليك يعرض وجهة نظرهم ، وآملة فى قرارة نفسها أن يصبح هذا الأمير فى الوقت المناسب أداة قوية فى يد الحكومة البريطانية تستخدمها فى بسط نفوذها على مصر . وكان الألفى قبل رحيله معهم بنحو عامين قد خطرت بذهنه فكرة الهجرة الى بريطانيا . غير أنه حين اراد أن يطمئن على معرفة نسبة الفائدة التى سيحصل عليها من استثمار أمواله فيها واخبروه أنها لا تزيد عن ستة فى المائة ، غير رأيه ، اذ رأى هذه النسبة ضعيفة بالمقارنة بالثلاثين فى المائة التى يتقاضاها على ما يقدمه من قروض الى الفلاحين فى مصر ، والتى كان الفلاحون يدفعونها بشعور من الامتنان له ! .

كان الانجليز اذن يعلقون آمالهم على اعداد الألفى لحكم مصر . وكان القصد من حملة فريزر التى أرسلوها الى مصر عام ١٨٠٧ ، مساعدة الألفى وحزبه ضد محمد على الذى أصبح واليا على مصر قبل الحملة بنحو عامين ، والذى كان الانجليز يرونه « رجلا تنقصه كل مبادىء الشرف ، على استعداد لتقديم خدماته لأية حكومة تدفع له مبلغا أكبر من المال ، على حد اعترافه هو نفسه » ، ويخشون من أن يكون قد باع نفسه بالفعل للفرنسيين .

واذ كان الألفى هذا اذن قاب قوسين أو أدنى من تولى حكم مصر ، بما ينطوى عليه هذا من احتمالات ضخمة بالنسبة لتاريخ مصر اللاحق ، ولما كانت قصة هذا الرجل الفذ ليست بالخالية تماما من المغزى ، وتلقى ضوءا

على ظاهرة تأثر الشرقيين بالنظم الغربية فى ذلك العصر ، فانه قد يكون من المفيد التعرض لهذه القصة ببعض التفصيل :

محمد بك الألفى

ولد الألفى فى حوالى عام ١٧٥١ م . ورغم أن المؤرخين أغفلوا ذكر موطنه الأصلى ، فالراجح انه كان جركسيا . وفى عام ١٧٧٥ جلبه بعض التجار الى مصر لبيعه ، فتنقل من ملكية أمير الى ملكية آخر من أمراء المماليك ، حتى استقر مملوكا لمراد بك شريك ابراهيم بك فى حكم مصر .

وكان الألفى رجلا صعب المراس ، قوى الشكيمة ، مشهورا بالفجور والعسف ، فخافته الناس ، وخافت مماليكه الذين بات يكثر من شرائهم وينشئهم على طبيعته . ولم يزل على حالته هذه وسطوته حتى حضر حسن باشا الجزايرلى واليا على مصر من قبل العثمانيين ، فخرج مع مماليكه الى الوجه القبلى مقيما به أكثر من أربع سنوات أحدثت به تغييرا كبيرا . فقد وزن عقله خلالها ، وأحب العزلة ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب والاهتمام بالعلوم ، خاصة علمى الفلك والهندسة ، يخالط أهل العلم بهما ، ويقتنى الكتب فيهما وفى التاريخ . غير ان هذه الاهتمامات الجديدة أثارت احتقار مماليكه له ، فتجرأوا عليه وترفعوا وضعف سلطانه عليهم ، حتى اضطر الى التراجع بعض الشىء عن ميوله المستحدثة وشغفه بالعلوم الى ما كان عليه قبلها .

ثم عاد الى القاهرة فبنى لنفسه دارا بالغة الفخامة فى حى الأزبكية . وكان له اصدقاء من الفرنجة زودوا حديقتها بنافورة ضخمة من الرخام على صورة أسماك يخرج الماء من أفواهها . فما انتهى العمل فيها وانقضت ستة عشر يوما على انتقاله للسكنى بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ! فهرب الألفى الى الصعيد هو ومماليكه ، حيث دارت بينه وبين الفرنسيين وقائع

هائلة استخدم فيها الكر والفر ، دون أن يفلح الفرنسيون فى اقتناصه ٠

غير أن متاعبه لم تنته بخروج الفرنسيين من مصر (عام ١٨٠١) ٠ كان فى الخمسين من العمر وقت عودته الى القاهرة ٠ وكان القلق يساوره بشأن مستقبل الحكم فى البلاد ومصير المماليك ٠ ذلك لأنه ، على حسد تعبير الجبرتى ، « كان صحيح النظر فى عواقب الأمور ٠ فكان لا يستقر له قرار ، ولم يدخل الى الحريم ، ولم يبت بداره الا ليلتين على سجادة ومخدة فى القاعة السفلى » ٠ ويضيف الجبرتى قوله : « ذهبت اليه مرة فى طرف اليومين ، فوجدته جالسا على السجادة ٠ فجلست معه ساعة ٠ فدخل عليه بعض أمرائه يستأذنه فى زواج ، فنتر فيه وشتمه وطرده ٠ وقال لى : أنظر الى عقول هؤلاء المغفلين ! يظنون أنهم استقروا بمصر ، ويتزوجون ويتاهلون، مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها أهون من الورطة التى نحن فيها الآن ٠٠٠ ان هؤلاء العثمانيين لهم السنين العديدة يتمنون نفوذ أحكامهم وتملكهم لهذا الاقليم ٠ ومضت الأحقاب وامراء مصر قاهرون لهم وغالبون عليهم ، ليس لهم معهم الا مجرد الطاعة الظاهرة ، وخصوصا فى دولتنا الأخيرة ، وما كنا نفعله معهم من الاهانة ومنع الخزينة وعدم الامتثال لأوامرهم ٠ وكل ذلك مكمون فى نفوسهم ، زيادة على ما جبلوا عليه من الطمع والخيانة والشره ٠ وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة ، وتامروا علينا ، فلا يهون بهم أن يتركوها لنا كما كانت بايدينا ويرجعوا الى بلادهم بعد ما ذاقوا حلاوتها » ٠

الألفى بك فى لندن

وكان من رأى الألفى أن يستعين المماليك بالانجليز فى وضع الشروط مع العثمانيين التى تضمن سلامة المماليك وعودتهم الى نفوذهم السابق ، وجلاء العثمانيين عن مصر ٠ غير أن غالبية المماليك كانوا مطمئنين لوعود

العثمانيين • ورفضوا الاستعانة بالانجليز « أعـــداء الدين ، فيحكم العلماء بردتنا وخيانتنا لدولة الاســـلام » • وكان رد الألفى عليهم أن العثمانيين أنفسهم استعانوا بالانجليز ، وأنه لولا هذه المساعدة « لـمـا قدروا على اخراج الفرنساوية من البلاد » • ولم تمض أشهر قلائل على هذا النقاش حتى أوقع العثمانيون بأمراء المماليك ، فهرب منهم من القاهرة من استطاع الهرب ، ودارت بين الألفى وجنود العثمانيين معركة هائلة بالبحيرة كان النصر فيهـا حليفه •

بيد أن الألفى فضل بعد هذا النصر ، وبالحاح من المماليك ، أن يسافر الى انجلترا • فوصل الى لندن فى خريف عام ١٨٠٣ حيث أقام لمدة تزيد عن سنة مع خمسة عشر شخصا من مماليكه • فأما التقارير البريطانية الخاصة باقامته فى لندن فلا توحى بأنه استفاد كثـيرا من اطلاعه على نظم الحيـــاة الانجليزية • ففى عدد أكتوبر ١٨٠٣ من « الجنتلمانز ماجازين » اللندنية ، صفحة ٩٧٢ ، ذكرت المجلة أنه لم يتبن من العادات الانجليزية « غـير عادة شرب البنش • ولا يخلص الا لغليونه ، مبهور بكل شىء هنا خاصة النساء ، ويشرب زجاجتين من الشمبانيا أو البرجندى بعد كل وجبة عشاء » ! وأما قارىء الجبرتى فيخرج بانطبـاع قوى عن مدى اسـتفادته من اقامته هـذه بانجلترا • فقد « تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم ، وحسن سياسة أحكامهم ، وكثرة أموالهم ، ورفاهيتهم وصـــنائعهم ، وعدلهم فى رعيتهم مع كفرهم ، بحيث لا يوجد فيهم فقــير ولا مستجد ولا ذو فاقة ولا محتاج • وقد أهـــدوا له هدايا وجواهر وآلات فلكية وأشكالا هندسـية وأسطرلابات وكرات ونظارات ، وفيها ما اذا نظر الانسان فيهـا فى الظلمة يرى اعيان الأشكال كمـــا يراها فى النور ! ومنهـا لخصـوص النظر فى الكواكب ، فيرى بها الانسان الكوكب الصـغير عظيم الجرم ، وحوله عـدة

كواكب لا تدرك بالبصر الحديد ، ومن أنواع الأسلحة الحربية أشياء كثيرة ، وأهدوا له آلة موسيقى تشبه الصندوق ، بداخلها أشكال تدور بحركات ، فيظهر منها أصوات مطربة على ايقاع الأنغام ، وضروب الالحان » ! .

ويظهر تأثير « عدلهم فى رعيتهم » فى نفس الألفى من القصة التالية التى يرويها الجبرتى عنه :

« أخبرنى بعض من خرج لملاقاته عند منوف العلا ، أنه لما طلع اليها وقابله سليمان بك البواب ، وكان قد بلغ الألفى كافة أفعاله بالمنوفية من العسف والتكاليف ، تسامروا فى ذكر العدالة الموجبة لعمار البلاد . فقال الألفى لسليمان بك : الانسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف حتى تدر وتسمن وتنتج له النتاج ، بخلاف ما اذا أجاعها وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى اذا ذبحها لا يجد بها لحما ولا دهنا . فقال سليمان بك : هذا ما اعتدناه وربينا عليه . فقال الألفى : ان أعطانى الله سيادة مصر والامارة فى هذا القطر ، لأمنعن هذه الوقائع ، وأجرى فيه العدل ليكثر خيره ، وتعمر بلاده ، وترتاح أهله ، ويكون أحسن بلاد الله . ولكن الاقليم المصرى ليس له بخت ولا سعد ، وأهله تراهم مختلفين فى الأجناس ، متنافرى القلوب ، منحرفى الطباع » .

« انظرى يا مصر الى اولادك »

عاد الألفى من انجلترا الى مصر فى آواخر عام ١٨٠٤ ، فاذا به يفاجأ بنجم آخر فى صعود سريع ، هو نجم مغامر المعى تمكن من الاستفادة لصالحه من ضعف العثمانيين والمماليك جميعا . وعندما نجح العلماء فى تولية محمد على حكم مصر ، غضب الألفى وهاج ، واتجه الى البحيرة محاولا الاستيلاء على دمنهور ، فقاومه أهلها بما كان يرسله اليهم عمر مكرم من الأسلحة ، فى

حين وجد محمد على من السهل استمالة أمراء المماليك الى صفه بالمراسلات والهدايا ، وبسبب ما كانوا يكنونه للألفى من الغيرة والحقد ، رغم تحذير الألفى المتكرر لهم من نوايا محمد على .

وارسل اليه محمد على جيشا ليحاربه عند دمنهور ، فهزمه الألفى شر هزيمة . غير أنه لم يطارد فلوله . وبادر فارسل الى الحكومة البريطانية يلتمس منها ارسال قوة عسكرية تساعده ، فوعدته بانفاذ ستة آلاف جندى بريطانى . وأقام الألفى ينتظر قدوم الانجليز قرابة ثلاثة أشهر . واذ هو قرب قناطر شبرامنت فى طريقه مع مماليكه الى الصعيد ، « نزل على علوة هناك ، وجلس عليها ، وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر الى جهة مصر (القاهرة) وقال : يا مصر ! أنظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤد ، وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويسكنون قصورك ... ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله وقد تحرك به خلط دموى . وفى الحال تقيأ دما ، وقال :

— قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وليس ثمة من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم .

ثم مات فى تلك الليلة » .

وعندما دخل على محمد على من يبشره بوفاة الألفى ، صاح الرجل فى فرح عظيم :

— الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابا .

* * *

وفى ١٣ مارس ١٨٠٧ ، أى بعد وفاة الألفى باربعين يوما بالضبط ، وصل الجيش البريطانى بقيادة فريزر الى الاسكندرية .

الأوربيون في مصر في عصر محمد علي

لم تكن الوجوه الأوروبية بالمنظر غير المألوف فى مصر قبل وفود الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ٠ فقد عرفت مصر القناصل الذين كان استنجادهم بفرنسا بسبب اساءة المماليك المزعومة الى التجار الفرنسيين من المبررات المعلنة للغزو الفرنسى ٠ وعرفت الرحالة من امثال نيبور وفولنى ، والجماعات التى كانت تفد اليها لتقصى احوالها او دراسة امكان غزوها ، كجماعة الضباط الذين أرسلهم اليها لويس السادس عشر ٠ وكان هناك الافرنج المترددون عليها للتجارة ، خاصة فى الاسكندرية ، ثم الافرنج « البلديون » بالقاهرة وبعض المدن الكبرى ، وهم الذين حدثنا الجبرتى عن اقبالهم على فتح المطاعم والحانات لجنود الحملة الفرنسية ، وعمل بعضهم كمترجمين لقادة الحملة وعلمائها ٠٠ غير أن عدد هؤلاء جميعا لم يكن من الضخامة بحيث يكفل احاطة عموم أهل القطر ، بل ولا سكان المدن الكبرى عدا الاسكندرية ، بأحوال الافرنج وعاداتهم ، وبحيث يترك أثره او يحدث تغييرا فى مظاهر حياة لفيف من الشعب ، خاصة أن الأجانب وقتها كانوا يشعرون بالخطر والعزلة ، لا يجازف أحدهم بالخروج من القاهرة أو الاسكندرية أو رشيد أو دمياط دون حراسة مسلحة ، وكان للتجار منهم فى القاهرة حى مسور خاص بهم ، يتولى حراسة بواباته جنود من الانكشارية٠٠ أما هذه الاحاطة وهذا التأثير فقد بدءا بالغزو الفرنسى ، حين قدم بونابرت فى صحبة نحو ثلاثين الف من الجنود ، وخمسمائة مدنى ، و١٦٥ عالما ، وثلاثمائة من النساء ، وانتشر هؤلاء جميعا فى مدن القطر وأريافه وصحاريه من الاسكندرية الى أسوان ٠

الأفاقـــون

وقد فضل المئات من الفرنسيين البقاء فى مصر عنـد رحيل الحملة عام ١٨٠١ ، وانحاز بعضهم الى طائفة أو أخرى من الطوائف المختلفة المتنازعة فى مصر فى السنوات ما بين ١٨٠١ و١٨٠٥ · غير أن غالبيتهم سرعان ما مالت الى محمد على دون المماليك والعثمانيين ، وداعبهـا الأمل فى أن يتمكن من تادية خدمات جليلة للمصالح الفرنسية فى الشرق · فلمـا تولى حـكم مصر التحقوا بخدمته ، وانبروا يسدون اليه النصح والعون فى شـؤون الحرب والسلم ·· وبعد هزيمة نابليون فى واترلو عام ١٨١٥ وسقوطه ، خشى عدد كبير من جنـوده أن يتعرض لهم لويس الثـامن عشر بالاسـاءة والتنكيل ، فأسرعوا بالهجرة الى الشرق يعرضون على حكامه خدماتهم · وقد استقبلت مصر طائفة من هؤلاء الجند ، اعتنق بعضهم الاسلام ، وتبنى عادات المصريين·

وقد كان من المـالوف ، ومن الطبيعى ، انه كلما اقبلت أمة متخلفـة على الأخذ بأساليب التمدن الغربى ، تدفق عليها فى ركاب الخبراء والمدربين والمستشارين الغربيين ، زمرة من المحتالين والأفاقين من أوروبا ، سعيا وراء الكسب عن طريق استغلال مطامع الحكام وسذاجة الشعوب · وصـفحات الأدب الروسى زاخرة بصور هـؤلاء الذين وفدوا الى روسـيا فى أعقـاب « اصلاحات » بطرس وكاترين ، فتلهفت المنتديات على دعوتهم ليكونوا نجوم سهراتها ، وأرباب الأسر الـكبيرة على اسـناد مهمة تعليم الأولاد اليهم ·· كذلك فانه ما أحس هؤلاء باتجاه محمد على وحكومته الى الاقتباس من نظم الغرب باى ثمن ، وتكريمهمـا الزائد للأوروبى لمجرد تمتعـه بجنسـية أوروبية ، حتى توافد على مصر أفواج من الأطبـاء والمهندسـين ومبتكرى المشروعات والتجار والعسكريين ، يحملون الى الوالى رسـائل توصية ، أو بدون رسائل توصية ، هذا يعرض اختراع غواصـة ، وآخر يشرح وسيلة

مبتكرة لرفع المياه « مؤكدا أنها اذا روعيت تجىء بالمعجزات المدهشات » ، وثالث يقترح صنع قذائف من نوع جديد لاحراق سفن العدو وتدمير حصونه ، ورابع قد ابتدع أساليب مستحدثة لتدبير القتال وتعبئة الجيوش ، ثم اطباء دجالون يدعون معرفة أسرار علاج الدسنتاريا والرمد الصديدى والطاعون ، يغررون بالسذج ، ويقابلون بما لا يستقبل به غير الكبراء من مظاهر الحفاوة والتبجيل ، « وما هم فى الحقيقة الا لصوص » ٠ وكثيرا ما كانت تجرب فى مصر اختراعاتهم هذه ، مما كانوا قد عرضوه فى بلادهم من قبل فرفضتها ، فلا تؤدى الى غير الفشل ٠

وقد قص علينا كلوت بك فى كتابه « لمحة عامة الى مصر » نبأ أحد هؤلاء الدجالين ، وهو « البارون » دو فالفنجن ، الذى قدم الى الاسكندرية فاستقبل احفل استقبال من أهل الطبقات العليا فيها ، تقديرا لكتب التوصية العديدة التى زود بها ٠ وقد بدأ هذا الألمانى بالنزول فى دار عظيمة تنم عن كافة مظاهر الأبهة ، وانفاق المال عن سعة ، يستقبل الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة ، فلا يدور حديثه معهم الا عن قصوره الشامخة وامواله الطائلة فى ألمانيا ٠ وكان الناس يتسابقون اليه راجين أن يتفضل عليهأ باصدار أمر أو التعبير عن رغبة ، ليتباروا فى تحقيقهما فورا ، وما من أحد منهم الا تقدم اليه بماله يسأله التعطف عليه بقبوله ٠ وصار الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون ، واذا صادفت فى الطريق وجيها وسألته عن وجهته أجاب بكبرياء وصلف انه يقصد البارون ٠٠٠ ثم اذا بالشكوك تحوم حوله بعد اقامته فى الاسكندرية نحو عام ونصف ، واذا به يعترف بحقيقة حاله ، وبأن قصوره وامواله لم تكن قط الا بمخيلته ، فضاع على الناس ما لا يقل عن خمسين الف فرنك كانوا قد أقرضوه اياها ٠

وينصح كلوت بك فى كتـــابه القناصـــل الفرنسيين بتطهير الجالية الفرنسية فى مصر « من المحتالين الذين لا ذمة لهم ، ممن ياوثون ســـمعة أمتهم باغتنامهم فرصة جهل الشعب المصرى وسذاجته وركونه اليهم لابتزاز أمواله ، وانتحالهم الألقاب والصفات للتغرير به » .. غير أنه يمضى فيهاجم طائفة أخرى من الأوروبيين ، كانوا يحذرون محمدا عليا من أبناء جنسهم ، ويتهمون لديه الموظفين الأوروبيين فى حكومته بقلة الكفاءة والجهل ، ذاهبين الى أن « اصلاحاتهم » لا تفيد البلاد ، أو أنها خيالية غير ميسرة التحقيق فى مصر . والظاهر أن أفراد هذه الطائفة التى هاجمهـا كلوت بك (وهـــو الموظف الكبير فى حكومة محمد على ، وكان يمكن أن ينطبق عليه اتهامهم) ، كانوا من أولئك الزائرين الأوروبيين لمصر (خاصة الكتاب والفنانين منهم) ، الذين رثوا لحال المصريين اذ رأوهم « يهجرون عاداتهم المحمودة ليستبدلوا بها العادات الأوروبية » ، وكانوا معجبين بمصر أيمـا اعجاب ، شـــديدى التحمس لشعبها ، مسارعين الى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة والملبس ، حتى انهم صاروا فى مصر يسيرون حفــاة ويلبسون العمـــائم ، « رغم أن استخدامها فى مصر قد قل وأصـــبح يكاد يقتصر على الطبقـة الدنيـا من الشعب » .

طبقـــاتهم

أما عن غير هؤلاء الأفاقين والرحالة ، فقد كان بمصر عدد من القناصل الأوروبيين وأعوانهم ، يمثلون فرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا وأسبانيا والســـويد وصقلية وسردينيا وهـــولندا وبلجيكا والدنمـــارك وتوسكانيا ، يقيم كبراؤهم بالاســـكندرية ، ويقومون فى الواقـع بمهـام السفراء ، ولهم نواب من الافرنج فى القاهرة ، ونواب من أقباط مصر فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والأقصر .

ثم تجار الجملة ، ومعظمهم بالاسكندرية ، وتجار القطاعى من أصحاب متاجر الزجاج والمجوهرات والأقمشة ومتاجر الأزياء الحديثة التى كانت توقف زبائنها على حركة الأزياء المستحدثة فى أوروبا • وكان بالاسكندرية وحدها نحو مائة متجر أوروبى ، ونحو عشرة مطاعم للفرنسيين والايطاليين والانجليز ، ومقاه يقدم فيها الجيلاتى والشوكولاته على الطريقة الأوروبية ، ومخابز افرنجية كان الناس يقبلون اقبالا كبيرا على شراء فطائرها • كما كان بالقاهرة عدد كبير من المطاعم على الطراز الأوروبى •

ثم أرباب الحرف والصنائع من النجارين والبنائين وصانعى الأقفال والسمكرية والنحاسين والصاغة وصانعى المركبات والساعات والأحذية والقبعات والخياطين لملابس الرجال والنساء • أما عن موظفى الحكومة من الأجانب ، فيقول كلوت بك انهم كانوا عام ١٨٤٠ أقل كثيرا مما يظن الناس ، وذلك حين بدأ محمد على يستغنى عن البعض لانقضاء الحاجة اليهم ، وهو ما يستنكره كلوت بك « بالنظر الى حاجة الأنظمة الجديدة الى الحرص على ثمراتها واطراد السير والتقدم ، مما يستدعى الاستمرار فى طلب العون من الأوروبيين والاسترشاد بهم » • أما عن عددهم فكان بينهم مائتا طبيب وصيدلى ، وعشرون مدربا فى الجيش ، وما بين عشرين وخمسة وعشرين مدرسا أغلبهم فرنسيون ، ثم مديرون وصناع من الفرنسيين والانجليز والايطاليين •

وقد بلغ عدد القاطنين الأجانب فى مصر فى أواخر حكم محمد على نحو عشرة آلاف من بين مجموع السكان البالغ حوالى ثلاثة ملايين نسمة • وكان أكثرهم عددا اليونانيون (٥٠٠٠ نسمة) ، فالايطاليون (٢٠٠٠ نسمة) ، فالمالطيون (الف) ، فالفرنسيون (٨٠٠) ، فالانجليز (مائة) ، والنمساويون (مائة) ، فجمع من الروس والأسبان والسويسريين

والبلجيكيين والهولنديين والألمان والدنماركيين (مائة وخمسون) ٠ وكان بالاسكندرية وحدها نحو نصف هذا العدد (٥٠٠٠ أوروبى) من بين مجموع سكانها البالغ ستين ألف نسمة ٠

وكان الأوروبيون فى مصر يقطنون أحياء أنيقة خاصة بهم ، « فحى الافرنج بالاسكندرية أرقى بكثير من بقية أحياء المدينة الآهلة بالوطنيين » ٠ وكان بالقاهرة حي خاص بالأرستوقراطية التجارية منهم من أصحاب البنوك والسماسرة ومنظمى التجارة فى منتجات مصر والهند ، هو عبارة عن شارع رئيسى يغص بحوانيت اليونانيين والأرمن (وكان عدد الأرمن وقتها نحو الفين) ٠ ويذكر الشاعر الفرنسى جيرار دو نيرفال فى كتابه « رحلة الى الشرق » أنه كان بالقاهرة فندق خاص بالفرنسيين « به بيانو وبلياردو » ، وفنادق خاصة بالانجليز يأكل نزلاؤها — شأن المسافرين فى البواخر — من معلبات الخضر واللحم دون المأكولات المصرية الطازجة ٠ وقد لاحظ نيرفال أن الأوروبيين فى مصر بوجه عام لا يعرفون البلد وأهله معرفة وثيقة ، « قد غلب عليهم السأم ، ولا يظهرون الا فى أماكن معينة تناسبهم ، ولا يتحدثون مع من هم من طبقة أقل من طبقتهم ، يسعدهم مقابلة الأوروبيين الجدد ، ولكنهم لا يجرءون على الاختلاط بالمصريين أو على مشاهدة احتفالاتهم ورقصهم، ويخشون أن يراهم الناس فى المقاهى أو الملاهى ، ولا يعقدون صلات أخوية مع عربى من العرب الكرماء الذى يهديك بدافع من شعور الود علبة غليونه ، او الذى ما أن يراك تتوقف للاستطلاع أو بسبب التعب أمام بابه حتى يبادر بتقديم القهوة لك ٠٠ وكان المصريون يدهشون لمرأى القفافيز (الجوانتيات) السوداء فى أيدى الأجانب ، ويتساءلون كيف يمكن أن يكون للمرء يدان سوداوان ووجهه أبيض ! » ٠ ثم يعلق نيرفال على نمط معيشة الأوروبيين هذا فى مصر بقوله « انه كان من الأولى بهؤلاء ألا يغادروا أوطانهم ، أما من ناحيتى فقد كنت فى مصر أحيى حياة شرقية تماما » ٠

وكان أغنياء الأجانب يتوسعون فى الانفاق والبذخ فى الأثاث والثياب وتعقب الأزياء الباريسنية ، ويقيمون الحفلات الراقصة والاحتفالات فى كل مناسبة . وكان لهم بالاسكندرية مسرحان ، أحدهما لعرض المسرحيات الفرنسية ، والآخر للأوبرا الايطالية ، بناهما هواة المسرح من الافرنج وتولوا ادارتهما . كما كان بالقاهرة مسرح صغير يتردد عليه الايطاليون والارمن واليونانيون ، ويعرض فودفيلات يمثلها فرنسيون ، ويعزف ضمن فرقته الموسيقية بعض الضباط فى جيش محمد على .

اخلاقهم

ولم يكن للاجانب حق الملكية العقارية فى مصر . ولكنهم كانوا كثيرا ما يلجأون الى الحيل القانونية التى تمكنهم من استغلال الأملاك والمصانع ، كاستخدام الأقباط فى تملك العقارات بالوكالة عنهم . ويتحدث نيرفال عن سيدة قبطية كانت تمتلك أكثر من عشرين منزلا بالوكالة عن بعض الأجانب ، ويقول ان البيت الذى سكنه فى القاهرة كان فى الحقيقة ملكا لأحد موظفى القنصلية البريطانية .. غير أنه كان للأجانب حق امتلاك الحوانيت ، يملأونها بالسلع من منتجات كافة الأقطار الأوروبية . فكان لانجلترا مكان الصدارة فيما يختص بالأصواف ، وفرنسا بالمستحدث من الأزياء ، ومرسيليا بالبقالة واللحوم المدخنة وغيرها . « وتبذل الصناعة الأوروبية قصارى جهدها لاجتذاب الأغنياء من سكان القاهرة والأتراك التقدميين والأقباط اليونانيين ، وهم الأكثر استعدادا لتقبل العادات الأوروبية . وثمة فى الموسكى مشرب بيرة انجليزى ، يقصده الناس لمقاومة مفعول مياه النيل التى تصيبهم أحيانا بالرخاوة . وهناك مكان آخر هو صيدلية كاستانيول ، ياوون اليه هربا من الحياة الشرقية ، ويستعيد فيه الأوروبيون ذكرياتهم عن الحياة فى وطنهم ، بينما يجلس الشرقيون وعلى صدورهم الأوسمة البراقة

يتحدثون بالفرنسية ويقرأون الصحف » . ويضيف نيرفال قوله ان بعض التراجمة المصريين تولد لديهم بسبب كثرة مخالطتهم للأجانب « ميل متطرف الى البيرة والويسكى » .

ويتحدث كل من كلوت بك وجيرار دو نيرفال عن الطوائف المختلفة من الأجانب فى مصر . فأما الانجليزى « فمن أشـد أفراد الجاليات الأوروبيـة حرصا على عاداته ، اذ تراه فى القـاهرة — كما فى لنـدن — لا يسـتطيع الاستغناء عن أكـل البوفتيك والروزبيف وجبن الشستر أو عن تنـاول المشروبات قوية المفعول ، ولا يأنس الا الى أبناء جنسه ، لا يختلط بغيرهم الا قليلا . وبالنظر الى صلابة أخلاق الانجليز والتزامهم الوقار فى سلوكهم والجد فى معاملاتهم ، تراهم يؤلفون هنا أسمى طبقـات الجاليات الأجنبية وأشرفها وأصونها لكرامتها » . « وهم فى مصر يلبسون قبعات مستديرة مكسوة بالقطن للوقاية من حرارة الشمس ، وغطاء للعينين لتخفيف حـدة الضـوء ، ووشاحا يحميهم من الأتربة ، وعلى معـاطفهم غطـاء خارجى من القماش المشمع لحمايتهم من الطاعون ومن الاحتكاك بالمـارة من أهل البلد . وترى الانجليزى وقد أمسك بيده من داخل القفاز بعصا طويلة يبعد بهـا عنه كل عربى موضع ريبة ، وتابعه يقذف بهؤلاء العرب يمنة ويسرة » !

أما الفرنسيون الذين لاحظ نيرفال ان الكثيرين منهم قد باتوا يقلدون الانجليز فى معيشتهم وسلوكهم ، فيراهم كلوت بك مخالفين للانجليز فى الطباع والميول ، سريعى التحمس للشىء وسريعى الملل منه . « والشرقيون يؤثرونهم بالمحبة لما جبلوا عليـه من الأدب والذكاء وحضور البديهـة والبشاشة والكياسة ، وهى طباع اذا أضيفت الى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها (أثناء الحملة الفرنسية) ، تحمل الأهالى على اختصاصهم بمودتهم » .

وقـــد اشتهر الألمـــان فى مصر بدماثة خلقهم وطيب سريرتهم ٠ أما الايطاليون فقد كانت أخلاق أهل الطبقــة الوسطى منهم - وهم كثيرون - « سببا فى القاء كثير من التهم الجائرة على عاتق الأمة الايطالية بأسرها » ٠ وأما اليونانيون فمنهم من هم من سلالة الاغريق القدماء ، يسكنون مصر منذ أمد بعيد ، وقـــد تحولوا عن لغتهم الى العربيـــة مـــع احتفاظهم بالـكثير من السمات المميزة لشـــعبهم ، ومنهم من هاجر الى مصر بعد الفتح العثمـــانى لها ، وجميعهم تقريبـــا يعملون بالتجارة ٠ وكان ابراهيم باشـــا قد أسر عددا كبيرا من الشباب اليونانى خلال حرب المورة ، فبيعوا فى مصر رقيقا ، ثم اعتنقوا الاسلام ، ووصل بعضهم الى رفيع المناصب فى الادارة والجيش ٠

معـــاملتهم للمصريين

وقد لاحظ كلوت بك فساد الأخلاق المنتشر بين الجـــالية الافرنجية ، وانتهاكهم حرمة التقاليد المصرية ، وسوء استغلالهم للحرية التى منحهـــا محمد على للأوروبيين « من فيوض مكارمه » ٠ ويقول نيرفال ان الكثيرين من الافرنج الذين التحقوا بخـــدمة الوالى اعتنقوا الاسلام ، اما عن مصلحـــة لضمان طاعة مرءوسيهم المسلمين لهم ، أو طلبا للمتعة بالنظر الى أوهـــامهم المتعلقة بلذات الحريم ، والسلطان المطلق للزوج أو للســـيد ، وفكرتهم عن النساء الفاتنات اللواتى تتضافر جهودهن من أجل اسعاد رجـــل فرد ، ثم عادوا بعد ذلك الى المسيحية حين تبددت أوهامهم ، أو انقضى أمد وظائفهم ٠

وكان الأوروبيون بوجه عام « يعاملون الشعب المصرى المسكين بازدراء جم » ٠ فقد أصبحوا الآن يقاسمون الجنس التركى امتيازاته ، وتبنوا نظرة الأتراك الى المصريين ٠ بل انه حتى الأرمن الـــذين كانوا يتعقبـــون الغزاة العثمانيين فى تنقلهم من قطر الى آخر ، واستقر بعضهم فى مصر عقب الفتح العثمانى ، تعلموا أن يعاملوا المصريين بعجرفة وصلف ، وهم الذين ذاقوا

من الأتراك كافة صنوف الاذلال والمهانة ، بل وصاروا يتحاشون الاختلاط بأهل مصر . ويتحدث كاوت بك عن مسلك الشدة والقسوة الذى سلكه الأوروبيون مع المصريين ، فيقول ان بعضهم « كان يعتبر المصريين كائنات حقيرة ليست من الجنس البشرى ، ويقول علنا انه لا ينبغى مخاطبتهم الا بالكرباج .. ولذا فان هؤلاء يحرصون عند وصولهم الى مصر على التزود بالكرابيج ، يضربون بها من غير رحمة ولا سبب معقول أفراد الحمالين والحمارين والمراكبية » . وأما السياح منهم ممن يصادفون المشاق فى رحلتهم الى مصر ، وتسوءهم صعوبة اللغة العربية ورداءة الطرق وقلة اسباب الراحة مما اعتادوه فى بلادهم ، فكانوا يكثرون من الشكوى ، ويستشعرون الكراهية لمصر والمصريين ، لا يرون الأشخاص والأشياء فى ضوء حقيقى ، ثم يتنفسون الصعداء حين تتوارى أرض مصر خلف سفينة العودة ، حتى اذا هم وصلوا الى بلادهم ، اطلقوا العنان لألسنتهم يذمون مصر واهلها ، وان كتبوا عنها كتبوا ما لا يطابق الحقيقة » .

ومع ذلك فقد كانت الامتيازات والتسهيلات التى يوفرها محمد على وحكومته لهؤلاء الأجانب ، من المقيمين والسائحين ، عظيمة لا حصر لها . فهو يحتفى شخصيا بكبار الزوار ، وينزلهم قصوره أو قصور كبار رجال دولته . وأما السياح العاديون فهم يزورون ما يشاءون زيارته من الأماكن والآثار فى راحة ويسر ، ويزودهم الوالى بكتاب توصية للانتفاع به حيثما حلوا . وكانت صيغة خطاب التوصية من محمد على على النحو التالى :

« ان صديقنا الحميم القديم المسيو .... ، وجنسيته .... ، جاء الى املاكنا ليزور المعاهد الأثرية وغيرها من الأماكن المفيدة له فى أبحاثه . وقد قدمه الينا جناب قنصله . فبناء عليه قد سلمناه فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به اثناء رحلته فى طول أملاكنا وعرضها . فعلى المديرين

والمأمورين وأرباب الحل والعقد ، ملكيين وعسكريين ، وبالجملة لكل من يقدم اليهم هذا الفرمان ، أن يعنوا بأمره ، ويهتموا بأداء الخدمات التى يروم منهم قضاءها ، حتى لا ترفع الينا منه شكوى فيما بعد ·

« ونوصيكم بعمل ما يلزم كى لا يلحقه حيف ، أو يوجه اليه شتم من الفلاحين أو غيرهم ، وان تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج اليه ، وألا يدفع ثمنا عنه الا ما يطابق السعر الجارى فى البلاد ، وذلك فيما يختص بأجر ركوب الدواب والمراكب وثمن الأغذية ··· الخ · وانى اعتبر أن الخدمات التى ستؤدونها اليه كأنها أديت الينا بالذات » ·

وكان الأجانب ان رفعت مراكبهم فى النيل أعلام دولهم ، يضمنون سلامتهم واحترام الفلاحين لهم ، خاصة ان كان العلم هو العلم البريطانى ، وهو الذى كان يستخدمه من هم من غير انجلترا طلبا للمزيد من الطمانينة ! وكانت الشرطة المصرية ان ضبطت أوروبيا متلبسا بانتهاك حرمة امراة مسلمة، نطلق سراحه غالبا دون عقوبة · ويضيف نيرفال قوله انه ، بوجه عام ، « لا يستطيع أحد فى القاهرة — غير الأتراك — مقاومة الافرنج ، وأن كل أوروبى لا ينتمى الى طبقة الصناع أو التجار يعتبر فى مصر شخصية كبيرة» ·

تأثيرهم فى المصريين

وقد كان لوجود الأوروبيين فى مصر أثره فى بعض عادات المصريين وأخلاقهم فى عصر محمد على ، خاصة الأغنياء منهم ·

فقد حرص أغنياء المصريين على استيراد فاخر الأثاث لقصورهم من الدول الأوروبية ، من المرايا والثريات وساعات الحائط ، الى آخره · وقد شغفوا بهذه الساعات شغفا شديدا حتى كان البعض منهم يعلق فى الحجرة الواحدة ساعتين أو ثلاثا ! وقلدوا الأوروبيين فى طريقة تناولهم المطعام ،

فاقتنوا صحافا كصحافهم ، واستعملوا الشـوك والسـكاكين والكئوس ٠ غير أنهـم كانوا كثيرا ما يخلطون فيتناولون الحسـاء فى صـحاف الحلوى ، ويشربون النبيذ فى أقداح الشمبانيا ، وقد يتناولون قطعة اللحم بأصابعهم ثم يغرسون الشوكة فيها ويرفعونها الى أفواههم ٠ وان أقيمت مأدبة على النمط الأوروبى ومر الخادم على المدعوين بطبق الطعام ليغرفوا لأنفسهم منه ، تناول المدعو الطبق من يد الخادم ووضعه أمامه ظانا أنه بأكمله له ! وقد كانوا قبل اتصـالهم بالأوروبيين لا يعرفون غير المـاء شرابا عند تناول الطعـام ٠ فاذا هم الآن وقد نقلوا عن الأوروبيين عادة شرب النبيذ وغيره من المسكرات ، وان كان اقبالهم عليها فى غير اعتدال ، لا يلتمسون فيها نشاطا أو فائدة ، وانما يلتمسون فقدان الوعى ٠ يقول كلوت بك : « ٠٠ ذلك أن الشرقيين لا يأخذون فى الغالب من أخلاقنا وعاداتنا كلما اختلطوا بنا سوى ما كان منها سىء العاقبة ، بعيدا عن الصواب » ٠

أما عن الملابس فلم يطرأ تغيير كبير عليها فى عهد محمـد على ، اللهم الا فى الجيش حيث بدأوا بحذف العمامة من ملابس الجنود بعد تنظيم الجيش عام ١٨٢٣ ، وتبعوها بحذف الأكمام الواسعة التى تحد من الحركة ٠ وكان ابراهيم باشا أول من استبدل الطربوش بالعمامة ، فلم يلبث جنده وغيرهم أن قلدوه ، ولبس محمـد على نفسه ملابس الجنـد التى نقلها عن ألبانيا ٠ وكان اختيار الطربوش دون القبعـة بسبب كراهية المسلمين للبس الأخـيرة واعتباره بمثابة الكفر ٠ وأما عن النسـاء فقد قصرن الأكمام فأصبحت تنتهى عند المعصمين ، وأغفلن الجبة فأضحى ارتداؤها قاصرا على المسـنات ٠ وشاع استعمال الجوارب بين نسـاء الأغنياء ٠ وقد تركن العمامة الكبيرة المرصعة بالجواهر ، وكـذا الملابس المزركشـة بالذهب ، وحل محلها نسـيج حرير الموصلين البسيط ٠

وقــد كان للحية دوما احترام عظيم عند المســلمين وغيرهم من الشرقيين باعتبارها رمزا للرجولة والقوة ٠ وكانوا يرمون من لا شــارب له ولا لحية باقبح الصــفات ، فان أقســموا بهما كان القســم يمينا لا حنث فيه ٠ غير أن محمدا عليا أمر بحلق لحى الضباط والجنود ، فاذا بعــادة حلقهــا تنتقل الى الأعيان ، خاصة عندما بدأوا يرتدون الثياب على طراز الزى العسكرى سواء كانت لهم مناصب فى الجيش أو لم تكن ٠

وعندما علم محمــد على ان لكل فرقة بالجيوش الأوروبية جوقة موسيقية خاصة بها ، وأحب الا تكون حــكومته دون حــكومات الغرب فى هذا الصدد ، استدعى الى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين أنشــأوا معهدا للموسيقى لتعليم مائتين من جنــود الجيش المصرى العزف على الآلات الأوروبية الحــانا عسكرية وغناء الأناشيد الأوروبية ! يقول كلوت بك : « انه بالرغم من أنه كان المفروض ان أسر بســماع أنغامنا العسكرية وأناشيدنا الوطنية فى البلد الذى سار فيه أبطالنا قبل ثلاثين عاما ، لم أشــعر قط بمثل ذلك الاغتباط لاستعارة المصريين لها منا ، ونقلهم اياها عنا دون تحوير ٠ فموسيقانا لا تؤثر بالمرة فى المصريين ، حتى أن نشــيد المارسيلييز الذى يعرفونه ويميزونه عن غيره من الأناشــيد الفرنسية ويسمونه بأنشــودة بونابرته ، لا يهز وترا واحدا فى قلوبهم ، ولا تنشرح له صدورهم ٠٠ وبالتالى فان مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشــيدنا الأوروبية لا تحقق الغرض المطلوب من الموسيقى العســكرية ، وهو اثارة النشاط والحماس فى الجند ٠ ولا شك فى أن الموسيقى لغة ، وارغام المصريين على سماع موســيقانا تعزف على آلات لم يألفوها ، هو كارغام امرىء على حفظ عبارات فصيحة فخمة بلغة لا يفهمها ٠٠ وعلى هذا فان المصريــين الذين يغمى عليهم سرورا اذا سمعوا الأغانى المصرية المملة ، لا يشعرون لدى ســماعهم أغانينا الا بالملل وانحراف المزاج ٠ واذا كان من الآلات الأوروبية ما يلتذون بســماعه وتبهجهم رؤيته

فهو الطبل الكبير ! .. وقد كان الأحرى والأفيد أن يستدعى الى مصر فنانون أوروبيون قادرون على فهم كنــه الموسـيقى المصرية وعبقريتها ، ليطوروها ويجعلوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الوطنية نصيب فى عزفها » .

ومع ذلك فقد ظل التأثير الأوروبى فى عادات المصريين ومفاهيمهم محدود النطاق ، وظلت الغالبية على اعتزازها بتقاليدها بل وعلى اعتقادها بتفوقها على تقاليد الفرنجة . وقد نقل لنا جيرار دى نيرفال حوارا شيقا دار بينه وبين أحد المصريين حول المرأة ، يعكس مثلا لهذا الاعتزاز :

قال المصرى : ان نســاءكم الروميات (الأوروبيات) هن للناس جميعا ولسن لكم وحدكم .. فتلك المخلوقات الحمقى يكشفن وجوههن كاملة لا لمن يريد رؤيتها فحسب ، بل وحتى لمن لا يريد رؤيتها .. لقد رأيت بعضهن فى الطريق ينظرن الى فى شغف ، بل ودفع الفجور احداهن الى محاولة تقبيلى ! وليتهن كن ممن يسر المؤمن أن يســمح لهن بتقبيل يــده ! ولكنهن « زراعة شتوية » ، لا لون لها ولا طعم . وجوه مريضة وأبدان جائعة بوسعى أن أحتوى جســد الواحدة منهن بين ذراعى ! أما من يتزوج من احداهن فلن يعرف بيته غير الحرب والشــقاء .. النســاء عندنا يعشن معا فى جانب من المنزل والرجال فى جانب ، وهو السبيل الوحيد الى الهدوء والراحة . أما نســاؤكم فيعشن مع الرجال فى مكان واحد .

قال نيرفال : ولكن ألا تعيشون مع نســائكم فى الحريم ؟

صاح الرجل : يا قوة الله ! من ذا الذى لا تحطم ثرثرتهن رأسه ان هو أقام معهن ! رجالنا يقضون أوقات فراغهم فى النزهة ، أو فى الحمام أو المقهى أو المســجد ، أو فى الزيارات والاســتماع الى القصص والأشــعار ، أو فى التدخين بصحبة الأصدقاء . وكل هذا أدعى للتسلية من الحديث مع النساء اللاتى لا يشغلهن الا الأمور السخيفة كالزينة والقيل والقال .

قال نيرفال : ومع ذلك فانتم تحتملونهن فى أوقات الوجبات ٠

رد المصرى : لا يا سيدى ٠ نحن نأكل اما بمفردنا او مع أصدقائنا ٠٠ صحيح ان بعض الرجال يأكلون مع نســائهم ، غير أن الناس لا يقرونهم على مسلكهم هذا ، كما ان شخصيتهم تتســم بالرخاوة ولا جدوى من حياتهم ٠٠ فالأحرى اذن أن يبقى أبناء كل جنس مع من يشاكلهم ٠٠٠!

سير ريتشارد بيرتون فى مصر

فى عام ١٨٥٥ ، صدر فى لنــدن كتاب بعنوان « قصة حجى الى المدينة ومــكة » لمؤلفه الايرلندى ريتشارد بيرتون ، سرعان ما احتل مكانة خاصة بين كتب الرحلات الخالدة · فهو يروى أشهر مغامرة لرحالة من أجرأ واعظم رحالة القرن التاسع عشر · كما أن الوصف الحى فيه ، والطابع الشخصى الغالب عليه ، والدراسة الدقيقة التى تضمنها للحياة والعادات العربية ولحج المســلمين ورحلة الحجاج ، وذلك المزيج الغريب من دقة الملاحظة ، والعلم الواسع ، والفكاهة ، كلها أمور تجعل من هذا الــكتاب وثيقة فــذة ، ومن قراءته متعة لا تعدلها متعة ·

ومع أنه من حق أى مسلم ـ عربيا كان أم غير عربى ـ أن يؤدى فريضة الحــج وأن يزور الحرمين ، فقد قرر بيرتون ـ حين اعتزم القيام بالرحلة ـ الا يختار طريق التظاهر بانه مسيحى أسلم · فالمسيحى الذى هجر دينه على حد تعبيره ، « لن يسلم من شك الكثيرين فيه ، ومن احتقار الكافة له » ·· وانما قرر أن يمضى الى الحــج باعتباره مســلما أصيلا ·· وقد هاجمه البعض فى بريطانيا لهذا التصرف منه ، فمنهم من قال انه أســلم بالفعل ، ومنهم من رأى من غير المقبول خلقيا انتســاب المرء الى دين لا يؤمن به ، وممارسته علنا لشــعائر قد يسخر بها فى قرارة نفسه · ورد بيرتون على منتقديه يقوله ان هذا الأمر مسألة ضمير ، وبالتالى فانه لا يخص أحدا سواه ·

غير أن الادعاء بانه مســلم أصيل كان يحمل فى طياته أخطارا جمة فالمســيحى الأوروبى الذى يعتنق الاســلام قد يغفر له المســلمون جهلــ

بالشعائر والعادات والتقاليد الاسلامية . أما من ولد مسلما فليس ثمة ما قد يشفع له أو يعتذر به ، ان تبين للناس جهله بقاعدة من تلك القواعد الجمة التى ينبغى على كل مسلم مراعاتها فى تصرفاته العادية فى الحياة اليومية ، وقد ساق بيرتون نفسه مثلا لذلك فى كتابه يتعلق بشرب الماء ، وهو أمر بسيط بالنسبة للأوروبيين ، غير أنه عند المسلم يعنى ما لا يقل عن خمسة أمور : « فهو بادىء ذى بدء يمسك بالكوب وكأنما يمسك برقبة عدوه ، ثم هو يتمتم باسم الله الرحمن الرحيم قبل أن يبل شفتيه بالماء ثم هو يفرغ الماء فى جوفه فى جرعات كبيرة ، ثم ينخر تعبيرا عن ارتياحه ، ثم يتمتم بحمد الله قبل أن يضع الكوب من يده ، « وهو حمد لن نفهمه حق الفهم الا فى الصحراء » ، ثم يرد قائلا : هناك الله ، على دعوة جليسه له بالهناء !

عنى بيرتون اذن بدراسة هذه التفاصيل والعادات قبل أن يشرع عام ١٨٥٣ فى مغامرته التى أقدم عليها مخاطرا بحياته . فافتضاح أمره كان يمكن ان يسفر عن قتله . وقد أشاع البعض عنه أنه اضطر الى قتل رجل أو رجلين اذ خامرهما الشك فى حقيقة حاله . غير أن هذا الادعاء هو على الأرجح غير صحيح ، فقد ذكر هو نفسه فى أواخر أيامه أنه لم يقتل أحدا فى حياته ، ولم يكن بيرتون بالرجل الذى ينكر مثل هذه الفعلة لو أنه ارتكبها .

ميرزا عبد الله البزاز

غير انه مما سهل على بيرتون مهمته بعض الشىء ، عشر سنوات سبقت حجه قضاها فى دراسة حياة الشرق وعاش معظمها فى الهند . لقد رزق الرجل - أو ابتلى - بروح لا تعرف هدوءا الا فى العواصف (على حد تعبير ليرمونتوف) ، وبشخصية جموح كشخصية الغجر ، لا تطيق قيدا ولا تسكن الى تقاليد . وقد ساهمت نشأته فى انماء هذه النزعة فيه . فقد قضى

شطرا من طفولته فى بريطانيا ففرنسا فايطاليا ، مما تسبب فى اضطراب تعليمه ، فلما عاد الى انجلترا للدراسة بجامعة أوكسفورد ، أدى سلوكه وتصرفاته الشاذة بها الى طرده منها • وفى سن الحادية والعشرين (عام ١٨٤٢) التحق بخدمة شركة الهند الشرقية كوسيلة لدراسة الحياة واللغات الشرقية فعين ملازما فى بومباى • غير انه لم يطق ما فرضته عليه حياة الجيش من قيود ونظام ، وثار على مفهوم الانجليز فى الهند عن الحياة التى لا تخرج عندهم عن مجرد « استعراضات لا معنى لها ، وخلافات جوفاء بين الموظفين ، ورفع المذكرات الى الرؤساء للتفضل بالنظر والإحاطة ، والخوض فى أعراض الناس » •

ومع ذلك فقد كانت السنوات السبع التى قضاها فى الهند نقطة التحول فى حياته ، وأساس انجازاته التالية • فقد نمت هناك موهبته فى تعلم اللغات ، فاتقن خمسا من اللغات واللهجات الهندية شديدة التباين ، وكذا اللغة الفارسية ، واللغة العربية التى كان قد بدأ فى تعلمها أثناء دراسته بأكسفورد ، ثم اللغتين التركية والأرمنية ، حتى بلغ عدد اللغات واللهجات التى يجيدها نحو الثلاثين •

بيد ان اتقان اللغات لم يكن عند بيرتون غير وسيلة الى غرض بعيد هو أن يظنه أهل الشرق واحدا منهم •
كتب فى سيرته الذاتية يقول :

« نادرا ما يرى الموظف الأوروبى فى الهند الأمور فى ضوئها السليم والمئات منهم يقضون مدة « نفيهم » هناك بأسرها دون أن يحضروا ، ولو مرة واحدة ، حفل ختان أو زفاف أو جنازة لأحد الهنود • أما عنى فقد أطلقت لحيتى ، وأرسلت شعرى على كتفى ، وخضبت وجهى ويدى وذراعى وقدمى بالحناء ، وأسميت نفسى ميرزا عبد الله البزاز ، بائع الأقمشة والمنسوجات ،

وبـذا استطعت أن أدخل بيوت الناس ، بل وحتى الى الحريم ، حتى بت أتلقى دعوات لا حصر لها ، وعرض على آباء كثيرون تزويجي من بناتهم • وقد مالت الى قلوب بعض الغانيات ، فقد كنت أدعى الثراء ، فان مكثت مكثت موقرا ، وان رحلت رحلت مبجلا •

« فـاما وقتى فموزع بين حـانوت أجرته ومـلأته بالعجوة والدخـان والجنزبيل والزيت والحلوى ، والمسـجد بين الطلاب وكتبهم الدينية ، داخلا فى نقاش معهم حول أدق تفاصيل العقيدة الاسـلامية ، أو فى أماكن الموسيقى والرقص ، أو فى لعب الشطرنج مع صديق لى من الهنود ، أو فى رفقة مدخنى الحشيش ومدمنى المخدرات ، أو فى زيارة خاطبة تدبر الزيجات بين المسلمين • فاجمع منها ذخيرة ثمينة من الأسرار الشخصية والفضائح العائلية » •

اكتشـاف منـابع النيـل

عاد ريتشارد بيرتون الى أوروبا عام ١٨٥٠ وقد اختمرت فى ذهنه فكرة أوحت بها اليه معاشرته لمسـلمى الهنـد ، وهى القيام برحلة حـج الى مـكة • ولم يكن حب الاستطلاع وحب المغامرة بالدافعين الوحيدين وراء الفكرة •• فقد كان المقصـد الرئيسى التمهيد لعبور الربع الخالى الى مسـقط ، فيميط اللثـام عن تلك المساحة الشاسـعة من شـبه الجزيرة العربية التى يكتنفها الغموض • غير أن هذا المشروع الذى صدقت عليه الجمعية الجغرافية الملـكية فى بريطانيا وساهمت فى تحمل نفقاته ، أحبطته نزاعات نشبت بين القبائل فى تلك المنطقة • فلم يتم منـه غير المرحلة الأولى ، وهى الرحلة الى المدينة ومـكة •

أمـا الهدف من رحلته التالية لعودته من الحجـاز • فقد كان جغرافيا محضـا • فبريطانيا تتطلع منذ أمـد بعيد الى استكشاف الصـومال ، وهو

قطر له أهمية خاصة بالنسبة لتجارة البحر الأحمر · وكان أن قبلت الحكومة البريطانية اقتراح بيرتون بأن يقود فرقة صغيرة الى ذلك البلد المجهول أبحرت من عدن فى أكتوبر ١٨٥٤ تجاه ساحل الصومال · غير أن المرحلة بالغة الخطورة والصعوبة من الرحلة ، وهى التوغل داخل البلاد الى العاصمة « هرر » ، قام بها بيرتون بمفرده ، مخلفا زملاءه الضباط الثلاثة وراءه عند الساحل · ذلك أنه ما من أوروبى - ولا حتى المبشرين الكاثوليك - بلغت به الجرأة حد محاولة دخول هذه « المدينة الرهيبة » التى اشتهرت هى وتيمباكتو بأنهما « مقبرة الرجل الأبيض » ، والتى كانت تهدد بالموت « كل كافر يرى داخل أسوارها » ·

واستغرق عبور بيرتون للصحراء الى هرر قرابة أربعة أشهر فما وصلها حتى طاب المثول بين يدى أمير الصومال ، مدعيا أنه عربى · ومظهرا للناس علمه الواسع بدين الاسلام · وقد قضى فى العاصمة عشرة أيام كان يبيت ليله أثناءها « غير واثق من طلوع شمس الصباح عليه » · وقد كتب فيما بعد كتابا عن رحلته بعنوان « الخطوات الأولى فى شرق افريقيا » يعتبر من أروع كتبه ، وأحفلها بالمعلومات الطريفة الدقيقة الشائقة ·

تطوع بيرتون بعد ذلك للقتال فى حرب القرم : « كى يرفع من روحه المعنوية » على حد قوله · فما عاد الى بلاده منها حتى كلفته الحكومة البريطانية بالتوجه الى منطقة افريقيا الاستوائية لاستكشاف منطقة البحيرات ومنابع النيل المجهولة · وقد كان ريتشارد بيرتون أول أوروبى تقع عيناه على بحيرة تنجانيقا (فبراير ١٨٥٨) · وبعد أن جال بالطرف الشمالى للبحيرة ، أصابه مرض أقعده عن اتمام رحلته الى بحيرة عظيمة سمع عنها من التجار العرب ، وخمن أنها قد تكون من منابع النيل · فتركه رفيق سفرته الكابتن سبيك

مصعدا شمالا ، حتى عثر على تلك البحيرة (بحيرة فيكتوريا) فى نفس الموقع الذى خمنه بيرتون ٠

ثم نجده بعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة يستكشف منطقة افريقية أخرى ، هى ساحل الذهب وداهومى وبينين ، تاركا اياها الى الولايات المتحدة الأمريكية فى رحلة قطع خلالها نحو ثلاثين ألف ميل ، وكتب عقبها كتابا عن طائفة « المورمون » الدينية التى حاول الانضمام اليها فرفض زعيمها طلبه حين علم بادعائه الاسلام فى الحجاز ٠

القنصل سير ريتشارد بيرتون

وشهد عام ١٨٦١ زواج بيرتون من ايزابيل أرونديل ، ثم التحاقه بوزارة الخارجية التى عينته قنصلا فى البرازيل ، فدمشق ، فتريستا ٠ وقد كان منصبه فى دمشق ، بحكم ميوله ومعارفه وتجاربه ، أنسب هذه المناصب له ، وكان وقت تعيينه هناك شديد الاغتباط بأن تتاح له فرصة العمل بين العرب ، والانغماس فى قراءة كتب التراث العربى ٠ وفى دمشق قطع بيرتون شوطا كبيرا فى ترجمته الحرفية لكتاب ألف ليلة وليلة التى تعتبر الآن اشهر كتبه كافة ٠ وقد كان أثناء رحلته فى الصومال يطرب أصدقاءه العرب بقراءته لهم من حكايات ألف ليلة — ذلك الكتاب العجيب الذى هو أشهر كتاب فى انجلترا بعد الكتاب المقدس ٠ ولا يزال الناس يرون فى تعليقات بيرتون وحواشيه فى ترجمته التى تشغل ستة عشر مجلدا بحرا من المعرفة بالثقافة العربية ، والحياة الشرقية ، وللهجات العامية عند العرب ، وعادات المسلمين وتقاليدهم ٠

وقد أنعم على بيرتون بلقب « سير » عام ١٨٨٥ أثناء عمله قنصلا فى تريستا ، وهى التى توفى فيها فى يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٩٠ فى سن

السبعين • وقد بنت له زوجته قبرا فى بلدة مورتليك ببريطانيا على هيئة خيمة من الرخام والحجارة تعبيرا عن غرام صاحب القبر بالحياة العربية ونقشت عليه بيت المتبنى :

الليل والخيل والبيداء تعرفنى
والسيف والضيف والقرطاس والقلم

وهو البيت الذى صدر به كتابه عن حجه الى مكة والمدينة •

بيرتون فى مصر

استهل بيرتون كتابه عن حجه بالحديث عن مصر التى اقام بها بعض الوقت وهو فى طريقه الى الحجاز عام ١٨٥٣ •

ويبدأ فيقول ان مصر هى أشهى غنيمة فى الشرق بالنسبة لمطامع اوروبا ، وسعيدة هى الدولة الأوروبية التى ستتمكن من الاستيلاء عليها . فهى حينئذ ستكون قد حظيت بكنز ثمين ، خاصة ان هى شقت قناة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، « وهى القناة التى منع عمر بن الخطاب عمرو بن العاص من حفرها خشية أن يفتح الطريق بذلك أمام سفن الروم الى الحجاز فتهدده » •

غير أنه يبدى أسفه اذ يرى مظاهر المدنية الغربية تنتشر فى أرض الفراعنة ، فتجعلها فى حال وسط بين الهمجية والتحضر يثير شعورا بعدم الارتياح • « ومن الغريب أن نجد نظام جوازات السفر الذى هو فى سبيله الى الزوال في أوروبا ، يطبق الآن فى مصر فى صرامة شاذة • وهى صرامة تهدف الى تحقيق هدفين : الأول ـ منع دخول المهاجرين الخطرين اليها ، والثانى ـ ابقاء رعايا الوالى فى مصر لضمان استمرارهم فى دفع الضرائب • ولم يكن عباس باشا ليقبل الا مضطرا خروج أحد رعاياه من البلاد

بل وكان احيانا يعترض على رغبة من آراد الخروج للحج » .

وصل بيرتون الى الاسكندرية فى ربيع ١٨٥٣ . « وهى مدينة لها اهمية خاصة عند المسلمين بسبب نبوءة تتوقع لها ان تخلف مكة فى قدسيتها حين تسقط مكة فى أيدى الكفرة . وستلى الاسكندرية - وفق تلك النبوءة - مدينة القيروان بتونس ، ثم مدينة رشيد فى مصر التى ستظل قدسيتها الى آخر الزمان » ! وقد تظاهر بيرتون بأنه درويش عجمى فى طريقه الى الحج ، وتزود فى الاسكندرية بكتب توصية من أصدقائه ، وبقرض مالى من مستر سام شبرد ، صاحب فندق شبرد بالقاهرة .

ولاحظ بيرتون أن الحكومة المصرية كانت قد بدأت تفقد الكثير من سلطانها وهيبتها . فبعد أن كان الأوروبيون المتهمون بالاعتداء على حق للمسلمين يحاكمون فى عهد محمد على أمام السلطات المحلية ، « لم يعد الآن لهذه السلطات حق محاكمة الأجانب ، ولا لرجال الشرطة حق دخولهم بيوتهم » . ونصح بيرتون الدول الغربية بمحاولة دفع هذا النظام خطوة أخرى الى الأمام حتى يشمل الأقباط المصريين ، بحيث يسمح لهم بتسجيل أسمائهم لدى قنصليات الدول الغربية المختلفة التى يرغبون فى التمتع بحمايتها » .

ثلاث طرق لمعاملة الموظفين المصريين

وازاء اصرار بيرتون على اخفاء هويته وجنسيته وتظاهره بأنه من الدراويش ، فقد وجد صعوبات جمة بصدد جواز سفره : « توجهت الى الضابط ، الذى أحالنى الى المحافظ ، الذى كان لى شرف الجلوس القرفصاء أمام باب داره ثلاث ساعات . تكرم بعدها احد الكتبة الطيبين باخطارى ان على التوجه بطلبى الى ديوان الخارجية لا الى المحافظ » ! واذ توجه بيرتون فى

اليوم التالى الى الديوان ، وسأل « القواس » (ضابط الشرطة) ، عن الجهة المختصة بجوازات السفر فيه ، « أجاب دون أن يتحرك منه غير ذلك الجزء من اللسان اللازم للنطق بكلمة : معرفش » !

كتب بيرتون :

« هنـاك ثلاث طرق لمعاملة الموظفين فى الشرق : الرشوة ، والسب والالحاح الذليل المثابر حتى يمل الموظف فينظر فى طلبك · والوسيلة الأخيرة هى وسيلة الفقراء · وحيث أنى وطنت نفسى على الصبر ، فقد أعدت سـؤالى وكررته مستخدما نفس الألفاظ · فاذا هو يفتح عينيه ويقول : « روح ! » غير انى لم أنصرف ، ووقفت فى هيئة الذليل أعيد السـؤال وأتوسل بأخوة الاسـلام ، حتى صـاح بى آخر الأمر : « روح يا كلب ! » · واضطررت حينئذ الى الانصراف ، اذ كنت معرضا — لو انى بقيت — لتلقى ضربة من كرباجه ، وهو ما لم يكن دمى الانجليزى يسمح بتقبله ·

« وبدأ صـبرى ينفد ، فعرضت على شرطى بعض الدخان ، ووعدته بما يعادل سـتة بنسات ان هو ساعدنى على قضاء حاجتى · عندئذ أبدى الشرطى اهتماما بأمرى ، فأخذ يـدى وصحبنى من مكتب الى مكتب ، وصعدنا سـلالم فخمة الى مكتب عباس أعندى الذى لم يرد على تحيتى ودعائى له ، والذى تفضل مع ذلك بالرد على اسـتفهامنا بكلمة : « تحت » ! وهو ما لا مفر من الاعتراف بأنه رد غامض بعض الشىء من الناحية الطوبوغرافية !

« وعثرنا فى النهاية على غرفة الموظف المختص ، فوقفت خارجها أنتظر قرابة ساعتين مع غيرى من المنتظرين ، حتى خرج الينا منها موظف بدت عليه من امارات الغضب ما خشـينا معه أن نكون قد ارتـكبنا ذنبا ما دون أن ندرى ، فاذا هو يخبرنا أن الموظف المختص غير موجود ، وأن علينا أن نعود فى الغـد » ·

واضطر بيرتون بعد فقدانه الأمل الى الالتجاء الى أحد المشـايخ من رجال العلم ، فحرر له شـهادة مزورة باسم « عبد الله بن يوسف » من كابول : فتسـلمها بيرتون وهو يـكاد يطير فرحا · « وظللت اشـكره وأدعو له : ثم مددت يـدى لاخذ يـده · ففهم ، وجعل يتمتم : « مفيش داعى ، ماله لازمة ، والله ماله لزوم ! » ، ثم مـد أصابعه وأخذ الدولارات الثلاثة ! ·· المسـكين ! انى لواثق من انها الحاجة تلك التى دفعته الى قبول أجر على عمل من أعمال الخير · فهو صاحب زوجة وعيال ، والعلماء فى مصر لم تعد لهم قيمة كبيرة » ·

ويتحـدث بيرتون عن عـادة الشرقيين نقـل مسـئولياتهم الى الغير فيقول انه اذا طلب المدير شـيئا من سكرتيره ، وجد السكرتير نفسه مشغولا لدرجة تجعله يكلف مرءوسـا له بالقيام بالمهمة · غير أن المرءوس يجد الجو حارا لدرجة تجعله يوفد أحـد الـكتبة لتولى الأمر ، فيكلف الـكاتب البواب بالذهاب · غير أن البواب يسـتمر فى الجلوس فى مـكانه وقد غلب عليه النعاس ، آملا أن يجنبه الله سـوء العاقبة ، غير انه - فى نفس الوقت - ثابت العزم ، صـادق النية على الا يتحرك شـبرا ولو انطبقت السـماء على الأرض ·

الـكيف

وفى القـاهرة ، سكن بيرتون فى وكالة الجمـالية حيث تعرف بالحاج ولى الدين الذى كان يسكن فى غرفة مجاورة ، والذى بات يقضى الأمسيات معه اما فى الجامع للصـلاة ، أو فى الوكالة لتدخين الحشيش · يقول بيرتون : « والمعروف أن مصر تفوق كافة الدول الأخرى بصـدد تنوع أصناف هذا المخدر المدهش · وربما جاء اليوم الذى تصـدر فيه مصر الحشيش الى أوروبا

حين يكتشف الغربيون مزايـاه • أما اليوم فبيعه فى أوروبا مقصـور على الصـيدليات ، شأن الكونياك فيما مضى » •

ويعرف بيرتون « الـكيف » عند العرب بانه ذلك الاستمتاع السلبى بالحواس وبالوجود الحيوانى وحده •• « انه ذلك الاسـترخاء اللذيذ والطمأنينة الحالمـة اللذان يعنيان لدى الشرقيين ما تعنيه الحياة النشـطة الزاخرة لدى الاوروبيين الذين لا يجـدون السـعادة الا فى ممارسـة قواهم العقلية او العضلية • « أما فى الشرق فان الانسـان فى غير حاجة الا الى الراحة والظل ، على ضفة جدول رقراق ، أو تحت شـجرة وارفة الظلال ، يسـعد بتدخين غليونه ، أو باحتسـاء قهوته ، أو يشرب قدحا من الشربات ، لا يكلف جسـمه أو عقله الا القليل ، ولا يعكر صفوه النقاش ، أو بغيض الذكريات ، أو اعمال الفـكر الذى ينغص عليه الكيف • فلا غرابة اذن فى أن أجدنى عاجزا عن ترجمة كلمة (الكيف) الى لغتنا » •

ويقضى بيرتون جانبا من وقته فى القـاهرة ـ وهو فى انتظار حلول موعـد سـفره الى السـويس للابحـار ـ وهو يطوف بالمقـاهى والحمـامات والحوانيت • « فأما التسوق هنـا فعملية تتطلب منك الجلوس الى البائع داخل الحانوت أو خارجه ، تدخن وتحتسى القهوة وتعبث بحبات سبحتك فترة حتى يفهم الكافة انك لست من أولئك العبيـد الذين يقلق بالهم مرور الوقت ، حتى يفهم البـائع أن صبرك أطول من صبره ، وانك على استعداد لاطالة أمـد المساومة فى ثمن السلعة •

٢٠٠ بيضـة بقرش

فأما عن تـكاليف المعيشـة فى مصر فى ذلك الوقت ، فان ريتشـارد بيرتون يورد القائمة التالية لنفقاته ، ملاحظا أنه لم يكن بالمقتر على نفسه ،

وانه كان أجنبيا يقيم بالوكالة ، بينما كان باستطاعة المصرى أو الأجنبى الذى قضى فى مصر فترة طويلة أن يوفر نحو ثلث التكاليف المذكورة فى القائمة :

قيمة ايجار الغرفة فى اليوم الواحد .. ربع قرش .

أجرة الخادم فى اليوم الواحد .. قرشان وربع قرش .

عشر بيضات .. واحد على عشرين من القرش .

بن .. واحد على عشرة من القرش .

بطيخة .. قرش .

أربعة أرغفة من الخبز .. خمس قرش .

رطلان من اللحم .. قرشان وخمس القرش .

خضروات .. خمس القرش .

أرز .. واحد على عشرين من القرش .

زيت وزبد .. قرش .

دخان .. قرش .

حمام ساخن .. قرش .

قربة من مساء النيل .. ثلاثة قروش وخمس قرش .

المجموع اثنا عشر قرشا ونصف قرش أى ثلاثة جنيهات وثلاثة ارباع الجنيه فى الشهر .

وسع السكة ووحد الله

ونصل الى اسماع بيرتون وهو فى حجرته بالوكالة اصوات مختلطة . « فالجميع يتكلمون فى وقت واحد . والكلام فى مصر اما همس أو صراخ وتصحبه عادة حركات عنيفة من اليدين والجسم كله يبدو معها المتحدث (فى عين الاجنبى) وكأنه غاضب يتشاجر . وجميع النداءات والصيحات فى الشارع من طبقة السوبرانو . وكثيرا ما نسمع فلاحا يصيح بالشرطى .

« فى عرضــك .. فى عرضــك » ، بينما ينهال عليه الشرطى بالضرب وهو يسوقه الى القسم ، ووراءهما لفيف من النســوة يصرخن : « يا دهوتى ، يا مصيبتى ، يا ندامتى ! » . فان مرت بالطريق عربة أحد الأثرياء ، فأمامها يعــدو خادمه وهو يحمل على كتفه مشــعلا ضخما ، وفى يده عصا ، يصيح بالمــارة وهو يلهث : « أوعى يمينك ! أوعى شمالك ! أوعى وشك ! أوعى ضهرك ! صلى على النبى وفسح الســكة ! » فيرد المــارة من المسلمين الطيبين . « اللهم صلى عليه » ويلجاون بسرعة الى جدران المنازل فرارا من العصــا .. وهــذا صبى يركب حمــارا وينهــال عليه ضربا طول الطريق : « يــا ابن الأعور ! » ، هكذا يسب حمــاره بأعلى صوته .. « وسع الســكة ووحــد الله ! » ، هكذا يصيح الســقاء حاملا على ظهره من قرب المــاء ما ينوء بحمله الثور . ويصــيح بائع الشربات : « اشرب ليموناده وروق دمك » ، مصدرا الأنغام من أكوابه النحاسية .. « جيب الحلوة وخــد المليان » وهى صــيحة صاحب المقهى الأرناءوطى . والحلوة هنا هى النار التى يتشاءم المسلمون من النطق باسمها ، بينما يعنى بالمليان فنجان القهوة الفارغ ... ثم يأتى دور الشــحاذين : « عشــانا عليك يا رب .. هنيالك يا فاعل الخير » ، وقد يكون فى حافظة أحدهم من المــال ما يزيد على ما فى حافظة التاجر ميسور الحال .. « ينعــل أبوك ابن وســخة » ، هكذا يصــيح اليونانى وقد مسته عصــا شحاذ أعمى .. « على الله ، على الله .. امشى يا بنت » ، بينما تمسك الشــحاذة « البنت » التى جاوزت الستين بيــد الأفندى فلا تتركها الا ان أعطاها شيئا .. ويلاحظ هنا كثرة الأوصــاف التى تنادى بها المرأة : فهى تنادى بيا ست ، ويا حاجة (تنطق يا حجة) ، ويا عروسة ، ويا بنت (حتى لو كانت فوق الخمسين) . وهى تنادى فى الشــام والحجاز « بالمرة » غير انك ان حاولت أن تناديها بيا مرة فى مصر ، فانها ترد عليك على الفور بقولها . « مرة فى عينك » أو « الله يقطع قلبك » .

ويتحـدث بيرتون عما وصفه ادوارد لين قبله فى كتابه عن مصر بانه أسـوأ صفات المصرى ، وهو الجحود ونكران الجميل ، فيقول انه لا ينبغى استنكار هذه الصـفة دون محاولة معرفة السبب : « فالشرقى يرى لنفسه حقا فى الفائض لديك • وهو ان آكل الفائض لديك من الخبز مثلا اعتبر هذا الخبز حقا له ولن يشعر بالامتنان لك • فان أديت له معروفا فانما أديت واجبك • وهو لن يشـكرك ، وانما سيكتفى بالدعاء لك أن يطيل الله عمرك أو يزيد ثراءك ، أو يعلى مراتبك » •

فطـومة

ويرحـل بيرتون الى السويس كى يستقل الباخرة من هناك ، فيقيـم بغرفة فى « فندق جورج » ، « تغطى أرضـها الصراصير ، وجدرانها النمل ويعج هواؤها بالذباب والباعوض •• الحمام على الرفوف ، والقطط تدخل كالنمور من فتحة الباب ، وأحيانا تدخل على معزة أو حمار ، حتى اذا ما وجدا الغرفة مشـغولة تراجعا فى وقار ! وبعد محنة اليوم الأول قررت والشيخ نور والولد محمد أن تقضى ساعات النهار فى أحد ممرات الفندق ، راقدين على حقائبنا ، ندخن او نتجادل او ينظر احدنا فى امتعة الآخرين • وكانت هذه التسلية الأخيرة مصدر نزاعات جمة بيننا ، اذ ليس ثمة ما هو أكثر شـيوعا عند العرب من أن يمسك احدهم بشىء يملكه صديقه ، ويقسم بلحية النبى انه معجب به ، فلا يعيده اليه ••

« وكنا نقابل أحيانا فى تلك الممرات جماعة من النسـوة المصريات اللواتى كن يشغلن مع أزواجهن أو عائلاتهن غرفا مجاورة لغرفنا • وقد لجأن فى بادىء الأمر الى السب الغليظ عندما كنت أنا والولد محمد نحوم حولهن ، موجهين اليهن بعض الدعابات • غير أنهن ما علمن انى « حكيمباشى » ، حتى اكتشفت كل منهن عندها مرضـا ، وجاءت تلتمس عندى الدواء له ، بشرط

أن اجرب الدواء فى نفسى أولا . وقد تبع ذلك بينى وبينهن نوع فــج من المغازلات ، استخدمنا فيه صريح العبارات خاصة مع أجملهن طرأ ، وهى امرأة ســمينة تدعى فطومة ، فى حوالى الثلاثين ، شغوفة بالمغازلة ، ولها لسان ذرب كسائر نساء مصر . وكان الحديث بيننا على المنوال التالى : « اتجوزينى يا فطومة .. يا بنت .. يا حاجة » فتجيب مع هزة من ردفها وأخرى من راسها : « موش ممكن ، ده أنا مخطوبة يا شاب » . واقول لها ان امرأة مثلها يمكنها احتمال ثلاثة أزواج على أقل تقدير .. ثم نتــكلم عن المهر ، واسخر فى حديثى من رخص اسعار النســاء فى مصر ، معلنا استعدادى دفع عشرة شلنات مقابل الزوجة الواحدة ، فتضــحك فطومة لوقاحتى ، او تتظاهر بالغضب من ملاحظاتى ، فتمد اصــبعها كى « تخزق عينى » ، أو تدعو الله أن « يقطعنى » . ثم نعود من جديد الى :

« اتجوزينى يا فطومة .. يا حاجة .. يا بنت ستين فى سبعين .. يا ولية .. وهــكذا ! » .

التيارات الفكرية فى مصر فى القرن العشرين

١

البدايات

فتح العرب مصر عام ٦٤٠ م فانفصمت بفتحهم عرى صلاتها بالامبراطورية البيزنطية ، واضحت جزءا من دار الاسلام . غير أن تحول المصريين الى مسلمين يتكلمون العربية كان من البطء بحيث نجد الرحالة الجغرافى المقدسى البشارى يتحدث عنهم بعد أكثر من ثلاثة قرون باعتبار أن غالبيتهم من القبط . أما انتشار اللغة العربية بينهم فكان على نطاق أوسع نسبيا من انتشار الاسلام ، اذ كان الالمام بها شرطا للالتحاق بوظائف الدواوين منذ عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وبوسعنا أن نعزو بطء انتشار الاسلام الى أن مصر لم تكن كالشام والعراق مقرا للخلافة ، وانما كان يحكمها ولاة من قبل الخلفاء ، وكان هؤلاء الولاة أحرص على استمالة القبط وضمان ولائهم منهم على نشر الدين .

واهم من ذلك أنه منذ عام ٨٦٨ م ، حين استقل الوالى التركى احمد ابن طولون بمصر عن الخلافة العباسية ، تتابعت فيها سلسلة من حكام الأسر المستقلة عن سائر العالم الاسلامى (الطولونية فالاخشيدية فالفاطمية) ، كما احتفظ الأيوبيون والمماليك باستقلالهم مع اعترافهم بالهيمنة الاسميه للخليفة العباسى . وقد كان استقلال هؤلاء الولاة يحتم عليهم الحرص على رضا الرعية وتجنب الاصطدام بعقيدتها ، لاعتمادهم على أفرادها اعتمادا

كابيا فى تزويد خزانة الدولة بالمال ، وجيشها بالرجال • ولذا شهدت مصر فى عهد هذه الأسر ما لم يشهده أى قطر اسلامى آخر من كثرة تولى النصارى واليهود فيها أرفع المناصب الحكومية • كما أدى هذا الوضع الى عزلة المصريين نسبيا عن مختلف التيارات الدينية والتطورات السياسية التى شهدها سائر العالم الاسلامى ، خاصة حين بات المذهب الشيعى مذهبا رسميا للدولة خلال حكم الفاطميين ، وهو الحكم الذى دام قرابة قرنين ، وجلب للدولة عداوة ضارية من جيرانها •

فلا غرو اذن أن تصبح لثقافة مصر ، حتى بعد أن أضحى المسلمون غالبية سكانها ، ذاتية خاصة بها ، مميزة لها ، وأن يجرى تطورها على نسق لا تشترك معها فيه دولة اسلامية أخرى ، وأن يسير تاريخها على نمط يختلف اختلافا بينا عن نمط تاريخ العراق مثلا أو تاريخ المغرب • وقد زاد من انفراد مصر بذاتيتها أنها لم تتلق ما تلقته الأقطار الأخرى من ضربات قاصمة ، كالتى حلت بالمغرب على أيدى القبائل البدوية ، وبأسبانيا على أيدى المسيحيين ، وبالعراق والشام على أيدى المغول •

غير أنه لا مفر من الاقرار بأن الحكم العثمانى لمصر قد أضعف الى حد ما من هذه الذاتية ، وزاد من ارتباط مصر بالدولة الاسلامية وبمصيرها والتقلبات الطارئة عليها • لكن هذا لا يعنى نمو الطابع الدينى الاسلامى لها • فقد انتشرت بين العامة صنوف الانحلال الخلقى والدعارة والاستخفاف بتعاليم الاسلام ، فى حين أبدت هذه العامة همة عظيمة تفوق همة أى شعب مسلم آخر من أجل اعادة تفسير المظاهر الوثنية لدياناتها القديمة ، من فرعونية وقبطية ، تفسيرا اسلاميا ، وهى المظاهر التى أرادت الابقاء عليها والاحتفاظ بها • واذ ظل المشايخ والفقهاء يكفرون اختراع الطباعة طوال الحكم العثمانى لمصر باعتباره بدعة ، فقد ظل النهل من التراث الفكرى

الاسلامى قاصرا على فئة محدودة للغاية من بين أبناء المجتمع الأمى ٠

وعلى ذلك يمكن القول بأن المعالم المميزة لمصر العثمانية كانت كالتالى : نمو الاحساس بالارتباط بدولة اسلامية كبرى ، مع ضعف مقابل فى الاحساس بالمصرية، وخلو الأذهان من أية فكرة تتعلق بقومية أو هوية عربية، والمام جد ضعيف بالتراث الفكرى الاسلامى ، وجهل مطبق بأحوال الفرنجة ، مع وجود اقلية مستذلة من الاقباط فى عزلة سياسية شبه تامة عن مجريات الأمور ، وعزلة اجتماعية عن الغالبية من المصريين المسلمين ٠

٢

القرن التاسع عشر

مع الحملة الفرنسية فحكم محمد على ، دخل الحياة المصرية عنصر جديد هو التغريب ، تبعه صراع بين النظم الوافدة والمستحدثة وبين التقاليد الراسخة ، لا بين تلك النظم وبين العقيدة الدينية ٠ وقد زاد من حدة المشكلة تبنى محمد على لنظامين متباينين للتعليم : نظام تقليدى قديم ترك على حاله دون اصلاح ، يبدأ بالكتاب فى القرية وينتهى بالأزهر فى القاهرة ، ونظام جديد له مدارسه التى تؤهل خريجيها لتولى المناصب المرموقة فى الدولة ، والتى انشئت ووضعت مناهجها على غرار معاهد العلم الاوروبية ، فكانت لا تولى الدين وعاومه العناية الواجبة ٠ وهنا بدأت تظهر فى مصر تلك الهوة الهائلة بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ، وذلك الاختلاف الواضح بين المشايخ وسواد الناس ، (سواء فى الزى او نمط المعيشة أو العادات الاجتماعية أو أوجه التسلية او حتى لغة الحديث) ، وبدأت المدارس الجديدة تخرج جيلا بعد جيل ممن قد فرغوا تفريغا من كل ما يصلهم بماضيهم ودينهم وتقاليدهم ، قد فقدوا كل اهتمام حقيقى عميق بالدين ، فان اقبلوا عليه كان اقبالهم راجعا فى المقام الأول اما الى أسباب

شخصية ، أو الى بيئة يغلب التدين عليهـــا ، لا الى طبيعة تعليمهم • وزاد الطين بلة ذلك الضعف المتفاقم فى لغتهم العربية التى ضعف اهتمام المدارس بها ، فانقطعت الصلة أو كادت بينهم وبين تراثهم الفكرى •

وباقبال الخديو اسماعيل على اقتباس مظاهر المدنيـــة الأوروبية ، ثم الاحتلال البريطانى لمصر ، وازدياد الاحتكاك بالأوروبيين فى قارتهم ذاتها ، عرف المصريون ضروبا جـــديدة من التوتر ، واضطربت النفوس وتحيرت ، وظهرت فى البناء الاجتماعى القديم شقوق سرعان ما انبرى المفكرون يسدون النصائح المتباينة بصددها • فمنهم من رأى الاطاحة بالبناء القـديم بأسره والشروع فى اقامة آخر مكانه ، ومنهم من أشار بالاستعانة باحجار جديدة لسد الشقوق فى الجدران القديمة ، ومنهم من تساءل عن امكان اقامة البناء الجديد على الأساس القديم • غير أنهم جميعا كانوا مع اختلاف وجهـــات نظرهم ، متفقين على حقائق ثلاث : أن الأوضاع فى مصر قد تدهورت ، وأن كيانها بأسره فى خطر ، وأنه قد بات من المحتم الاسراع بايجاد حل •

فأما تلك الثلة من خريجى المدارس الجديدة ، فقد رأت الحل فى المزيد من التغريب واقتباس النظم الأوروبية • وقد رحب القبط ترحيبا عظيمـا بهذا الاتجاه ، وببزوغ فجر علمانية رأوا فيها بصيصا من الأمل فى تحسن أوضاعهم ، وبظهور بوادر نزعة « مصرية » كانت ضعيفة فى البداية ثم أخذ عودها يشتد نتيجة نزوع محمد على الى الانفصـــال عن الدولة العثمانية ، ووهن الصلة بين مصر والآستانة حتى فى عهد خلفـائه • وقد كان الشيخ رفاعة الطهطاوى حامل لواء هذا الاتجاه ، وهو اتجاه تغريبى وطنى فى آن واحد • فمن بين ما اقتبسه الطهطاوى من الأفكار الأوروبية ، فكرة الوطنية الاقليمية المباينة فى طبيعتها لمبدأ الولاء لأمة اسـلامية أكثر شمولا • وكان الشق الثانى من دعوته هو بيان عدم تناقض روح الشريعة الاسلامية مـــع

القوانين العلمانية الأوروبية ، والقول بأن كل ما هو تقدمى مفيد من الأنظمة الأوروبية سنجد له صدى وجـذورا فى الديانة الاسلامية لو أننا دققنا النظر ، وامعنا فى البحث • وبالتالى فانه لا ينبغى أن تكون هـذه الديانة عائقا عند البعض يحول دون تبنى هذه الأنظمة •

وسواء كان بوسع الطهطاوى أم لم يكن بوسعه التنبؤ بالآثار البعيدة لشقى رسالته ، فقد أدى تبنى آرائه فيما بعد على نطاق واسع الى مزيج من الحيرة والاضطراب والتناقض • فقد يكون حب الوطن من الايمان ، غير أنه لا بد معه من مساواة بين أبنائه مع اختلاف عقائدهم الدينية ، ولا بد من اشتراكهم جميعا فى الدفاع عنه ، وبالتـالى لا مفر من أن تستبدل بفكرة الجهاد فى سبيل نصرة الاسلام ، (وغالبا ما سيكون الجهاد ضد محتلين من النصارى) ، فكرة الجهاد دفاعا عن الوطن ، وطن المسلمين والنصارى معا • وكان لابد ازاء هذا من شـيوع النظرة العلمانية التى تفصل بـين الدين والدولة •

وقد عرقل من انتشار هذه المفاهيم الجديدة بعض الوقت تفـاقم نفوذ الدول الأوروبية فى مصر ، ثم احتلال البريطانيين لها • فقد ظهرت مقاومة لهما استخدمت الدين سـلاحا ، وهى مقاومة باركتها وشـجعتها حـكومة الآستانة العاجزة عن الحيلولة دون تحقيق الدول الأوروبية لمـآربها • وكانت وسيلة هذه المقاومة تأكيد الطابع الاسـلامى للدول العثمانية ، ثم دعـوة السلطان العثمانى الى تنصيب نفسه خليفة للمسلمين كافة سواء كانوا من رعاياه أو من رعايا الدول الاستعمارية • وقد لقيت هذه الدعوة الى الجامعـة الاسلامية تأييد جيل أو جيلين من المسلمين فى مصر • أما الأقبـاط الذين كان التأثير الثقـافى الأوروبى فيهم أقوى من تأثيره فى المسـلمين ، فقد تفاوت رد الفعل لديهم تجاه هـذا التيار ما بين الخشية والنفور وعـدم

الاكثرات . ذلك أن استعانة سلطات الاحتلال البريطانى بهم فى الوظائف العامة على نطاق أوسع من ذى قبل ، وضغط هذه السلطات من أجل تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين ، أديا الى أن أصبح تعاطف الغالبية من القبط مع أوروبا المسيحية ، أشد من تعاطفهم مع الشرق المسلم .

تبنى جمال الدين الأفغانى وعدد من تلاميذه فى مصر فكرة الجامعة الاسلامية . وبتأثير من أفكار الأفغانى تردد الشيخ محمد عبده فى قبول الشق الأول من دعوة الطهطاوى الخاص بالوطنية المصرية اذ ارتآه سينتقص حتما من الولاء الدينى للأمة الاسلامية . أما الشق الثانى من الدعوة ، فقد أصبح محمد عبده أبرز الدعاة له دون منازع . فعن التساؤل عما اذا كان من شأن الاخذ بأساليب الحضارة الأوروبية ضياع الهوية والتقاليد والعقيدة الدينية ، أجاب فى ثقة بالنفى ، وبأنه ليس ثمة تناقض بين الاسلام الحق وبين الكثير من مظاهر تلك الحضارة ، وأنه لابد من أجل تقدم الأمة من التوفيق بين هذا الدين الذى يمثل السبيل الأمثل فى الحياة ، وبين أساليب الغرب التى لا يثبت تعارضها مع أحكام الاسلام .

والى جانب تيار التغريب ، وحركة الجامعة الاسلامية ، والدعوة الى الوطنية المصرية ، ظهر فى أواخر القرن التاسع عشر تيار رابع ، بدأت الدعوة اليه واهنة مترددة بعض الوقت ، ثم نمت وغلظ عودها فى القرن التالى . فقد لاحظ رعايا الدولة العثمانية ، خاصة من المسيحيين العرب الكارهين لها والرازحين تحت نير حكومتها ، أن البلغار واليونانيين والصرب والأرمن قد شرعوا ، من أجل نيل استقلالهم عن الدولة ، فى تأكيد أهمية العنصر العرقى . وسرعان ما طلع بين ظهرانى العرب من الدعاة من انبرى هو الآخر للتركيز على أهمية العرق واللغة والقومية العربية ، ويلمح الى ضرورة فصم عرى رابطة مع الترك العثمانيين مجحفة بالعرب وحقوقهم ،

وتمثل عائقـا دون تطورهم ونهضـتهم • واذ كان الـكثيرون من المثقفين المسيحيين فى الشام من معتنقى هذه الفكرة ، قد فضـلوا الهجرة الى مصر التى وفرت لهم سلطات الاحتـلال البريطانى فيهـا قدرا أكبر من الحرية والحقوق ، فقد نجحوا فى بذر بذور هذا التيار الرابع فى مصر ، وان كان نموه واثماره قد تأخر أمدا طويلا نسبيا • ويكفينا هنا أن نذكر أنه ممـا ساعد على بزوغ هـذا التيار ، ما أسفر عنه تأسيس محمد على للمطبعـة الأميرية فى بولاق من التوسع فى طباعة ونشر كتب التراث العربى • وامتداد قاعدة المطلعين عليه من بين المتعلمين الذين كان من الصعب عليهم فى المـاضى اقتناء المخطوطات أو نسخها •

ثم نمضى الآن فنتتبع نمو هذه الاتجاهات فى القرن العشرين •

٣

القرن العشرون

اولا : المصلحون الاسلاميون من دعاة التوفيق

لا مفر من الاقرار ، قبل التوغل فى دراسة الصراع الأيديولوجى فى مصر بين أنصار هـذه التيارات الفكرية ، بأن ظروف المجتمـع وتطوره ، واتجاهات الجماهير العريضة بمصالحها ومطامحهـا ، أعمق أثرا فى توجيـه المجتمع من آراء الكتاب والمفـكرين الذين كثـيرا ما تكون نظرياتهم تعبـيرا ودفاعا عن تبنى سواد الناس لحلول ليس بوسع أحد أن يحول دونه • ولا شك فى أن تفضيل المؤرخين وعلماء الاجتماع للاعتماد على كتابات المفكرين ، دون توجهات الجماهير ، فى تعرضهم ودراستهم للتيارات السائدة فى مجتمع معين ، ومبالغتهم فى تقدير أهمية تأثير تلك الـكتابات ، همـا من قبيـل الاستسهال لا غير ، حيث أن الأمر لا يتطلب أكثر من دراسة نصوص • ومع

ذلك ، فإن هذه الحقيقة لا تنفى قيمة أو تأثير التعبير والصياغة فى شد أزر الاتجاهات ، وتشجيع أصحابها على التمسك بها ، بايجادهما سندا لها من المنطق والعقلانية والمبررات ٠

لقد أدى ما لمسه المصريون على اثر اتصالهم بالمدنية الغربية ، (عن طريق الاستعمارين الفرنسى فالبريطـــانى لبلادهم ، ورحـلات مثقفيها الى أوروبا للدراسة وغير الدراسة) ، من تفوق الغربيين المسيحيين فى مضمارى السلاح والحضارة ، الى تطرق الشك الى نفوس البعض فى عقيدته ، وزعزعة علاقة الكثيرين بما توارثوه من تقاليد وأنماط عيش ، وشعور الغالبية بالحاجة الملحة الى التقريب والملاءمة بين هذه التقاليد وبين الأحوال الجـــديدة التى وجدوا أنفسهم فى ظلها على نحو شـــبه مفاجىء ٠ وقـــد كان من المؤسف أن تجىء جهود المفكرين الاسلاميين المجددين الساعية الى التوفيق بين عقيدتهم وبين مطالب الحضارة الغربية ، فى الوقت الذى تضاءلت فيه ثقتهم بأنفسهم ، وغلب على نظرتهم الى الأوروبيين احترام ورهبـــة مبالغ فيهما ٠ لذا لم يكن غريبا أن يتسم فكرهم بنزعة عقلانية هى نزعة أوروبية محضة ، وأن يتبنوا قيما كلها أو جلها من قيم الغربيين المستعمرين ٠ بل انه حتى فى تصديهم للدفاع عن الاسلام ضد دعوة المبشرين وحملات المستشرقين الطاعنين فيه ، تركز الدفاع على محاولة ازالة شـــبهة منافاة تعاليمه لمقتضـــيات الحضـــارة والتطور ، واثبات مرونة الأحكام الاسلامية وسهولة مسايرتها لحاجات البشر المتغيرة باختلاف الزمان والمكان ٠ وقد اكتشف هؤلاء شبها قويا بين الاسلام « الحق » وقيم السلف الصـــالح ، وبين القيم الغربية الحديثة ٠ فالاســـلام يخاطب العقل ، بدليل أنه لم تكن لنبيه معجزة غير القرآن ٠ وقد أبطل عمر قطع يد السارق عام الرمادة ٠ والقراءة المتعمقة للقرآن تهدينـــا الى أنه فى حقيقة الأمر غير مرحب بتعدد الزوجات ٠ وقد أوصى الاسلام بمساواة بين الجنسين ، وحرر المرأة ، وبعث الميل الى العلم ، وجعل النـــاس سواسية

كأسنان المشط ، فأذاب الفوارق بين الفقراء والأغنياء ، ودعا الى العناية بالصحة وأساليب العمران . ولا يقف بين المسلمين وبين النهضة غير حوائل زائفة فى امكانهم ازالتها باصلاح نظام التعليم ، وتطهير الاسلام مما علق به من شوائب عبر القرون ، واعادة صياغة العقيدة الدينية على ضوء الفكر الحديث ، والعناية بدراسة العلوم الحديثة وتاريخ أوروبا للتوصل الى معرفة سر تقدمها .

فعماد دعوة الشيخ محمد عبده وتلاميذه اذن هو أن يأخذ المسلمون من المدنية الغربية ما يناسب ، ومن الاسلام ما يناسب . فعقدة العقد فى موقف المسلمين اليوم هى التوفيق بين الاثنين . غير أن المسلمين لحسن الحظ ليسوا مخيرين بين التمسك بدينهم وبين الاستفادة من الحضارة الغربية كما يدعى البعض . فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين ، وانما على العلم والتجربة والاختبار . وهى بالاضافة الى هذا محدودة بحدود المادة . فليس هناك ما يمنع من أخذ المدنية الغربية المادية بعد صبغها صبغة روحانية اسلامية . والحق أن الاثنين ليسا متخاصمين بطبيعتهما ، وانما هما متخاصمان من سوء فهم أبناء الحضارتين ، وبالامكان توثيق العلاقة الودية بينهما ، واستعانة كل منهما بما عند الآخر من مزايا . فخير للعالم الاسلامى اليوم أن يأخذ من المدنية الغربية كل علمها وتجاربها فى الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم ، من غير قيد ولا شرط ، ثم يحتفظ بعد ذلك بروحانيته التى يلون بها هذا العلم ، فتجعله موجها لخير الانسانية ، لا لغلو فى كسب مال ، ولا لافراط فى نعيم ، ولا للقوة والغلبة ، ولكن للخير العام . وانما بزت أوروبا الشرق المسلم فى مضمار الحضارة ، لا لأنها مسيحية ، وانما لعنايتها بتطوير العلوم واهمال المسلمين لها . فلو أن الشرق استوعب علوم الغرب واستخدمها فى استغلال ثرواته ، فان يكون

من الصعب عليه اللحاق بأوروبا • وليس فى الاقبال على التعلم من الغرب من بأس ولا هو مدعاة للخجل ، فانما كان الفضل فى نهضـــة العلوم فى أوروبا راجعا الى استفادتها من النقل عن المسلمين الذين عنوا بالحفاظ عـلى تراث الاغريق وتطويره وتنميته • وقد حث الاسلام نفسه على طلب العلم ولو فى الصين • ولا شيء يمنع المسلمين من ذلك الا تمسكهم بتقاليد موروثة بالية ، وتقديسهم للعادات المـألوفة ، ودينهم براء من هذه العادات والتقاليد التى يسهل التضحية بها فى سبيل حاجات المدنية ومقتضيات العمران •

تلك هى خلاصة دعوة المصلحين الاســلاميين من دعاة التوفيق ، قد عبروا بها عن الاتجاهات القائمة بالفعل لدى طبقة المتعلمين المتزايد عددهم من سكان المدن ، وهم الأكثر احتكاكا بمظاهر المدنيــة الغربيــة التى أقبلت السلطات على التوسع فى الاقتباس منها • وبقدر ما أبهجت هـــذه الدعوة المطربشين المتفرنجين من المسلمين شديدى الرغبة فى صياغة عصرية للعقيدة الاسلامية ، ابهجت المستعمرين البريطانيين اذ رأوها فى مجملها دعوة مقنعة الى التغريب ، والى فتح الباب على مصراعيه أمام الاقتباس من مدنية الغرب دون حرج ، وسرهم بالأخص أن يحمل لواءها عدد من رجال الدين البارزين الموقرين من أمثال الشيخ محمد عبده الذى كان لورد كرومر يكن له الاحترام الشديد ويعلق عليه الآمال • وانه لمن الشيق حقا أن نقرأ فى العدد الأول من مجلة « العروة الوثقى » تحديدا لأهداف المجلة ، ومن بينهــا الدعوة الى التمسك بمبادىء السلف المماثلة فى واقع الحـــال لمبادىء الدول الأجنبية القوية المتقدمة !

فهنا اذن احساس بتفوق الغرب ، وادراك لضرورة الدفاع ، واعتراف بصحة الأسس التى تقوم عليها حضارة الدول الأوروبية تضمنته الاشارة الى الشبه بينها وبين مبادىء الاســـلام ، وهو أكثر صنوف الاطراء والمديـح

اخلاصا . وقد شكا المبشرون المسيحيون من أن هؤلاء المصلحين الاسلاميين انما يتبنون الأفكار والقيم المسيحية ، ويسعون الى تشييد صرح اسلام جديد « مسيحى » ! غير أن الواقع أنهم لم يتبنوا القيم المسيحية ، وانما نسبوا الى الاسلام القيم الليبرالية الانسانية البورجوازية التى عمت أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وهى قيم غير مشتقة عن المسيحية .

والحقيقة التى يصعب المراء فيها أن الكثيرين اليوم ممن يظنهم الناس ، أو يظنون أنفسهم ، من المواصلين لرسالة الشيخ محمد عبده ، لا يعرفون غير القليل عن الاسلام الذى يدعون الدفاع عنه وتجديد الفكر فيه ، وانما هم يدافعون عن تصوراتهم الليبرالية التى يعتقدون باخلاص أو بغير اخلاص أنها التعاليم الحقة للاسلام . وقد أقبلوا على تفسير الخوارق فى القرآن الكريم تفسيرا علميا ، أو وصف الآيات المتضمنة لها بأنها رمزية . أما فيما يتعلق بالرسول (ص) ، فبعد ان كان الناس والعلماء يقبلون الصورة التى قدمتها له كتب الأقدمين ، اقدم هؤلاء على اعادة رسم الصورة بما يتفق فى رأيهم مع قيم القرن العشرين ، وباتوا ينتقون من بين آلاف القصص عنه ما يناسبهم ويثبت دعواهم ، واصفين غيرها بأنها من الاسرائيليات أو الروايات الضعيفة ، وكأنما بات هذا شرطا لاستمرار تعلقهم بدينهم ونبيهم بعد تأثرهم بقيم الفرنجة .

وقد تأثر المحافظون انفسهم بهذا الاتجاه الذى كان الشيخ محمد عبده فى زعمنا مسئولا عنه . فتلامذته هم الذين أدخلوا الرؤية الرومانسية للتاريخ الاسلامى ، وأهملوا كافة المعايير الموضوعية للبحث التاريخى العلمى ، وغضوا من قيمة الصدق والاخلاص فى عرض أحداث الماضى ، وفضلوا الانتقاء والاختيار بطريقة تحكمية ذاتية لا تعكس غير المزاج الشخصى لصاحبها واهوائه وآرائه ، فهدموا بفعلهم هذا من البناء التاريخى للاسلام .

وفى اعتقادنا أن فتح الباب لهذا السبيل يؤدى الى أن يصبح أى شىء قابلا لأن يفسر على أى وجه . نعم من حق كل إنسان وهو فى سبيل تكوينه لعقيدته الدينية أن يختار هذا المبدأ وأن يترك ذاك . بيد أنه عند الحديث فى التاريخ الاسلامى أو فى القرآن والسيرة النبوية ، لا يمكن أن يكون الانتقاء التحكمى الا من قبيل عدم النضج والافتقار الى الأمانة . وقد كان هذا هو بالضبط الخطأ الأكبر الذى ارتكبه المصلحون الاسلاميون التوفيقيون فى حق الثقافة الاسلامية .

ومع ذلك ، ورغم أن هؤلاء كانوا فى واقع الأمر شديدى الشبه بدعاة التغريب ، اذ لم يطعنوا فى قيم الغرب وانما انتحلوها للاسلام ، فلم يقدموا بفعلهم هذا بديلا حقيقيا لأمتهم ، فقد كان لهم من الأفضال على مصر وعلى الاسلام ما قد تتضاءل بجانبها أفضال غيرهم .

فمن ناحية ، كان لهم فضل حماية المتعلمين والمثقفين من تيار علمانية ملحدة ، ومن الشك فى قدرة الاسلام على مسايرة احتياجات التطور والنهضة ، وهو شك أثاره عند البعض ضعف الثقة بالنفس ، والانبهار بالحضارة الغربية ، وكان يمكن - لولا جهود هؤلاء التوفيقيين - أن يعصف بالعقيدة الدينية عصفا . فقد سهل المصلحون على هؤلاء تبنى مظاهر تلك الحضارة دون قلق ، والاحتفاظ فى نفس الوقت بجوهر عقيدتهم دون ريبة ، شريطة تطهير تلك العقيدة مما تراكم عليها عبر العصور ، وشريطة فتح باب الاجتهاد للوصول الى صياغات جديدة لها . فهم اذن المسئولون عن ظاهرة جد مألوفة فى مجتمعنا ، وهى ظاهرة المتفرنجين الذين لا يزالون يأخذون اسلامهم على محمل الجد . وقد كان من المصلحة حقا أن ينهض بمهمة الدفاع عن العلوم الحديثة عالم دين رفيع المنزلة ، لا علمانى معاد للمشايخ . وبذا بات بوسع الشباب الاقبال على دراسة تلك العلوم دون أن يتهموا بالزندقة ،

وأن يبنوا بذلك جسرا يربط بين الثقافتين القديمة والجديدة . ويطلقوا من عقالها قوى مصر الخلاقة وطاقاتها ، ويفتحوا الباب على مصراعيـه أمام أدب تقدمى ملتزم بالاطار الاسلامى .

ومن ناحية أخرى ، كان لهؤلاء المصلحين الاسـلاميين فضـل تأسيس دعوتهم الى فتح باب الاجتهـاد على مبدأ جوهرى ، هـو ضرورة التصـدى للمشكلات الحيوية الحقيقية للمجتمع الاسلامى المعاصر (وجلها ناجم عن زيادة الصلات مع الغرب) ، مثل ادخال الأساليب الديموقراطية فى نظم الحكم ، وتحرير المرأة ، واصلاح نظام التعليم . والاهتمام بتطوير العلوم والاستفادة منها ، والتصدى لمشكلات الفقر والجهل والمرض ، والدعوة الى العـدالة فى توزيع الثروة ، والى المساواة ، وربطوا بين كل هـذه المظاهر للاصـلاح السياسى والاجتماعى وبين القرآن والسنة ، بحيث سهل عليهم بعد ذلك أن يقنعوا الناس بأن التخلف والصبر على المظالم وتجاهل الاصلاح ممـا ينافى الاسلام .

وقد أثارت هذه الدعوة ثائرة المحافظين من السياسيين وعلماء الدين . فنظام الحكم النيابى وارساء دعائم الديموقراطية يهددان سـلطان الحـاكم . واصلاح نظم التعليم يقلم من نفوذ العلمـاء التقليديين المهيمنين على تلك النظم . وتحرير المرأة والفتوى بأن الفوائد المصرفية ليست من الربا المنهى عنه فى القرآن ، مفاهيم مأخوذة عن الغرب ، وهى بالتالى غير اسلامية . غير انه كان من السهل الرد على هذه التهمة الأخـيرة بأن المسلمين الأوائل ابان ازدهار حضارتهم كانوا ينهلون نهلا من منابع الحضارات والثقافات والأفكار غير الاسلامية ، دون تحرج أو تحفظ أو حيرة أو قلق . فقـد كانت الثقـة بالنفس تعمر صدور هؤلاء وهم الفاتحون السادة . أما وقد وقع المسلمون فى براثن استعمار الفرنجة وباتوا يعانون من الهيمنة الاقتصادية والسياسية

للغرب على اقطارهم ، فقد فقدوا هذه الثقة ، وصاروا يرون فى كل اقتباس من نظم الفرنجة مكيدة للاسلام وفخا ، واقتباسا معاديا للدين • والواقع أنه لولا هذا الخلل النفسى ، وهذا الارتياب المرضى ، وفقدان الثقة ، لكان للاسلام المعاصر ، فى زعمنا ، شأن آخر •

٤

ثانيا : التيار الاسلامى الجديد

من الطبيعى ، ومن المشروع ، أن يقبل أهل كل عصر ، وسكان كل مصر ، على قراءة كتابهم المقدس وغيره من الكتب الأساسية فى عقيدتهم على ضوء احتياجات زمنهم ومشكلات اقليمهم ، حتى مع توهمهم أن دراستهم لها موضوعية مجردة • فالوهابيون فى شبه الجزيرة العربية ، وقادة الحركات المشابهة فى أفريقيا السوداء ، وان خالت أنها تستهدف العودة الى اسلام السلف الصالح ، انما أعطوا الأولوية لعقيدة التوحيد فى الاسلام ، بسبب ما وجدوه قد شاع فى عصرهم وفى بلادهم من خرافات وممارسات تحجب مبدأ التوحيد ، كتقديس الأولياء ، وزيارة القبور والأضرحة ، الى آخره • كذلك ركزت السنوسية اهتمامها على التنظيم الاجتماعى للأمة الاسلامية بسبب افتقار المجتمع البدوى فى شمال أفريقيا الى حكومة مركزية قوية • ولهذا كان أوضح مظاهر القصور فى تلك الحركات اغفال العديد من المشكلات الحيوية الأخرى فى المجتمع الاسلامى ، كالاستغلال الاقتصادى ، وضياع العدالة الاجتماعية ، وفساد نظم التعليم ، وكأن الاسلام لا شأن له بهذه المشكلات •

ولم تعرف مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وحتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، حركات شبيهة بالوهابية والسنوسية • وحين ظهرت

فيها ، مع الأفغانى ومحمد عبده ، حركات اسلامية اصلاحية ، كان ظهورها مرتبطا اساسا بمواجهة المسلمين لمعضلة رئيسية ، هى كيفية نهوض المسلمين من كبوتهم ، وعلاج مظاهر ضعفهم وتفككهم ، وتنظيم أنفسهم من أجل مقاومة الاستعمار الأوروبى والهيمنة الحضارية الغربية . ولا شك فى أن هؤلاء المصلحين ، حين أفاقوا لأول مرة لمشكلات اجتماعية وسياسية وحضارية بالغة الحيوية والخطورة ، تاثروا تاثرا عميقا بالمفاهيم الغربية لهذه المشكلات ، وبصياغات الغرب لحلولها . غير أنه لا شك أيضا فى أن هؤلاء المصلحين ، حتى مع مناصرة البعض لفكرهم ، انما كانوا يتصرفون كمفكرين أفراد ، لا يجمعهم تنظيم ، ولا هم عنوا بوضع مخطط عملى للعمل الجماهيرى من أجل تحقيق الأهداف .

وهذا هو بالضبط ما تلافته التيارات الاسلامية بعدهم ، ابتداء من الشيخ **حسن البنا** وجماعة الاخوان المسلمين ، وحتى جماعتى التكفير والهجرة والجهاد وغيرهما . فبازدياد تفاقم مشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ونمو الاحساس بهذه المشكلات ، ظهرت على مسرح الأحداث حركات سياسية اجتماعية ، ذات سمت دينى ، لا تستهدف الاصلاح فى اطار النظم القائمة ، وانما قلب هذه النظم حتى تتولى بنفسها مهمة التغيير ، بدعوى أن هذه النظم الفاسدة « غير اسلامية » ، لا يمكن أن ننتظر منها جهدا حقيقيا من أجل تطبيق الشريعة ، ولا تعلقا مخلصا بأهداب الاسلام . والتاريخ الاسلامى حافل بالأمثلة لأزمنة كان الالتجاء الى العنف فيها هو السبيل الوحيد المتاح أمام الناس كى يطيحوا بشرور ومظالم متراكمة ، ويفسحوا مجالا لبداية جديدة .

وقد أخذت هذه الجماعات عن المصلحين من اتباع الأفغانى ومحمد عبده فكرة شمول الاسلام لكافة مظاهر حياة الفرد والمجتمع . غير أنهم ذهبوا الى

أبعد مما ذهب اليه الأولون فى نسبة القدرة الى الاسلام على التصدى لكل تفاصيل هذه المظاهر ، دون حاجة الى الاقتباس من حضارات وأنظمة أجنبية. ولا شك فى أن النفور الواضح لدى هذه الجماعات من كل ما هو أجنبى ، واتهامهم المصلحين الأوائل بمشايعة الغرب ، نجما عن تفاقم التأثيرات الغربية ، وزعزعتها المتزايدة للتقاليد المحلية ، واتساع نطاق الأهداف والمخططات الأجنبية حيال المنطقة ، وازدياد وضوحها فى أعين اهلها ، بدرجة تفوق بكثير ما كان عليه الحال وقت محمد عبده وأشياعه ٠

ومع ذلك ، فالمؤكد رغم كل الحرارة والايمان الصادق اللذين يتمتع بهما معظم أفراد التيارات الاسلامية الجديدة ، أن المستوى الثقافى والكفاءة الذهنية لدى الأفراد والقادة على السواء ، وباستثناء قلة قليلة كالشيخ **حسن البنا وسيد قطب** ، هما أقل بكثير منهما لدى المصلحين الاسلاميين ابان العقود الأولى من القرن العشرين ٠ فالرؤية لديهم قاصرة ، والأهداف غير واضحة ، والمنهاجية فاسدة ، وفكرتهم عن اجماع السلف الصالح مشوشة ، والمامهم بالتاريخ واه معيب ٠ والأخطر من هذا كله أنهم رغم اصرارهم على شمولية الاسلام وتفرده ، وتميز كل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية ، لم يفلحوا الا فى ابراز حفنة من النقاط والقضايا ، ركزوا عليها ، وألحفوا فى تكرارها الى حد الاملال ، دون أن يتجاوزوها الى غيرها الا فى النادر ٠ وأعنى بهذه النقاط : موضوع الربا وفائدة البنوك ، وسفور المرأة وتحديد النسل ، وكراهة العلمانية والعقلانية ، والنفور من استخدام سبل البحث العلمى والمنهج التاريخى فى مجال الاسلاميات ٠ وهم فى ربطهم هذه الاتجاهات بالغرب ونزعة التغريب ، يتفقون اتفاقا أساسيا مع وجهة نظر المحافظين الذين يشاركونهم أيضا فى عدائهم للمصلحين التوفيقيين ٠

ثم عيب خطير آخر يتمثل فى مفهوم أفراد هذه الجماعات عن المعرفة ٠

فهى عند المجتمعات المتسمة بالحيوية والتحضر تعنى استخدام المعروف فى اماطة اللثام عن المجهول • أما عند هؤلاء فهى لا تعنى أكثر من تجميع المعلومات • والمعلومات فى رأيهم ليست بالمتطورة ، النسبية ، القابلة للاتساع ، وانما هى ثابتة خالدة • وقد نجم عن هذا المفهوم ثلاث عواقب ، الأولى : أن المعرفة عندهم لم تعد عنصرا ديناميكيا فى الفكر ، بل كتلة جامدة ، مما أسهم فى قهر كل نشاط فكرى حر بدعوى مخالفته لأحكام السلف ، والثانية : أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة يجعل من المحال اطراح شىء من المعارف المقبولة متى ثبت خطأها أو عدم مسايرتها لأحوال العصر ، ويجعل من الصعب تقبل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سندا فى فكر الأقدمين ، والثالثة : أن صار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف ، أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف ، لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر • وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين اقتناعا بأنه لا يمكن أن يكون للاسلام مستقبل ما دام عاجزا عن مسايرة التطور على ضوء الجديد من الأفكار والنظريات العلمية •

لقد كان رجال الدين فى الغرب المسيحى هم الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تطوير العقيدة ، واعادة تكييف أحكامها على ضوء المعارف التاريخية والأفكار الفلسفية الشائعة • أما فى مصر فيكاد يكون محمد عبده ومصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت الوحيدين من بين رجال الدين الذين نهضوا ، أو حاولوا النهوض ، بهذه المهمة ، فى حين ظلت غالبية المشايخ ترفض فى عناد كل تجديد وتوفيق بين العقيدة وبين الفلسفة والعلوم ، باعتبارهما من الأهواء ومن الحبائل التى نصبها الشيطان للتغرير بالغافلين • ورغم ايمان هؤلاء بفكرة تطور الأديان ذاتها بحيث جاء كل دين ارقى درجة من سابقه ، فقد أصروا على أن هذا التطور قد توقف نهائيا منذ القرن السابع الميلادى •

وقد أصاب الأفغانى ومحمد عبده وأتباعهما فى بيانهم لضرورة اعادة تفسير الاسلام تفسيرا يوائم احتياجات العصر الحديث والمجتمع المتغير . غير أن موقفهم الدفاعى والاعتذارى تجاه الحضارة الغربية حال دون تقديمهم لمثل هذا التفسير الشمولى ، ومال بهم الى الاقتصار فى فكرهم على التصدى لقضية هنا وقضية هناك من قبيل الرغبة فى الرد على خصوم الاسلام فى الغرب ، أو الأخذ بمشورة الأصدقاء الناصحين فى الغرب أيضا . وقد كان انصار التيارات الاسلامية الجديدة على حق فى انتقاداتهم للموقف «التغريبى» لدى هؤلاء المصلحين التوفيقيين ، لما ينطوى عليه بالضرورة من احساس بالنقص دفعهم الى محاولة التبرير . غير ان انصار هذه التيارات ، باندفاعهم فى الاتجاه المضاد ، وقعوا فى خطأ مماثل . اذ بينما ركز الأولون على نفى أن تكون فائدة البنوك من الربا المحرم ، ونفى ان يكون الاسلام قد انتقص من حقوق المرأة ، وحد من دورها الاجتماعى ، والاصرار على أن الشورى الاسلامية هى بعينها ديموقراطية الغرب السياسية ، وعلى اهتمام الاسلام بالدعوة الى تنمية العلوم وتحصيلها ، أو بعبارة أخرى : بينما ركز الأولون على بيان اتفاق الاسلام مع المقومات الايجابية للحضارة الغربية ، اتجهت الجماعات الاسلامية الجديدة الى انتقاء قضايا محدودة للغاية لاثبات تميز الاسلام واختلافه عن المفاهيم والقيم الغربية ، كضرورة عودة النساء الى الحجاب ، وضرورة تاسيس بنوك اسلامية لا فائدة فيها ، وضرورة اقامة الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلد الزانى وشارب الخمر ، والتفرقة فى المعاملة بين المسلمين واهل الذمة . أما فيما عدا هذا من مسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية بالغة الحيوية والأهمية ، فلا يكاد يكون ثمة علاج او برامج أو فكر . وهو ما يقودنا الى نتيجة هامة : هى أن فكر الجماعات الاسلامية الجديدة ليس اقل انشغالا بالغرب من فكر المصلحين التوفيقيين . ولكن الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما انشغلوا به على نحو ايجابى ، فى حين

انشغلت به الجماعات الجديدة على نحو سابق . وشبح الغرب عند هؤلاء واولئك هو الشبح الجاثم الرابض ، مغر ومنفر معا ، يدعو الى الاعجاب ويستثير الكراهية فى آن واحد .

قلة قليلة فحسب من المفكرين الاسلاميين المحدثين رأت الحل الأمثل فى الاقدام على دراسة موضوعية هادئة للأفكار والنظم الغربية ، من أجل تحديد طبيعة الاستجابة الصحية الواجب على المسلمين أن يتبنوها ازاء الضغوط الغربية المختافة على مجتمعهم . فان كان فى الحضارة الغربية من العناصر ما هو فاسد مفسد ، فالكثير من الأفكار والنظريات التى ورثناها عن اسلافنا المسلمين فاسد مفسد هو أيضا . وما لم نتصد بالدراسة لتراثنا وتقاليدنا هى الأخرى بنفس الموضوعية والهدوء والمعايير العلمية والحرص على تجنب الآراء التحكمية ، فما من أمل يبقى فى قدرتنا على مواجهة التحديات المعاصرة . كما أنه ما لم نول اهتماما بما يمكن للدين أن يحققه لخير الانسان الاجتماعى والاقتصادى ، مماثل لاهتمامنا بما يمكن للانسان أن يفعله من أجل تمجيد الخالق ، فما من أمل يبقى فى قدرة الاسلام على حل المعضلات .

غير أنه حتى هذه القلة القليلة المتعقلة نراها اليوم فى انحسار . فتفاقم مشكلات المجتمع المصرى ، وتعاظم خطر الفرنجة فى المنطقة ، يميل بالبعض ، كالتراثيين الجدد (١) ، الى هجر الاعتدال وفقد الثقة بجدواه ، والتعاطف مع التطرف باعتباره السبيل العملى الأوحد الى مواجهة الأخطار الحقيقية التى تهدد بابتلاع هويتنا ، واستفظاع بهاظة الثمن الاجتماعى والنفسى الذى لا مفر من دفعه ان نحن أردنا اللحاق بركب الغرب فى مضمار

---

(١) طارق البشرى ، عادل حسين ، الخ .

التقدم . أضف الى ذلك أن انتشــار تأثير الجماعات الاســلامية المتطرفة فى صفوف الجماهير العريضة ، وازدياد فرص اســتيلائها على الحــكم ، على نحو ما حدث فى ايران ، خلال سنوات قلائل ، دفعا بعض الانتهازيين من المفكرين الى التضحية باستنارته ، والتعبير عن تعاطفه واتفاقه فى الرأى مع فــكر تلك الجماعات ، من أجل ضــمان الرضا والشعبية ، أو الاستفادة المــالية من حــكومات دول عربية غنية تنفق بســخاء على وسائل نشر ذلك الفــكر . هذا الى أن ميل السلفيين الى الدخول فى تنظيمات تجمع شــتاتهم وتنسق خطاهم ، وميل المجددين المستنيرين ، شــأن المصلحين التوفيقيين قبلهم ، الى العمل فرادى ، لا يصبرون على تنظيم ، ويعزز من دواعى الفرقة بينهم ما فى طباعهم من تحاســد وتدافع على الشهرة والمجــد ، يزيد من فرص نيل الأولين دون الآخرين لأغراضهم ، وبلوغ أهدافهم .



ثالثا : التيار القومى العربى

تعنى القومية العربية تلك الحركة التى نشــأت بين ظهرانى عرب أقطار الدولة العثمانية ، ودعت فى بدايتها - بمباركة الحلفاء الأوروبيين وتشجيعهم، بل وربما بوحى منهم - الى الاســتقلال عن تركيا حليفة الألمــان فى الحرب العالمية الأولى ، ثم تطورت بعد تحقيقها لهذا الهدف ، وبعد وقوع عدد من الأقطار العربية فى براثن الاحتلالين البريطانى والفرنسى ، الى الدعوة الى قدر من الوحــدة السياسية والاقتصادية بين هذه الأقطار يتفاوت بتفاوت أفــكار الدعاة . وقد ذهب هؤلاء الى أن ثمة أمــة عربية واحدة ، قد انقسمت بسبب ظروف خارجية عن ارادتها الى دول مســتقلة ، وأن الواجب العمل على اعادة توحيدها فى كيان ســياسى عضوى واحد ذى ســيادة ، بالنظر الى ما يجمــع بينها من عنــاصر هى الدين (الاســلام) ، واللغة (العربية) ،

والثقافة (الاسلامية) ، والأرض الممتدة ، والتاريخ المشترك ، ثم المصلحة الاقتصادية التى ستعود على الجميع من جراء الوحدة • ولا شك فى أن ظهور المشكلة الفلسطينية وقيام دولة اسرائيل ، اضافا الى الدعوة حافزا جديدا يتمثل فى وحدة الهدف ، والاحساس المشترك بالخطر •

وكان أول من لهج بفكرة القومية العربية عبد الرحمن الكواكبى الحلبى المولد ، (١٨٤٩ - ١٩٠٢) ، حين كرر فى كتابه « أم القرى » بالحرف الواحد ما سبق لويلفرد بلنت البريطانى أن عبر عنه من آراء فى كتابه « مستقبل الاسلام » عام ١٨٨٢ • ثم حدث أن تبنى السيد رشيد رضا (وهو الذى اتهمه محمد فريد فى مذكراته بأنه عميل للبريطانيين) ، هذه الدعوة فى مجلته « المنار » • وكانت دعوة الرجلين المستقاة من افكار بلنت ، والتى عنيت بايضاح المركز الخاص الذى يتمتع به العرب فى اطار الاسلام ، أول نقلة حاسمة من فكرة الجامعة الاسلامية التى حمل الأفغانى لواءها ، الى فكرة القومية العربية • وقد جاء هذا التحول لدى معتنقى الفكرة من الانتماء الاسلامى الى الانتماء العربى نتيجة لعدة عوامل ، منها ، الضعف المطرد الذى طرأ على العقيدة الدينية لدى الكثيرين من العلمانيين وممن تبنوا نمط المعيشة الغربى ، والوهن المتزايد فى الصلات بين أطراف العالم الاسلامى نتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية فى دوله ، والرغبة فى ضمان مساهمة الأقليات غير المسلمة فى هذه الحركة ، وتجنب وقوفها بمنأى عنها أو مقاومتها • كل هذا بالرغم من أن فكرة القومية العربية نابعة فى المقام الأول من مفهوم مثالى لماض حضارى دينى •

وقد كان السياسيون والصحافيون والكتاب فى العراق وسوريا ولبنان (أى مجموعة أقطار الهلال الخصيب التى حررها البريطانيون والفرنسيون من حكم الاتراك خلال الحرب العالمية الأولى ثم أخضعوها بعد ذلك لاحتلالهم) ،

أول من حمل لواء فكرة القومية على نحو جاد ، بادئين بصياغة الأسس النظرية والفلسفية والتاريخية لها • غير أن الدعوة ظلت قاصرة أو تكاد على العراق وسوريا ولبنان ، وظلت مصر خارج نطاقها ، لا تأبه كثيرا بها ، حتى احتضنها جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ ، ربما حين رأى فيها وسيلة فعالة لبسط هيمنته على أقطار المشرق والمغرب العربيين ، فتحولت الفكرة عند المصريين من مجرد مفهوم وديع متواضع لا يكاد يتعدى كتابات عدد محدود من المفكرين ، ومآدب فى القصر الملكى لزعماء العرب ، الى حملة منظمة واسعة النطاق ، تحاول غرس مفهوم القومية والانتماء العربيين فى أذهان أفراد الشعب ، وذلك عن طريق وسائل الاعلام القوية ، والمناهج الدراسية فى المدارس والجامعات ، وكتابات المفكرين والصحافيين المنصاعين للنظام ، أو المخلصين فى عقيدتهم ، وخطب الزعماء والقادة ، ودعايات الاتحاد الاشتراكى وشعاراته ولافتاته •

ولم يكن فى تبنى الفكرة فى حقيقة الأمر تنازل كبير من جانب مصر عن هويتها المتفردة• فقد كان ثمة دائما احساس بأنه متى ما تطلعت مصر الى خارج حدودها ، فانما تفعل ذلك لكى تلعب دورا قياديا فى المنطقة • أضف الى ذلك أن المسلمين المصريين أكثر تفهما ووعيا للتاريخ الاسلامى وشخصياته منهم للتاريخ المصرى القديم وفراعنته • هذا الى تجاوب حقيقى مع الثورات العربية ضد الاستعمار (كالثورة السورية مثلا) ، واحساس بمصالح ومشكلات يشترك فيها العرب معهم ، وما يربط بينهم وبين سائر العرب من ثقافة واحدة ، وأساليب عيش متقاربة •

وقد بدا فى وقت من الأوقات ، خاصة مع قيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨ التى ضمت مصر وسوريا ، وكأن فكرة القومية العربية بمفهومها المعادى للغرب ، قد بدأت تدخل حيز التطبيق ، وتحرز قسطا

ملموسا من النجاح ٠ فكان ان شمر الغرب عن ساعده لضربها بالتحالف مع الأنظمة المسماة بالرجعية فى المنطقة ، وكان انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١ ، وكانت حرب يونيو عام ١٩٦٧ التى قلمت نهائيا من اظفار عبد الناصر وأذهبت ريحه ، وشككت العرب فى انفسهم وقدراتهم ، وشككت شعب مصر فى جدوى النظام الاشتراكى وجدوى اقحام نفسه فى الشؤون العربية الداخلية ، خاصة وقد اعتبر تدخل عبد الناصر المشئوم فى اليمن احد اسباب الهزيمة فى الحرب على يد الد اعداء القومية العربية ، وهى اسرائيل ٠

فشل عبد الناصر اذن فى توحيد الأمة العربية عن طريق الدعاية او الثورة او استخدام القوة ، كما فشل حزب البعث فى تحقيق الوحدة او الاشتراكيه فى قلاعه الأصلية ، وهى سوريا والعراق والأردن ٠ وقد انتهى الحال بعبد الناصر فى السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ، وبعد أن خالته الأمة العربية صلاح الدين الجديد ، الى الاعتماد الكامل تقريبا على الاتحاد السوفييتى من أجل انقاذه من ورطتيه : العسكرية والاقتصادية ٠

غير ان اختفاءه من مسرح الأحداث العربى عام ١٩٧٠ ، والظروف التى ادت الى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ضد اسرائيل ، وهى التى أسفرت عن قدر من النصر رد الى العرب ثقتهم المفقودة بانفسهم ، وتعاظم نفوذ عدد من دول النفط العربية الثرية وتاثيرها فى الاقتصاد العالمى وفى اتجاهات الدول الغربية حتى ازاء اسرائيل ، كل هذا ادى الى اعطاء دفعة مستجدة للقومية العربية ، ولكن مع اضفاء طابع جديد عليها ٠ فقد تبددت الآن الأوهام الرومانسية التى كانت لصيقة بافكار حزب البعث ، كما تبخرت النزعات والمطامع البروسية للزعامة المصرية ، ودخل مفهوم القومية العربية فى صورته الجديدة شكل من التضامن قائم على أساس من المصلحة المشتركة .

وادراك المخطر الاقتصادى والسياسى والحضارى الذى يمثله الغرب ، ووعى بامكان اقامة تكتل اقتصادى اقليمى عربى ينافس الدول الغربية الصناعية. وقد كانت هذه هى الصورة الجديدة التى بدت عليها القومية العربية عقب حرب ١٩٧٣ . وحيث أن اغنى الدول العربية المحتضنة لهذا الشكل الجديد هى من الناحيتين السياسية والاجتماعية أكثر دول المنطقة محافظة وتمسكا بالتقاليد الاسلامية ، فان الاشتراكية لم تعد الطابع البارز للقومية العربية ، وانما أصبح طابعها الغالب ربط العروبة بالاسلام ربطا دعامته المال والثراء ، وهو ثراء يستخدم فى المقام الأول فى الصراع ضد اسرائيل والامبريالية ، ومن أجل اعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين .

ولم يكن ثمة مفر ازاء هذا البعث الجديد للقومية العربية عقب حرب ١٩٧٣ ، وازاء صورتها التى بدت أكثر واقعية وأقرب احتمالا لتحقيق أهدافها ، من أن يحاول الغرب تسديد ضربات أخرى اليها ، والعمل جادا على بث بذور الشقاق والفرقة فى الصفوف . وكما أنه فى عام ١٩٦٧ قد اختار مصر هدفا رئيسيا لصب نقمته (عن طريق الحاق الهزيمة الساحقة بجيشها) ، فقد اختارها الآن لتحقيق أغراضه ، ولكن على نحو مخالف ، وبناء على الاعتبارات التالية :

- أن فكرة القومية العربية والوحدة لم تظهر فيها على نحو جاد الا متأخرة عن بزوغها فى الدول العربية الأخرى ،

- ان هذه الفكرة لم تتغلغل فى نفوس المصريين تغلغلا كافيا ، ولم تتعد بأى حال من الأحوال رءوس اقلية من أصحاب الأقلام المتأثرين بالأفكار الغربية (لا الاسلامية) من سكان المدن ، ولم تنفذ على الاطلاق الى الأغلبية الساحقة من سكانها من الفلاحين ثم من العمال الذين لم يشعروا فى أى وقت من الأوقات بالحاجة اليها . أما القبط فبالرغم من أن بعض مثقفيهم مال الى

الفكرة باعتبارها اطارا سياسيا دنيويا مقبولا لديهم ، فان غالبية أفراد الطائفة ظلت دائما فى خشية من قيام ارتباط عضوى بينها وبين الاسلام ،

● أن التجربة الفاشلة للوحدة مع سوريا قد شككت المصريين فى جدوى الوحدة وامكان تحققها عملا ،

● ميل عدد كبير من المصريين الى الاحساس بانتماء لهم غير عربى ، وهو احساس يغذيه فيهم قدم ماضيهم وأمجاد أجدادهم من الفراعنة ،

● ضعف حصيلة المصريين بوجه عام من التراث العربى والاسلامى بالمقارنة بغيرهم فى سوريا أو العراق مثلا ،

● تزايد مشاعر الاستياء من العرب لدى المصريين ، وهى الناجمة عن :

أ - مذلة يستشعرها العاملون من المصريين فى البلاد العربية ، وجلهم من طلاب الرزق الذين اضطرتهم الضائقة الاقتصادية فى قطرهم الى التكسب بالعمل فى الدول العربية الغنية ، وما استتبع ذلك من احساس باستعلاء حقيقى أو وهمى من جانب مستخدميهم تجاههم بعد احقاب طويلة كان حال المصريين خلالها على عكس من ذلك تماما ،

ب - النفور من مسلك بعض الأغنياء الوافدين الى مصر من العرب ، وهو مسلك ينطوى على احساس بالقدرة على الاقدام على أى شىء وشراء أى شىء بما فى ذلك اعراض نساء المصريين بفضل أموالهم ،

ج - اعتقاد الكثيرين من المصريين بأن ما لحق بلدهم من ضائقة اقتصادية انما تمخض أساسا عن خوضها حروبا باهظة التكلفة لم يسهم فيها غيرها من الدول العربية اسهاما كافيا ،

د - احساسهم بضعف المساعدة المالية العربية لمصر رغم التضحيات التى تقدمها فى سبيل قضية عربية تهم الجميع ، (وهو احساس غذته فيهم الصحافة المصرية ووسائل الاعلام الأخرى فى عهد أنور السادات) ٠

هـ - ثم فوق كل شيء ، ذلك التدهور الرهيب الذى طرأ على الأحوال الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية فى مصر ، مما ضخم فى نفوس أبنائها الرغبة فى انهاء الصراع وسلسلة الحروب مع اسرائيل ، وهو صراع صور لهم على أنه السبب الرئيسى فى هذا التدهور ٠

وكان أن انصرفت جهود الغرب الى محاولة تحقيق صلح بين مصر واسرائيل ، يخرج أقوى دولة عربية وأعظمها نفوذا من حظيرة الدول العربية، ساعيا فى الوقت ذاته الى بذر بذور الشقاق فى جبهات متعددة داخل العالم العربى ، ومعتمدا فى سعيه هذا على ما بين قادة العرب من تنافس على الزعامة ، وعلى ركاكة قرائح غالبيتهم ، وغلبة الأثرة عليهم ٠ ثم كان أن تحقق هذا الهدف ، وبادرت الدول العربية بقطع علاقاتها مع مصر ، مما دفعها الى عزلة عن سائر العرب ، ودفع السادات وصحافته وكتاب نظامه الى التأكيد على « مصرية » مصر ٠

٦

رابعا : موقف القبط من التيارين القومى العربى والاسلامى

ان كان المسلمون قد عرفوا مبدأ التسامح الدينى منذ زمن بعيد ، فان فكرة المساواة بين المسلمين وغير المسلمين لم تكن لتخطر ببالهم حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بتاثير أفكار الغرب وضغط سياسى منه ٠ ومع تبنى قبط مصر للغة العربية ، فقد ظلوا يحيون حياة منفصلة ، ويسكنون احياء خاصة بهم ، دون توسع فى العلاقات مع المسلمين ، بل وكانوا يرسلون

أبناءهم الى مدارس مقصورة عليهم ، ويشتغلون بمهن أو حرف تكاد تكون وقفا عليهم .

وفى عام ١٨٣٩ أصدر السلطان العثمانى تنظيمات بالغة الأهمية قضت بالمساواة بين كافة رعايا الدولة بغض النظر عن ملتهم ، وبفتح باب الوظائف المختلفة أمام أهل الذمة ، وفرض الخدمة العسكرية عليهم أسوة بالمسلمين ، والغاء الجزية التى فرضها الاسلام عليهم . فان كان السلطان قد اضطر الى اصدار هذه التنظيمات من أجل ارضاء الدول الغربية ، واسكات منتقديه فيها ، ومراضاة رعاياه من المسيحيين ، فالواقع أن المسيحيين فى أقطار دولته ، ومنها مصر ، ظلوا على عزلتهم التقليدية ، وعلى نظرتهم الى الدولة والسلطة الحكومية باعتبارهما عدوين لهم لا يكنون لهما الولاء ، فى حين اتجه ولاء الكثيرين منهم الى الدول الأجنبية المسيحية التى يتمتعون بحمايتها ، ويسعون الى اتقان لغاتها ، وينهلون من منابع ثقافتها . وقد زاد من هذه العزلة ما ظهر بعد تولية السلطان عبد الحميد من تيار الجامعة الاسلامية الذى يعيد تأكيد الطابع الاسلامى للدولة ، والذى حظى بتأييد الكثيرين من المثقفين المسلمين .

ومع ذلك فانه بمرور الوقت ، وبضعف تيار الجامعة الاسلامية ، بدأت تظهر أفكار غامضة فى البداية ، وأكثر وضوحا فيما بعد ، عن مصالح مشتركة تربط المسلمين بالمسيحيين ، قوت منها دعوة الطهطاوى الى حب الوطن والوطنية . لقد كانت الدولة العثمانية غريبة عن القبط ، ولم تكن اعتداءات الأوروبيين عليها تعنى عندهم ما تعنيه عند المسلمين . بالعكس ، لقد كانوا يستفيدون أحيانا من هذه الاعتداءات فى نيل الحقوق والمساواة وتولى الوظائف . غير أن ظهور الاتجاه الوطنى ، بما ينطوى عليه من نزعة علمانية ، وادخال تغيير جوهرى على مفهوم المسلمين عن الدولة ، وبدء الدعوة الى فصل الدين عن السياسة حتى من جانب عدد كبير من المسلمين

المصريين المتأثرين بالأفكار الأوروبية ، أوجدت أساسا يمكن للمسلمين والأقباط البناء عليه معا من أجل مصيرهم المشترك ٠

وهكذا شرعت غالبية القبط فى مناصرة التيار القومى المصرى لما ارتأت فيه من خدمة لمصالح الطائفة ٠ أما فكرة القومية العربية فلم تستسغها تلك الغالبية على أساس أنه لا مفر من اتخاذها الاسلام حجرا للزاوية ، صرح بذلك دعاتها أم نفوه أم سكتوا عنه ٠ فالاشادة بأمجاد الماضى العربى ، وبالتراث الفكرى العربى ، وباللغة العربية ، هى فى جوهرها إسلامية ، وتنطوى على تأكيد للذات الاسلامية تضيع معه مصالح القبط ٠ ومع ذلك ، ذهبت قلة من المثقفين المسيحيين الى أن التاريخ العربى والتراث الاسلامى ينبغى أن يدخلا فى المكونات الفكرية الأساسية للمسلمين والمسيحيين جميعا ، دون أن يعنى هذا صبغ فكرة القومية العربية بصبغة دينية ، مع العمل فى نفس الوقت على محاكاة اقطار أوروبا الليبرالية فى توفيرها أسس المساواة التامة بين أتباع الديانات المختلفة فى الحقوق والواجبات ٠ غير أن أكثرية المسلمين من أنصار القومية العربية أبت تجريد الدعوة من طابعها الدينى أو ارتأت هذا التجريد مستحيلا ٠ وكان أن ساد احساس لدى الجميع بعجز الدعوة عن توفير حل للمشكلة يرضى كافة الأطراف ، ويطمئن الأقليات على نيل حق المساواة ، وهو حل كانت الحركة الوطنية المصرية التى ساهم فيها المسلمون والاقباط معا أقدر على توفيره ٠

والواقع أنه كان ثمة اعتباران آخران ، أقوى حتى من الحركة الوطنية ، وأكثر فعالية من القوانين والتنظيمات ، أسهما فى تحقيق مبدأ المساواة الفعلية بين المسلمين والقبط فى مصر ٠ الاعتبار الأول هو مقتضيات الحياة اليومية فى مجتمع سريع التغير ٠ فمع بزوغ القرن العشرين ازدادت الصلات الاجتماعية والعلاقات اليومية العادية بين أفراد الطائفتين ، ونمت بين بعضهم

صداقات بددت من جهل كل من الطرفين بالطرف الآخر ومن شكه فى نواياه ، وظهرت بوادر احترام متبادل واحساس بمصلحة مشتركة فى مواجهة عدو مشترك ، يستغلهم جميعا بنفس الدرجة ، ألا وهو الاحتلال الأجنبى . وكان لا بد ازاء هذه الظاهرة الجديدة فى التاريخ الاسلامى كله من أن يتبلور اتجاه لدى السياسيين والمثقفين المسلمين يدعو الى فصل الدين عن الدولة ، وذلك لتوطيد دعائم هذه المصالحة المرغوب فيها من أجل مصلحة الوطن . فالدين لله ، والوطن للجميع . وقد بارك القبط هذا الاتجاه وآزروه . ثم جاء الدستور عام ١٩٢٣ منهيا لوضع القبط باعتبارهم أقلية ، ومحققا لهم قدرا من المساواة لم يتمتعوا به من قبل .

وأما الاعتبار الهام الثانى فهو تغلغل الأفكار والمفاهيم الأوروبية العلمانية فى عقول شطر كبير من المصريين ، خاصة المثقفين المقبلين فى شغف على القراءة فى الآداب الغربية ، وزيارة الدول الأوروبية للدراسة أو السياحة، وأولئك الذين يتلقون تعليمهم فى وطنهم اما فى مدارس أجنبية ، أو فى مدارس مصرية وضعت مناهج التعليم فيها على غرار المناهج الغربية . وقد نشأ عن كل هذا وغيره اضعاف لسلطان الدين فى نفوس المسلمين والقبط معا ، لا شك فى أنه أسهم فى ازالة موانع كانت تحول دون اقامة الصلات وتقوية الروابط بين أفراد الطائفتين . أضف الى ذلك أنه بالتحول التدريجى عن نظام التعليم الدينى لكل طائفة ، الى المدارس الحكومية والأجنبية التى باتت تستقبل صبية المسلمين والقبط جميعا ، والتى لا تشغل دراسة علوم الدين فيها غير مكانة ثانوية ، مع التركيز على العلوم الأخرى المدنية ، تقاربت عقليات المسلمين والأقباط واهتماماتهم ، وتزايدت بالتالى فرص التلاقى والانخراط فى أوجه عديدة من النشاط الاجتماعى المشترك .

ومع ذلك فقد استمر فى كل من الطائفتين وجود عناصر نشطة ترفض

قبول فكرة احلال القومية المصرية والدولة الوطنية فوق الاعتبار الدينى ٠ فالدين عند جماعة الاخوان المسلمين والجماعات الاسلامية الأخرى التى تلتها له الأولوية المطلقة على الوطنية ، ودراسة التاريخ الاسلامى تفوق فى أهميتها دراسة تاريخ مصر الفرعونية والقبطية ، ومساواة أهل الذمة بالمسلمين ، (حتى ان رؤى أنها فى صالح القضية الوطنية) ، تناقض تعاليم الاسلام ، ولا يجوز أن تضمن الدولة لغير المسلمين فيها غير الحماية وحسن المعاملة لا المساواة فى الحقوق والواجبات ٠

ومن ناحية أخرى ، ظل القبط يشكون — حتى فى المدارس الحكومية — من تركيز الاهتمام على الاسلام فى دروس التاريخ واللغة العربية والأدب والتربية ، رغم اشتراك الأقباط فى حضورها ٠ وقد رد المسلمون بأنه من المحال تفريغ التاريخ والأدب العربيين من مضمونهما الاسلامى ، وأضافوا ساخرين قولتهم الشهيرة : « أبت النصرانية أن تتعرب ! » ٠ وقد أنكر الأقباط ذلك ، وأضافوا شكواهم من أن وسائل الاعلام والفنون والآداب تتجاهل طائفتهم واسلوب عيشها ، وانهم ، أى القبط ، (رغم كل التشدق بالمساواة) مغلوبون على أمرهم ٠

وبازدياد قوة التيار الاسلامى فى مصر منذ هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ على يد اسرائيل ، وقيام متطرفين من الغوغاء بالاعتداء على الكنائس والممتلكات القبطية بل والأفراد ، ظهرت بين القبط حركات متطرفة مماثلة ، يجمع بين أفرادها الخوف من قيام نظام اسلامى فى مصر على غرار نظام الخمينى فى ايران ، فيدفع القبط دفعا الى حمل السلاح دفاعا عن حقهم فى المواطنة الكاملة ٠ أو على حد تعبير أحد كبار مثقفيهم : « لقد كنت دائما أشعر بالانتماء الكامل لمصر ، وأكرر قولة مكرم عبيد : (أنا مسيحى الديانة ومسلم بحكم انتمائى الوطنى) ٠ غير أن تدفق الموجة الاسلامية يدفعنى الى أن أصبح

مسيحيا مائة فى المائة ، ومتعصبا لطائفية لا تقل فى رجعيتها عن طائفية خصومنا » .

وقد زاد من هذا الاحساس بالمرارة والقلق والاكتئاب لدى القبط فى الآونة الأخيرة ، مزايدات الأحزاب السياسية ، خاصة عشية الانتخابات العامة المصرية ، بالدعوة الى تطبيق الشريعة الاسلامية ، والسعى الى توحيد الصفوف مع بعض الجماعات الاسلامية أملا منها فى اجتذاب الأصوات وكسب المؤيدين ، بما فى ذلك حزب الوفد الذى رأى بعض الأقباط أنه بتحالفه مع الاخوان المسلمين عام ١٩٨٤ قد تنكر لماضيه العلمانى ولمبادىء مؤسسيه . والشعور السائد اليوم لدى القبط هو أن الصدع قد شارف على أن يصبح هوة سحيقة ، وأن التطرف الدينى المتصاعد داخل الطائفتين قد يودى بكل الانجازات التى حققتها المائة عام الأخيرة فى مجال توحيد الصفوف ، وتحقيق المساواة ، وازالة الشكوك وسوء الظن ، وهى انجازات تحققت بفضل التيار العلمانى .

٧

خامسا : الاتجاه التغريبى العلمانى ، والنزعة المصرية

كانت الغاية الرئيسية للمدارس التى أنشأها ولاة مصر فى القرن التاسع عشر على غرار النماذج الأوروبية ، وتحت اشراف الأوروبيين فى أكثر الأحيان ، هى تخريج الأطباء والمهندسين والموظفين والخبراء المهنيين من كل نوع ، وذلك من أجل النهوض بالمشروعات التى اختطها هؤلاء الولاة . واذ أدرك هؤلاء الخريجون أن الالمام بالمعارف الأوروبية هو سبيل الترقى فى الوظائف العامة ، كان طبيعيا أن يتطلعوا ، هم وأعضاء البعثات المصرية فى أوروبا ، الى التزود منها ، ثم أن يشرعوا بعد ذلك فى المقارنة بين مختلف

النظم الغربية التى قرأوا عنها أو عاينوها وبين النظم السائدة فى بلادهم ٠ وقد كان موقفهم من تلك النظم الغربية خلال القرن التاسع عشر يتسم بقدر كبير من الاتزان الوقار الخليقين بالاعجاب ٠ وهما اتزان ووقار لا نجد تفسيرا لهما غير ايمان لم يزعزعه شيء بتفوق العقيدة الاسلامية ، وبان الأوروبيين مهما بلغوا من تقدم مادى حضارى هم من أهل الضلالة والكفر ، جهنم مصيرهم ٠

ومع اشتراك المحافظين ودعاة الاغتراف من الحضارة الغربية فى هذه الثقة فى الاسلام ، فان هذا لم يحل دون انشطار الدوائر الفكرية فى مصر الى شطرين متنافرين ، تفصل بينهما هوة سحيقة ، وينظر كل منهما الى الآخر نظرة الاستخفاف ٠ فالجامدون انصار القديم كانوا بمناى عن التطورات التى تهز الفكر المعاصر من جذوره ، لا يلقون القبول الا لدى فئة محدودة ممن يماثلونهم فى الروح والنزعة ٠ لذلك كانوا فى واقع الحال انما يخوضون معركة خاسرة ٠ اما دعاة التغريب فقد انساقوا فى تيار الحركة الجديدة مجاوزين الحدود المعقولة ٠ وهو ما يعكس ميلا ملموسا لدى المصريين ـ والمسلمين عامة ـ الى المبالغة ، وميل مفكريهم الى أن يخلقوا من النقطة الصغيرة الصحيحة التى بدأوا بها ، نظاما شاملا لكل ما فى السماء والأرض جميعا ! وهم حين حاولوا أن يجذوا صلتهم بالماضى كله عدا الدين ، فانما كانوا يقطعون جذورهم ذاتها ، بحيث تأثرت العقيدة الدينية هى الأحرى بهذا الجذ ٠ وما كان ليرتجى من هؤلاء فى تلك المرحلة الأولى أن يخرجوا باى أثر فكرى يتسم بالابتكار ، وهم الذين ظلوا يتخبطون فى حيرة واضطراب نجما عن هذه الثورة المفاجئة ، وكان انتحالهم لأفكار الغرب وقيمه أسرع من أن يسمح بتجاوز السطح الى ما هو ابعد من السطح ٠

ومنذ أن قال الخديو اسماعيل ان مصر اضحت قطعة من اوروبا ،

نهضت نخبة من المفكرين بمهمة التعبير عن استقلال الفكر المصرى عن التقاليد الآسيوية والافريقية ٠ بدأوا بتمجيد مظاهر المدنية الغربية القائمة على العلم ، وأثنوا على مصر اذ أثبتت استعدادها للأخذ بأساليب الارتقاء من دون جلبة ، وقبول الخير لا تسأل عن مصدره ، والدخول فى طور النهضة التى دفعها الغربيون اليها ٠ فأكثر ما فى مصر والبلاد العربية الأخرى من أمارات النهضة هو من حسنات الغرب عليها ٠ عرفنا منه فكرة مساواة الناس عامة أمام القانون ، وحرية العمل وحرية الاعتقاد والفكر ، وحقوق الانسان والمعنى الحقيقى للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، ومعنى الوطن والوطنية ، وفهمنا أن البقاء والتقدم منوطان بالتضامن والتكافل بين أفراد الشعب ، وأنه بقدر حظنا من الماديات تكون صحة المعنويات ٠ ومن الغرب اقتبسنا اختراع الطباعة ، وأصول الصحافة ، وتعلمنا السفر فى القطارات ثم الطائرات ، وكيفية مكافحة الأوبئة ومقاومة الأمراض ، وبناء الجسور وتوليد الكهرباء ، وتنظيم المدن ورصف الطرق ، وتوصيل المياه النقية فى الأنابيب ، وبناء الخزانات وادارة المصارف وانشاء الجمعيات الخيرية ، وتأسيس الأحزاب السياسية والشركات الصناعية ، ورعاية أصحاب العاهات وتحرير المرأة والرقيق ، ونقلنا عنه المسرح فالسينما ، والراديو فالتليفزيون ٠ بل ان للغرب علينا فضل اماطة اللثام عن تاريخ مصر القديمة ، وتعريفنا بأمجاد اجدادنا الفراعنة ٠ وله الفضل فى نهوضنا باللغة العربية ، وبعث اهتمامنا بأمهات كتب تراثنا الاسلامى ٠ فالأوروبيون هم الذين أنشأوا منذ القرن الرابع عشر مدارس فى قارتهم لتعليم اللغة العربية ، وتهافتوا على اقتناء مؤلفات علماء المسلمين ٠ فما اخترعت الطباعة حتى كانت المخطوطات العربية من أوائل ما طبع فى أوروبا من كتب ، فى حين أصر المشايخ فى دار الاسلام على تحريم الطباعة ٠ وقد عنى الأوروبيون بتحقيق المؤلفات العربية النفيسة فى الطب والطبيعة والفلسفة تحقيقا علميا نقلنا أصوله عنهم ٠ فبفضلهم عرفنا

تراث أسلافنا وطرق احيائه ، وعرفنا مزاياه ووسائل الاستفادة منه ٠ وهم الذين دربونا على العناية بالآثار فى بلادنا ، ونبهونا الى أهميتها فبدأنا ندرسها ٠ وبدراستنا لأمهات الكتب فى تراثنا ارتقت لغتنا العربية ، ونمت ملكات مؤلفينا ، ولولا الغرب لما نبغ لدينا شعراء أو كتاب ٠ واختصارا فانه ان كان الغربيون قد أخذوا عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية ، فهم اليوم يعيدون الينا ، عن سماحة نفس ، شيئا مما تعلموه من أجدادنا ، بعد أن زاد بعلمهم وبارتقاء الزمن وتداول الأيام ٠ فلا يشقن ذلك علينا ، فهذه سنة المدنيات التى درجت عليها البشرية ٠ ولا غضاضة على المتأخر اذا أخذ عن المتقدم ٠ ولا أمل لمصر أو لغيرها من الدول المتخلفة فى اللحاق بركب المدنية الا بتبنى المزيد من حضارة الغرب ٠ فان كان فى مدنيته مساوىء ، فلكل مدنية مساوىء تندمج فى مطاوى الحسنات ٠ وحيث أن المدنية وحدة لا تتجزأ ، من أخذ بخيرها لا بد أن يستهدف لشرورها طوعا أو كرها ، فان أمر الفصل فى الأخذ منها أو الازورار عنها يتوقف على نسبة حسناتها الى سيئاتها ٠

هذا الموقف لدى طائفة كبيرة من الكتاب كان تعبيرا أدبيا واعيا عن ظاهرة عامة متفشية بين الأفراد العاديين من سكان المدن ، وبلورة لاتجاه متصاعد نحو تبنى أساليب العيش والسلوك والقيم الغربية ، ونظرة الى أبناء الحضارة الغربية على أنهم من معدن نفيس ، وباعتبارهم السادة والمعلمين ، واعتقادا بأن للقبعة فضلا على العمامة والطربوش لأنها تغطى رأسا ممتازة ٠ أضحى لفظ « الخواجة » لدى الرجل العادى والمثقف على سواء مرادفا للجنس الأسمى ، وصارت محاكاته فى كل شىء ، من تبنى قيمه الى تقليده فى زيه ومسلكه العادى ، مقياسا للتقدم والرقى ٠ وصحب ذلك بالضرورة موقف احتقار لكل ما هو « بلدى » ، وسخرية بالتقاليد ، واهمال للغة العربية ،

وازدراء لتراث الأقدمين ، ووصف كتبهم بالكتب الصفراء ، ونسبة التخلف الراهن الى التعلق بهذا التراث وهذه التقاليد البالية وارتباط مصر بالشرق الهمجى ٠

والمصريون بالذات من أكثر الشعوب احسـاسا بنقائصهم ، ومرارة فى الحديث عن بلدهم ، وميلا الى التندر على أنفسهم ، والى المقارنة بين أحوالهم المتعثرة وبين أحوال الغرب ٠ اذا أراد مثقفوها اثبات قضـية عززوا حجتهم برأى مفكر أوروبى ٠ وما من فنان أو كاتب تثبت لديهم كفاءته الا اذا كان « عالميا » ، أى معترفا به من الغرب ٠ وهم يهللون تهليل الأحمق ان قرأوا ثناء من كاتب أوروبى على الاسلام ونبيه ، ولا يجدون ما هو أدعى الى الفخر من الاشارة الى اعتناق جارودى للاسلام ، والى تأثر دانتى فى كوميديته الالهية برسـالة الغفران ، وينعتون المعرى بلوكريتيوس العـرب ، وابن خـلدون بمونتسكيو العرب ، والجاحظ بفولتير العرب ، وكأنما فى هذه النعوت شهادة موثقة بفضلهم ٠

واذ رسخت فى النفوس عقيـدة أن التغرب العقلى هو التفوق بعينه ، حدثت نقلة أخرى حين اتجـه بعض المفـكرين المصريين ، مثـل طـه حسين (الذى التقط فكرته من كتاب لجورج ديهاميل الفرنسى !) ، الى التشكيك فى عروبة مصر وانتمائها الى الشرق ، ونعنى أن يكون العقل المصرى شرقى التصور والادراك والفهم والحـكم على الأشياء ، وتأكيد صلة مصر الوثيقة منذ فجر تاريخها بشـعوب البحر الأبيض المتوسـط (بحر الروم) واوروبا ، لا بالعرب والأفارقة ، والقول بأن الوحـدة الدينية واللغوية لا تصلح أساسا للملك وقواما للدولة ٠ وقد كانت مصر من اسبق أقطار الدول الاسـلامية الى استرجاع شخصيتها القديمة التى لم تنسها فى يوم من الأيام ٠ والتاريخ يحدثنا بأن رضـاها عن السـلطان العربى بعد الفتـح لم يبرأ من السـخط ،

ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن الا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل أحمد بن طولون ، وفى ظل الدول المختلفة التى قامت بعده • فالسياسة شيء والدين شيء آخر • وانما يقوم نظام الحكم وتكوين الدول على المنافع العملية والمصالح الاقتصادية والحضارية قبل أن يقوما على أى شيء آخر • وكما أن اوروبا لم تصبح شرقية بانتشار المسيحية فيها ، فان مصر لم تصبح شرقية أو عربية بانتشار الاسلام فيها • فالاسلام لم يغير العقل المصرى المتأثر أساسا بحضارة بحر الروم • ولا ينبغى أن يحسب المصرى أن بينه وبين الأوروبى فرقا عقليا قويا أو ضعيفا، ولا أن يظن الشرق الذى ذكره كيبلنج فى قولته الشهيرة « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » ، يصدق عليه أو على وطنه ، ولا أن يحسب قولة الخديو اسماعيل التى جعل بها مصر جزءا من أوروبا فنا من فنون التمدح والمفاخرة ، وانما كانت مصر دائما جزءا من أوروبا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية •

« فان كان المصريون أجمعون يقرون بحاجتهم الى نهضة سياسية واقتصادية وثقافية ، فلا بد من أن يقروا بحاجتهم الى وسائل هذه النهضة • ووسائل هذه النهضة هى أن نتعلم كما يتعلم الأوروبى ، ولنشعر كما يشعر الأوروبى ، ولنحكم كما يحكم الأوروبى ، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبى ، ونصرف الحياة كما يصرفها • فهذه الوسائل هى التى مكنت للأوطان الأوروبية والأمريكية أن تكون حرة فى داخلها ،مستقلة فى خارجها ، كريمة فى نفوسها وفى نفوس الناس »[١] •

كان مدشن هذه النزعة المصرية أحمد لطفى السيد المدير السياسى

---

(١) « مستقبل الثقافة فى مصر » الجزء الأول •

لجريدة « الجريدة » التى تأسست عام ١٩٠٧ ، وأصبحت لسان حال حزب الأمة ، والتى آزرها المستعمرون البريطانيون سعيا منهم الى مقاومة تيار الجامعة الاسلامية ، والتمهيد لفصل مصر عن الدولة العثمانية • ونسجل فى هذا المقام ملاحظة طريفة • فمع ظهور الاتجاهات المتباينة فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، من وطنية واسلامية وعلمانية وعربية وتغريبية ، كان المفروض أن يتجه الأفراد الذين يجمعهم فكر واحد ، الى تكوين حزب له برامج صيغت على ضوء مبادئهم ، ثم يؤسس الحزب جريدة له تنشر هذه المبادىء ، ثم تجد الجريدة فى جهات عليا من يساندها ويمولها • غير أن الوضع فى مصر اتخذ صورة معكوسة : فالغالب ان تكون ثمة جهة عليا (الخديو أو الانجليز) ، حريصة على نشر فكر معين ، فتختار لذلك رجلا مناسبا (مصطفى كامل أو لطفى السيد) ، فيؤسس هذا الرجل جريدة تحتضن هذا الفكر (« اللواء » أو « الجريدة ») ثم يتجمع حول الرجل والجريدة أفراد لهم مبادىء أو ميول مماثلة ، فيتكون الحزب منهم (الوطنى أو الأمة) !

وقد التف حول لطفى السيد وجريدته شباب جيل جديد نالوا من العلم الغربى حظا أوفى من حظ أسلافهم ، واستوعبوا قسطا كبيرا من روح الثقافة الغربية من خلال اتصالهم الطويل بها فى سنى الطلب ، خاصة فى فرنسا • ولم تكن آمال هؤلاء مقتصرة على أن يروا بلادهم حرة من الناحية السياسية فحسب ، بل أن تكون أيضا قادرة على أن تتبوأ مكانا لائقا بها فى العالم المتحضر • وقد كانت غالبيتهم فى الوقت نفسه مسلمين ممن دفعتهم تعاليم الشيخ محمد عبده الى محاولة تكييف الأصول الاسلامية لتلائم المتطلبات الحديثة فى الحياة والفكر • ومع ادراكهم العميق للتناقض القائم فى مجتمعهم ، كانوا يؤمنون بأن ازالة هذا التناقض ممكنة وواجبة ،

شريطة ألا تتم هذه الازالة بالعودة الى القديم ، ولا بقطع كل صلة به ، وانما عن طريق التربية والتعليم والاصلاح المتدرج مهما بدا للبعض انه أبطأ مما ينبغى ٠

وقد بدا من هؤلاء ميل ملموس الى الحديث عن مصر لا عن العالم العربى ٠ فهم وان أقروا بأن مصر جزء من ذلك العالم ، أكدوا ضرورة أن تسهم اسهامها الخاص فى الأدب والفكر ، بل ورحب بعضهم بالتوسع فى استخدام العامية المصرية على حساب الفصحى فى المؤلفات الروائية والدرامية ٠ واذ تميزت تلك الفترة بالذات ، فترة ظهور هؤلاء ، بكثرة الاكتشافات الأثرية الفرعونية ، وتدفق الكتابات عن تاريخ مصر القديم وأمجاد الفراعنة ، فقد صادف ذلك هوى فى نفوس أفراد هذه الطائفة ، ورد اليهم الحديث عن عظمة الأسلاف الثقة فى أنفسهم ٠ ذلك أن فى ربط الهوية بالماضى السحيق سبيلا الى الهرب من ذكريات ماض قريب لا تشير الى غير تبعية مصر للخلافة الاسلامية أو السلطنة العثمانية ٠ لذا انبرى هؤلاء يؤكدون أن لمصر ، منذ زمن الفراعنة ، عبقرية مميزة صبغت بسماتها كل مستورد حضارى ٠ وبلغ الاعتزاز بمآثر مصر القديمة عند الدكتور محمد حسين هيكل بالذات حد الغيرة من مآثر العرب ، والتنكر الغريب للأدب العربى القديم الذى اعترف بأنه كف عن الاكتراث به منذ عام ١٩١٠ ٠

ثم مضى سلامة موسى الى أبعد من ذلك ٠ فالأدب العربى القديم عنده يفتقر الى المعرفة الصحيحة ، والى الاتصال بحقائق الحياة ٠ وبعد أن كان فى البداية راضيا بأن يترك للتراث الاسلامى نصيبا ثانويا فى تكوين الثقافة المصرية الحديثة ، صار بعد ذلك يدعو الى قطع الصلة بالماضى على نحو بات ، والتركيز على تشرب الفكر الغربى ٠ ومع أن الآراء التى انبرى سلامة موسى فى حرقة للدفاع عنها ، كنظرية التطور مثلا أو العدالة الاجتماعية ، لا تتميز

فى كثير أو قليل عن الآراء العادية لأى مثقف أوروبى ، فقد اتهم فى مصر بالجرأة الزائدة ، وبأنه يمثل الجناح المتطرف فى حركة المجددين المصريين ، لمجرد أنه ، وهو المسيحى ، كان يتناول تناولا صريحا موضوعات لا يدنو المسلمون المجددون منها الا بشعور من الحذر والرهبة ٠

على اى حال ، فقد كان لهؤلاء التغريبيين العلمانيين فضل لا ينكر فى هدم جانب كبير من التأثير الضار للمحافظين الجامدين ، وفى تعويد الجيل الجديد على التفكير على خطوط وانماط جديدة لم تكن شائعة من قبل ، وفى ترويج مناقشة موضوعات حيوية كالمحافظة والاصلاح ، والدين والعلم ، والجمود والاجتهاد ، والأوتوقراطية والحكومة النيابية ، وموقف مصر من دول الفرنجة ٠

ولم يكن دعاة التغريب ليفرقون فى الواقع بين دول الفرنجة حتى تبنى بعضهم مبادىء الماركسية ٠ غير ان هؤلاء الاخيرين ظلوا امدا طويلا عاجزين أو عازفين عن تقديم فكر جديد مستقل نابع عن الواقع المصرى ٠ فهم رغم انشغالهم أساسا بقضية العدالة الاجتماعية فى مصر ، وتصفية الاستعمار والقضاء على الاستغلال ، والربط بين الثورة الوطنية والتحول الاشتراكى ، ظلوا فى فكرهم وتنظيمهم عالة على الاتحاد السوفيتى ، خاضعين خضوعا شبه مطلق لتفسيراته النظرية ، ومواقفه السياسية التكتيكية ، ان رأى فى فكرة القومية العربية خطرا حاربوها ، وان دعا الى مصالحة عربية اسرائيلية دعوا اليها ، حتى اذا ما عاد يهاجم اسرائيل هاجموها ٠ وكان هذا التذبذب والتناقض ، والخشية من الاجتهاد ، واهمال استلهام الواقع المحلى ، أسبابا رئيسية فى ضعف اجتذاب فكرهم للجماهير العريضة ، حتى من العمال والفلاحين ، وذلك بالرغم من احجام غالبيتهم عن الدخول فى معارك صريحة ضد التراث والدين ، مع ايمانهم القطعى بانهما لا يصلحان اساسا لتنظيم

اجتماعى ، أو رابطة سياسية • والملاحظ بوجه عام أنه رغم انتشار الالحاد بين كثرة من المثقفين المصريين ، فانه نادرا ما جرؤ كاتب من بينهم على التعبير فيما يكتب عن آرائه بصدد الدين ••



خـــاتمة

مـا من شـك فى أن مسـتقبل الأمة يتوقف بصفة أساسية على قدرتها على التوصل الى مفهوم ايجابى يسـاعدها على مواجهة التوترات الناجمة عن تغيرات هائلة طرأت على المجتمـع المصرى فى القرنين الماضيين ، والتغلب على القوى المخربة التى تدفع المجتمع دفعا الى المزيد فالمزيد من التفكك والتحلل •

كذلك فانه ما من شـك عندى فى ان كافة الحلول التى طرحت خلال المـائة سنة الأخيرة ، والتى عرضنا لها فى هذا البحث ، معيبة قاصرة :

● فالمحـافظون الرافضـون لـكل تجديد ولـكل مسـاس بالأفـكار والمعتقدات الموروثة ، قد فقدوا صلتهم بالعصر واحتياجاته ، ولم تعد حججهم بالقادرة على اقناع المثقفين ، وهى التى يصـوغونها دوما فى قوالب فـكرية شـكلية تستند اسـتنادا كاملا الى أقوال السلف ، مما لا يمكن أن يتجاوب المحدثون معه • بل انهم حتى فى اللغة التى يستخدمونها ، بل وفى طريقة نطقهم لها ، يوحون على الفور بخلو جعبتهم من رسـالة لعصرنا الذى نعيش فيه • ففـكرهم تستغرقه التكاليف الشرعية ، وجهودهم تكاد تكون قاصرة على مراقبة نشـاط المصلحين والمجددين ثم الوثوب عليهم والأخذ بخناقهم . بحجة أنهم حمـاة الدين والأخلاق ، خاصة ان كان المجـدد من علمـاء الدين مثلهم ، كالشـيخ على عبد الرازق الذى دعا عام ١٩٢٥ الى فصـل الشؤون المدنية عن التشريع الدينى ، والشـيخ محمد أبو زيد الذى نشر عام ١٩٣٠

تفسيرا للقرآن يفسر فيه الظواهر الخارقة تفسيرا طبيعيا حتى يشجع الجيل الجديد على العودة الى الاهتمام به · وما من أحد منهم حاول أن يوجه الاسلام فى قنوات خلاقة ، وانما قيدوه بنظرة رومانسية درامية لتاريخه ، أساسها أحكام مطلقة على شخصياته وأحداثه ، وانتقاء تحكمى للمادة ، واستبعاد لكل ما ينقض الصورة التى يفضلون أن تكون أحداث الماضى قد تمت عليها · وهم بهذا أغلقوا الباب فى وجه أهم عامل كان بوسعه أن يحفظ على الفكر الاسلامى مرونته ، ويحول دون تعفن العقائد ، ألا وهو المنهج التاريخى العلمى ، والنظرة التاريخية الى الأمور · فبالرغم من ايمانهم بأن التاريخ هو مظهر الارادة الالهية فى المجتمع البشرى ، لم يكن فى وسعهم أبدا أن يفرقوا بين الحقائق والأوهام التى هى من صنع مخيلتهم ، ولا أن يدركوا أنه ما دامت الارادة الالهية قائمة فى التاريخ ، فان رفض استقصاء الحقائق التاريخية فى أمانة مطلقة ، والعبث بها من أجل ادخالها فى اطار محدد سلفا ، لا يعنيان غير عدم اكتراثهم بمعرفة كنه هذه الارادة · فان دفعوا بأن الاسلام كان دائما مع العلم والبحث العلمى ومواجهة الحقائق دون خوف ، أجبناهم بأن نعم ، فمن المسئول اذن غيركم عما يعانيه البحث التاريخى الموضوعى فى الاسلاميات اليوم من اختناق ؟

لقد دفع موقفهم غير المسلمين الى اتهام الاسلام بالتعفن · وهو ليس كذلك ، وان كان العفن قد أصاب القائمين على أمره · وانما هو عقيدة حيوية حية كان بوسعها وسيظل بوسعها ، أن تستميل الملايين من القلوب والعقول والضمائر المستنيرة ، وأن توفر الاطار لحياة غنية تقية منتجة ·

● وأما المصلحون الاسلاميون التوفيقيون ، فموقفهم فى جوهره مشابه لموقف دعاة التغريب العلمانيين ، وبالتالى فانهم لم يطرحوا بديلا حقيقيا للقيم الغربية ، اذ انبروا لمؤازرتها ببيان شبهها بالاسلام ، فان كان

دعاة التغريب قد أعلنوا أن « القيم الغربية هى القيم المثلى ، فلنتبناها ! » ، فان المصلحين التوفيقيين قد اعلنوا أن « القيم الغربية شبيهة بالقيم الاسلامية، فلنتبناها ! » . وقد ظل هؤلاء دوما يلهثون فى عدوهم وراء التغريبيين كى يبرروا كل جديد ، ولكى يوجدوا الأسس الدينية لتبنى المفاهيم الغربية . فان كان العلمانيون قد نادوا بأن العلم والعقل هما مفتاحا التقدم والحضارة ، فقد تركوا للمصلحين الاسلاميين مهمة اثبات ان الاسلام يقر هذا الموقف . أو على حد تعبير الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر واحد التلاميذ المخلصين للامام محمد عبده :

« لا يمكن ان يكون ثمة صراع بين الدين الحق والعلم الحق . فان نحن وثقنا بصحة نظرية علمية تبدو مناقضة لتعاليم الاسلام ، فانما سبب ما يبدو لنا من تناقض هو اننا لم نفهم القرآن والحديث فهما سليما ؛ والقاعدة المتفق عليها فى الاسلام هو أنه كلما خالفت شواهد علمية نصا قرآنيا ، فعلينا ان نعتبر النص رمزيا . هذا علاوة على القرآن هو بلسان عربى ، والعربية كما تعرفون شديدة المرونة » !

وقد اتسم معظم هؤلاء المصلحين الاسلاميين بالافتقار الى احترام الرجل العادى فى مجتمعهم ، والى الثقة فى قدراته واستعداده الروحي . وهم فى هذا يشتركون مع دعاة التغريب ويختلفون اختلافا جذريا عن قادة الجماعات الاسلامية الجديدة . اذ بينما تعبر هذه الجماعات عن مشاعر الرجل العادى ومفاهيمه ، يسعى المصلحون الى أن يسوقوه سوقا الى ما يرونه هم خيرا له . ولعل هذا الافتقار الى الثقة هو الذى حدا بهم الى الاصرار على قيام علاقة أساسية بين السلوك الاجتماعى والعقيدة الدينية ، وعلى أن اصلاح المجتمع لا يمكن ان يتم الا عن طريق الدين لا مستقلا عنه ، وذلك لاعتقادهم أن المصرى متى خبا نور الدين فى قلبه فسد خلقه ، ولا مندوحة عن استقامة

الخلق فى أية محاولة للاصلاح الاجتماعى ٠

• وأما دعاة القومية العربية والوطنية المصرية ، فلم تكن ثمة صلة حقيقية بينهم وبين الجماهير ٠ فالفكرتان ليستا عميقتى الجذور ، ان كان بامكانهما أن توحدا الناس ضد الأجنبى حتى ينالوا استقلالهم ، او يحققوا وحدة بينهم ، فانهما سرعان ما يذبلان بعد ذلك حين تفضح خيبة الأمل خرافة الاكتفاء ، ويبرز استمرار الحرمان والظلم والتخبط بعد نيل الاستقلال مسئوليتنا الكاملة عن هذه الشرور ٠ وعلى اى الأحوال ، وكما سبق أن ذكرنا ، فليس هناك من هو أضعف من المصرى ثقة بقومه ، وثقته بغير قومه من العرب أوهى وأضعف ٠

• وأما عن دعاة التغريب والعلمانية ، فانهم مع كل تحمسهم للديموقراطية والمساواة وغيرهما من المفاهيم الغربية ، لم يكن بوسعهم قط الادعاء بأنهم يعبرون عن ارادة الشعب ، وانما افصح لسان حالهم عن أنهم انما يسعون للصالح العالم باعتبارهم الصفوة ، ولأنهم أدرى من الشعب باحتياجات الشعب ومصالحته ، وقد يقرون أحيانا بضرورة الهبوط الى مستواه ٠ فهم صفوة حسنة النية ، غير أنهم دائما صفوة ، مباينة للجماهير فى عقائدها وطريقة تفكيرها ٠ صحيح أن المفهوم العلمانى والاتجاه الى محاكاة الغربيين كانا قد انتشرا فى صفوف الجماهير من جراء التعليم المدنى ، ووسائل الاتصال والاعلام المتزايدة ، والتصنيع والحياة فى المدن ، وانماط الاقتصاد وغيره ، وان تأثير الفرنجة انما كان ضخما بقدر ما كان الفراغ فى الساحة المصرية ضخما ٠ غير أن الثابت الواضح الآن أن الولاء الاول لدى الجانب الأعظم من الجماهير فى مصر هو للاسلام دون غيره ، وان الفكر الاسلامى لا يزال له بعد أربعة عشر قرنا سلطان عليها تصعب زعزعته ٠ وقد تعاظم تأثير فكر الجماعات الاسلامية المتطرفة فى العامة نتيجة لتدهور

مستوى التعليم بعد ثورة عام ١٩٥٢ · وبالتالى فقد ضعف تأثير دعاة التغريب فيها ، خاصة أن القليلين منهم فحسب هم الذين تأثر فكرهم بالاسلام ، لا يعرفون تعاطفا مع غيرهم من المسلمين الا ان كانوا عربا ، ولا يتحمسون لاقامة روابط أقوى مع المسلمين فى تركيا مثلا أو فى ايران أو باكستان ·



وسيظل الحل دائما كامنا فى العقيدة الدينية · وهو حل لا يمكن تاجير توفيره زمنا أطول دون حلول كارثة تتمثل فى اصابة مجتمعنا بالتحلل · غير انه لن يكون حلا حقيقيا ما لم نعد صياغة هذه العقيدة الدينية صياغة علمية تتفق مع العالم الحديث ، وتحقق للأقليات الدينية المساواة الكاملة ، وما لم نعد تقييم المادة التاريخية بنفس الدرجة من الأمانة التى ظلت قائمة لدى المسلمين حتى القرن الرابع الهجرى ، ثم هدمها علماء الدين حتى لا يكون للتاريخ من غرض غير الدروس الأخلاقية والعبرة الدينية · فمثل هذه الأمانة التاريخية هى وحدها القادرة على أن تعيد الى الاسلام مرونته المطلوبة لمواجهة مشاكل الوجود ، ومسايرة احتياجات العصر · أما التطلع الرومانسى الى الماضى من أجل أن نخفى عن أعيننا مسئوليات الحاضر وضرورة التأهب للمستقبل ، فلا يعنى غير تكييف هويتنا على ضوء ذكريات مزيفة ، ذكريات فى بطون كتب لا تقرأها الغالبية ، وتقرأها الأقلية اما للافتخار ، أو للاحتجاج باطروحات قررتها تطلعاتها وكبرياؤها ·

والحل على أية حال لن يتأتى الا بصراع · وما من أحد يتوقع للحق أن يثبت ذاته فى سهولة ويسر · كما أنه من قبيل الغفلة والافراط فى التفاؤل أن نثق بأن النصر سيكون حتما حليفه ·

التيارات الإسلامية في مصر خلال السبعينات

كانت هزيمة العرب فى حرب حزيران عام ١٩٦٧ نقطة تحول جوهرية فى تاريخ التيار الاسلامى فى مصر ٠ فمن ناحية اصيبت المطامح البعيدة التى اثارتها السنوات الأولى من حكم عبد الناصر لدى الشباب المصرى بضربة ساحقة كان لا بد معها من اعادة تقييم الأوضاع باسرها ٠ ومن ناحية أخرى فقد انطوت تلك الحرب على كافة العناصر الباعثة على الثورة ، ألا وهى : الهزيمة العسكرية ، وانهيار الجبهة الداخلية ، وسخط المثقفين ، واتساع الفجوة الفكرية التى تفصل بين الأجيال ٠ وقد شاع عندئذ الاعتقاد بأن الوطنية وحدها لا تكفى ٠ وهو ما عناه عبد الناصر نفسه اذ أشار فى أول خطاب عام له بعد الهزيمة الى أنه لا بد من التمكين للدين من أن يلعب دورا فى المجتمع أهم من دوره فى الماضى ٠ كما شاع بين الناس تفسير دينى للهزيمة ، وهو أن اليهود انما انتصروا بفضل اخلاصهم لدينهم ، ولأن دولتهم قائمة على مبدأ دينى لا علمانى ، ولأن الدين أصلح من فكرة القومية فى اثارة حماس المقاتلين ٠

وقد اتجه البعض بعد الهزيمة الى الدين يلتمس فيه السلوى ، وانتعشت الاتجاهات الصوفية شأنها دائما عقب الكوارث الحربية ٠ غير أن هذه التوجهات الفردية السلبية بدت هزيلة بالمقارنة بما ساد لدى غالبية الشباب من اتجاه يربط بين الدين والثورة ٠ فقد رأى هؤلاء أن ما يسمى فى العالم العربى بالثورات ، هى فى حقيقة أمرها مجرد انقلابات لا تمس لب الأنظمة ، وأن الحكام حين يشيدون بالاسلام لا يشيدون به عن تقوى

مخلصة ، ولكن عن رغبة فى استغلال تقوى الجماهير ، وأن المؤسسات الدينية كالأزهر لا تعدو أن تكون خادمة للنظام ، ولا يتعدى دورها مباركة خطوات الحكومة ولو تناقضت ، واصدار الفتاوى وارسال برقيات التهنئة للرؤساء سواء بمناسبة الدخول فى حرب ، أو ابرام اتفاقية سلم ، أو اعلان نية انتهاج الطريق الاشتراكى ، أو التحول عن الطريق الاشتراكى الى سياسة الانفتاح .

وعندما تولى السادات الحكم فى أواخر عام ١٩٧٠ ، كانت صورة التيار الاسلامى فى مصر قد تغيرت ، وان ظلت الحكومة لعدة سنوات بعدها على اعتقادها أن قوام هذا التيار اما الفلول الباقية من جماعة الاخوان المسلمين ، أو أفراد من الأتقياء لا يجمعهم تنظيم ، وأن السبيل الى التعامل مع هؤلاء وأولئك هو عن طريق المؤسسات الدينية (الحكومية) ، أو شراء الذمم ، أو التأثير بمختلف الوسائل فى الشخصيات الدينية المرموقة المؤثرة بدورها فى الأفراد والجماعات . غير أن واقع الحال هو أن قوة جماعة الاخوان (بمفاهيمها العتيقة عن التغيير) كانت قد بدأت تنحسر أمام مد جماعات جديدة عديدة أكثر ثورية وغلوا ، وأقل تبحرا فى علوم الدين ، (وان كان البعض لا يزال الى الآن يعتقد أن هذه الجماعات ان هى الا صور جديدة لجماعة الاخوان التى اضطرت فى حربها ضد السلطات الى اللجوء الى التمويه والتظاهر بتعدد الاتجاهات كستار لنشاطها) .

وكان للسادات منذ البداية هدفان رئيسيان : تدشين انفتاح اقتصادى يخدم مصالح الغرب ، واحراز قدر من النصر فى حرب مع اسرائيل يرد للعرب كرامتهم الضائعة ويبرر اقدامه فيما بعد على ابرام اتفاقية سلام . وقد اصطدم بالضرورة مع الناصريين واليساريين الذين باتوا الآن يحاربونه تحت لواء واحد ، خاصة منذ تحوله الصريح عن اشتراكية عبد الناصر وعن

صداقته مع الاتحاد السوفييتى • وكان لا بد للسادات من الاعتماد على أعداء هؤلاء • غير أن اليمين السياسى كان وقتها من التعفن والافتقار الى الشعبية بحيث لم ير السادات مناصا من الاعتماد فى المقام الأول على التيار الاسلامى ريثما تتهيأ لشخصه شعبية تغنيه عن كل هؤلاء • وكان أن توصل الى مصالحة مع جماعات اسلامية (ساهم الملك فيصل فى تدبيرها صيف عام ١٩٧١) ، بعد اقناعها باتفاق أهدافه واهدافها (مقاومة الشيوعية والالحاد) ، ووعدها بالسماح لها بممارسة نشاط علنى •

وقد كان السادات أكثر من سخى فى وفائه بوعده • فهو لم يكتف بالسماح لصحف الجماعات الاسلامية بالظهور ، وبمد هذه الجماعات بالأموال ، وانما تعدى ذلك الى مدها بالأسلحة لاستخدامها عند الضرورة ضد اليساريين • وبعد أن كان لهؤلاء الأخيرين الهيمنة على اتحادات الطلاب فى الجامعات ، مكن للجماعات الاسلامية من سلب هذه الهيمنة ، وتغاضى عن جو الارهاب الذى أفلح التيار الاسلامى فى فرضه على سائر الطلبة بل وعلى الأساتذة انفسهم • وكان من أعوانه المقربين من اهتم بأن يوفر لأعضاء الجماعات من الجنسين الزى المسمى بالاسلامى ، والوظائف داخل القطر وخارجه ، ولحديثى الزواج منهم الشقق السكنية والمساعدات المالية • كل هذا فى سبيل دعم قوة تخدم أغراض السلطة وتضرب مناهضيها •

والى جانب هذه المساعدات من جانب الحكومة ، تدفقت الأموال على هذه الجماعات من انظمة دول اسلامية معينة تستهدف أمرين : ضرب الفكر اليسارى فى المنطقة ، والتحكم فى قوة مؤثرة فى سياسة اقوى دولة عربية • وقد كان لهذا التدليل وهذه المساندة اللذين تلقتهما الجماعات الاسلامية من النظام فى الداخل وانظمة غنية فى الخارج ، اثرهما فى زيادة احساس أفرادها بقوتهم ، وبقدرتهم على التعامل مع السلطات المصرية معاملة

النـد للنـد ٠

وزاد هذا الاحسـاس قوة تهافت الآلاف المؤلفة من الشـباب المصرى وافراد طبقة البورجوازية الصغيرة على الانضـمام الى هذه الجمـاعات ، حين بدأت تظهر للأعين الآثار الوخيمة لسياسة الانفتاح الاقتصـادى التى انتهجها السـادات ٠ لم ينخـدع هؤلاء بفقهـاء السـلطان ينصـحون بالاعتـدال ، وباجراءات حكومية مثل دعم برامج اذاعة القرآن الـكريم ، وبالآذان يقطع برامج التيليفزيون ، أو بالصور العديدة للرئيس المؤمن يؤدى صلاة الجمعة أو العيد ٠ وانما رأوا فى الانفتاح الداعر على الغرب تهديدا للقيم الاسـلامية كلها ، وللتقاليد المصرية ، ولكل خيط ولو رفيع فى نسيج الأمة ٠ كان معظم من افاد من الانفتاح ممن لا أخلاق لهم ولا مبدأ ٠ وضاع مع التضـخم طبقة الموظفين والبورجوازية الصغيرة ٠ وأضحت السلع فى متناول القلة وحدها ، وهان على النسـاء بيع الاعراض فى سبيل تملك هذه السلع ٠ وصار من المألوف أن يعير الأبناء آباءهم بالتمسك بالمبادىء والشرف ، وقد باتت هذه المبادىء وهذا الشرف عقبة كأداء فى سبيل تملك الثروات ٠ واضحى لتجار المخدرات الهيمنة والنفوذ ٠ وداخل أصحاب العلم والثقافة الرفيعة الشك فى قيمة ما حصلوه وهم يرون الحرفيين البسـطاء يكسبون أضـعاف أضـعاف ما يأتيهم من دخل ٠

اضـحت من اهم ظواهر المجتمـع المصرى فى عصر السـادات ظاهرة الرعب لدى البورجوازية من أن تتحول الى بروليتاريا ، وادراكها عجزها عن صـد التيـار الذى يجرفها تجاه هذا المصير الا بتقبلها فـكرة الانحراف ٠ وقد انحرف الكثيرون بالفعل ٠ غير أن أولئك الذين لم تسمح لهم ضـمائرهم بالانحراف ، أو كانوا اعجز من أن يزاحموا الغير على أطايب العيش ، راوا أنه لا بديل أمامهم من اجل الحيلولة دون انهيار كيانهم غير الانضمام الى جماعات

تشعرهم عضويتهم فيها بأنهم ليسوا وحدهم فى خضم الصراع ، بعضهم يشد من أزر بعض ، ويسعون جميعا الى اسقاط نظام لا يفيد منه غير القوادين والأفاقين ·

وبامتلاء صفوف الجماعات الاسلامية بهؤلاء الساخطين الذين باتوا يكونون الأغلبية فيها ، كان لا بد أن يفرض سخطهم نفسه على القيادات المتعاونة مع السادات ، وأن تغير من اتجاهات هذه القيادات ، وأن تزيد من شعورها بالاستقلال عن السلطة · وقد لمست الحكومات الاسلامية التى تمد هذه الجماعات بالعون مدى جاذبية الاسلام لهؤلاء الذين يعانون أشد معاناة من جراء الفوضى الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ، وترددت فترة ما بين مؤازرة اتجاه الساخطين وتعضيد اتجاه السادات المناهض للاشتراكية والاتحاد السوفييتى · غير أن هذا التردد سرعان ما حسمه ابرام السادات اصلحه مع اسرائيل ، فتحولت تلك الحكومات الى التأييد المطلق للجماعات الاسلامية فى سعيها للقضاء على حكم السادات ·

وقد تسبب ابرام اتفاقية السلام فى زيادة تدفق الشباب للانضمام الى هذه الجماعات · سخط البعض على هذا الصلح المنفرد لما ينطوى عليه من خيانة للقضية الفلسطينية واضعاف لشوكة العرب · غير أن الدافع لدى الغالبية كان الشعور بالاحباط اذ لم ينجم عن ابرام الصلح ذلك الرخاء السريع الذى وعدهم السادات به ، مع استمرار المشكلات المصرية على حالها من التفاقم · وقد غذى هذا السخط عندهم لجوء السادات الى سياسة القمع (بعدة فترة من الديموقراطية النسبية) ، خاصة عقب حوادث يناير ١٩٧٧ التى أسماها السادات بانفاضة الحرامية ، فى الوقت الذى كان يسمح فيه للصوص الحقيقيين من أفراد الطبقة الطفيلية المستفيدة من الانفتاح بأن يعبثوا فى الأرض فسادا كما يحلو لهم ·

الغريب فى الأمر أن السـادات لم يدرك الا متأخرا جـدا حقيقة أنه بمؤازرته للحركات الاسـلامية ، قد أطلق من القمقم عمـلاقا رهيبا لا قبل له به · حتى حركة صالح سرية الذى قاد عام ١٩٧٤ هجوما على الكلية الفنية العسكرية كخطوة أولى للاسـتيلاء على السـلطة ، وحتى مقتل الشيخ محمد الذهبى ، وكشف النقاب عن جماعة التكفير والهجرة ، لم يكن كافيا لاقناعه بالتحول عن هذه السـياسة · ولم يدرك السـادات حقيقة الوضع الا فى بداية عام ١٩٨١ حين قرر الضرب على أيدى هذه الجماعات قبل أن يفلت منه الزمام · غير أن الزمام كان قد أفلت بالفعل · وكان اغتيـال السـادات فى ٦ أكتوبر من نفس العام ، ضمن خطة من وضع احدى هذه الجماعات التى طالمـا آزرها من أجـل ضرب جمـاعة لا حول لهـا ولا قوة من النـاصريين والاشتراكيين ·

عن "التسامح" الديني

آمل أن تتسع صدور القراء ، من مسلمين وأقباط ، لما سأبديه هنا من ملاحظات ، وأن يطبق حيالي مبدأ التسامح الذي هو موضوع المقال ·

وأبدأ بملاحظة فرعية ، هي استنكاري لاستمرار استخدامنا لكلمة Tolerance (أي التسامح أو الاحتمال) ، حتى يومنا هذا · فهي كلمة ان جاز استخدامها في القرن السابع عشر وقت كتابة جون لوك لرسالته في التسامح لمقاومة ما ساد في زمنه من اضطهاد ديني ، فهي لا تعني اليوم غير قلة الاكتراث بالتفرقة بين الحقيقة الروحية والخطأ الروحي ، ولا سند لها على الاطلاق من حب الآخرين واحترامهم ·· هي كلمة توحي في واقع الأمر بنوع من الاحتقار للدين ذاته ·· فان قال لي امرؤ انه (يحتملني) ، فالمؤكد أنه ليس صديقي · وان قال انه يتسامح مع آرائي ، فالمؤكد أنه لا يحترم هذه الآراء · وفي اعتقادي أن من الواجب في زمننا هذا أن نتجاوز الاحتمال والتسامح الى الاعتراف والمعايشة ·

ثم أمضي فأقرر أنه لا أمل في تحسين وضع ، ولا بالوسع الشروع في ازالة مظالم ما دمنا سنظل الى أبد الآبدين نكرر ما اعتدنا أن نكرره من تعابير مبتذلة بالية ، لمجرد طمأنة الخواطر ، واراحة الضمائر ، وغرس الوهم في الأذهان بأن الأمور هي على خير ما يرام ، لولا حفنة من المتعصبين ، ولولا دسائس الصهيونيين والاستعماريين ، وأنه لولا هذه وتلك لخلت العلاقات الطائفية من كل شائبة ·· أقول ، انه لا أمل في تحسين وضع ما دمنا نخلط الأماني بالواقع ، فنظل نكرر عبارات مثل (ان تعاليم الأديان الكبرى تمجد

مبدأ التسامح) ، أو (ان جميع الأديان لديهـــا فى جوهرها فكرة الأخوة العالمية ورسالة مشتركة من الرحمة والمحبة) ، أو (ان المصدر الرئيسى للتسامح قائم فى التعاليم الدينية التى تبشر بعدم التمييز والاخاء والاحترام المتبادل بين البشر) ، أو (لقد فشلت كل جهـــود المستعمر الأجنبى فى التفرقة بين المسلمين والمسيحيين) ، الى آخر ما ورد ويرد من مثل هـــذه العبارات فى كتابات وتصريحات من تصدوا فى الآونة الأخيرة لهذا الموضوع٠ وانما يكمن الحل الحقيقى فى رايى فى مواجهة واضحة صريحة لوضــع قبيح صريح ٠

الاختلافات بين الأديان

ذكر بعض هؤلاء ان الاختلافات بين الأديان ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وانها جميعا متفقة فى جوهر تعاليمها ، وانه بالامكان التوفيق بينها وتوحيد اساسها كخطوة فى سبيل تعزيز التسامح الدينى ٠ مثل هذا الموقف التوفيقى فى رأيى يضع نفسه فوق الأديان كافة ، وينتحل صفة الاله وامتيازاته ، ويحل الفلسفة محل الدين ٠ وهو بالتالى موقف لادينى ٠ وعنـــدى أن كل معايشة وكل حوار بين الأديان يفقدان مغزاهما ما لم يكونا دينيين ٠ ولو صح هذا الراى الذى طالمـا ســـمعناه ليس فقط من العـوام ومحـدودى الثقافة ، بل ومن زعماء الطوائف الدينية فى مناســـبات معينة ، لصارت حصيلة الفكر البشرى أشد فقرا وجدبا وضحالة مما هى عليه اليوم ٠ فلو كانت الأديان جميعا على اتفاق فيما بينها ، لمـا كانت ثمة حاجة الى أكثر من دين ٠٠ وانما هى رؤى متباينة يعكس كل منها مفهوما مخالفـا عن الـكون والحياة والسلوك البشرى ٠ وليس اله هذا الدين باله ذاك ٠ فما الاله فى مفهومى غير حصيلة مكونات هذه الرؤية المباينة للرؤى الأخرى ٠ (لكم دينكم ولى دين) ٠

والاعتراف بهذه الحقيقة التى يدركها فى قرارة نفسه كل ذى دين يأبه له ، خطوة ايجابية فى سبيل التعايش الدينى والاحترام المتبادل بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة ، شريطة أن يستقر فى النفوس مبدأ أساسى : هو أن كل رؤية تحمل جانبا من الحقيقة لم تركز عليه سائر الرؤى ، وأن ثراء الروح البشرية والفكر الانسانى هو فى الاطلاع على كنه تلك الرؤى المباينة ، ومحاولة الغوص الى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الابداعى المتميز فيها ، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره لكافة ضروب الفكر التى أسهمت فى تشكيل البشرية ·

هل أمرت الأديان حقا بالتسامح ؟

وذهب البعض الآخر الى أن كافة الأديان قد أمرت بالتسامح واحترام الأديان الأخرى · وهو قول لن ندعه يمر ·· اى دين بالضبط أمر بالتسامح واحترام الأديان الأخرى ؟ اليهودية التى أباحت السرقة من مال غير اليهود ، والزنا بغير اليهود ، واقتضاء الربا من غير اليهود ؟ أم المسيحية بقول عيسى عليه السلام : (أجبرهم على الدخول حتى يمتلىء بيتى) انجيل لوقا ١٤ : ٢٣ ؟ أم الاسلام والقرآن الكريم يذكر صراحة (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) آل عمران ٨٥ ؟ ·

انه لمن السهل ، ومن المألوف ، أن يسترشد البعض بعبارة أو آية او حديث من هنا او هناك لاثبات ما يؤيد حجته فى اى موضوع شاء · غير انه من حقنا أيضا ان نسأله : هل هذه العبارة أو الآية أو هذا الحديث هو كل ما ورد فى الكتاب المقدس أو كتب الحديث بصدد الموضوع الذى تتحدث فيه ؟ وهل تعنى هذه العبارة أو الآية أو الحديث حقا ما تعنى أنت ، أم أنك تفرض على ما اخترته تأويلا ومعانى لم يقصدها النص ؟ وعلى سبيل المثال اذكر ان أحدهم قد استشهد وهو فى معرض التدليل على أن الاسلام قضى

بالتسامح وحرية العقيدة بآية (لا اكراه فى الدين) ، وتغافل عما أورده الطبرى فى تفسيره من أن الآية نزلت قبل أن يؤمر المسلمون بقتال أهـــل الكتاب . فهلا استشهد بآية : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليـــوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ؟ أو آية (فان لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) ؟ أو آية (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنــة ويـكون الدين لله) ؟ .

تنـافس الأديان

والخلاصة أن الخطوة الايجابية الثانية فى سبيل التعايش الدينى تتمثل فى ادراك الحقيقة التالية : وهى أنه ان كان كل من الأديان يرى لنفسه الحق فى أن يعم وأن يسود على حســـاب الأديان الأخرى ، فان فـكرة التعايش والاحترام المتبادل هى من انجازات العقل البشرى ، والعلمانية ، ومن أعظم ثمار الحصيلة البشرية من الخبرة التاريخية الطويلة المرة ... هى من خلق الانسان ، لا من وحى الأديان .

الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر . وهى بالضرورة غيورة متميزة شأن مشاعر القبلية والوطنية . ولا يكمن خطأ المتعصب فى اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان ، فهو أمر طبيعى ومشروع ، ولو لم ير المرء لدينه الحق فى الشمولية والعالمية لمـا كان هذا دينه . انه لا يلتمس لنفسه « طريقا » ، وانما يلتمس لها « الطريق » ، ولا يسعى وراء «حقيقة» ، وانما يسعى وراء « الحقيقة » . وانما يكمن خطاه فى عجزه المطلق عن ادراك ما يدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى ، وعن ادراك حقيقة أنه ليس ثمة دين مخطىء ان كان معتنقوه يرونه كافيـــا لسد احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه ، وعن ادراك أن جهود التبشير أشبه شىء

بمحاوله الاستعماريين فرض ثقافتهم وحضارتهم وأسلوب عيشهم على مختلف انحاء العالم مما لا يمكن ان ينجم عنه سوى فقر الفكر البشرى ٠

كذلك يكمن خطا المتعصب فى عزله نفسه عن الجوانب الايجابية فى الأديان الأخرى ، واتخاذه لمعتقده ووجهة نظره مقياسا للحكم على معتقدات الآخرين ٠ ومن هنا تأتى اهمية الحوار وضرورة التلاقى والتلاقح ٠ فما تلاقى الأديان غير مظهر واجب آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقى الحضارات والشعوب فى عصرنا هذا ٠ ولا يعنى هذا مطالبة اتباع اى دين باطراح اية حقيقـــة جوهريه فيه ٠ وانما يعنى تجاوزنا الاستماع فى صبر ، والجدال فى تادب ، الى النضج الذى يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين ، بل والى تصحيح بعض مفاهيمنا عند الضرورة ، والى التفرقة بعناية اكبر بين الجوهرى وغير الجوهرى فى الدين ، وبين الرمزى وغير الرمزى ، ثم اعادة صياغة الجوهرى واعادة تفسير الرمزى ٠

على المسلمين مثلا أن يبذلوا جهدا أكبر فى التعرف على تعاليم السيد المسيح وتفهمهـــا ، والا يثبطهم ايمانهم بتحريف التوراة والانجيـــل عن دراستهما ٠ وعلى المسيحيين أن ينظروا مثلا فى امكان اعادة صياغة عقيـــدة التثليث بهدف التركيز على وحدانية الله التى يقول بها الاسلام ، وأن يشرعوا فى تقييم محمد صلى الله عليه وسلم تقييما أكثر ايجابية ينطوى على الاحترام والتقدير والفهم ٠ وهو ما لن يتعارض مع جوهر المسيحية ٠ وعلى الجميع أن يبدوا استعدادا لتقبل نتائج الفكر العلمى الحديث ، خاصة تلك النظريات المتعلقة بالدين فى كل من علمى النفس والاجتماع ، وتقبل منهـاج البحث التاريخى الحديث فى الدين ، وتعديل مناهجهم الفكرية ٠ وعلى هؤلاء وأولئك أن يدركوا أن اقدام المرء على تعميق فهمه لدين الآخرين يعنى تعميق فهمه لدينه هو ، وقديما قالوا : من لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه ، ومن لم

يعرف غير لغته لم يعرف لغته ، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه . كما عليهم أن يدركوا أن المتـــدين الحق ليس من كان بوســـعه تفنيد الأديان الأخرى ، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجالين المشعوذين فى برامجهم التليفزيونية ، وانما المتدين الحق هو من كان بوسعه أن يميز الحقائق الواردة فى الديانات الأخرى ثم ينتقــل بعدها الى ما هو أبعـد من ذلك .

هل الأمور على ما يرام ؟

نقطة ثالثة تتعلق بالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال تعـــاميا عن الخطر الذى يلاحقها .. لو كانت الأمور كمـــا يراها البعض تتعلق بخطط استعمارية أو صهيونية تهـــدف الى التفرقة ، أو بنوايا خبيثة لدى بعض مثيرى الفتن والشغب ، لمـا كان ثمة مبرر كبير لمـا تشعر به الحكومة والأمة من قلق ازاء خطر حقيقى يتهدد الوحدة الوطنية .. فالتطرف الدينى الذى يهدد بنسف هذه الوحدة فى ازدياد ، وكذا الاحساس لدى عـدد غفير من المسلمين المصريين بأن الانتماء الى العالم الاسلامى يجب الانتماء الى مصر : والشعور لدى عدد متزايد من الأقبـــاط بأن « الأقباط قـد يضطرون فى مستقبل غير بعيد الى الدخول فى مواجهة مسلحة » .

يقول المستشار وليم سليمان قلادة فى أحد أبحاثه « لقد فشلت كل جهود الاستعماريين للتفرقة بين المسلمين والأقباط » . غـير أنى سائله : وماذا عن جهود غير الاستعماريين من أبناء مصر أنفسهم فى ســبيل خلق التمييز والتفرقة ؟ وماذا عن فشل الحكومات المصرية المستقلة المتعاقبة فى ايجاد حل لهذه المشكلة ؟ أم أنه ليست هناك مشكلة ، وأن الأمر لا يتعدى بعض الحوادث الفردية من الاغتيـــالات ، وبعض الحـوادث العارضـــة من المناوشات الدامية ، وبعض الحوادث المؤسفة من احراق دور العبادة ، وبعض

المزايدات الدينية التى يأباها الضمير المصرى ، وبعض مظاهر الانتهــازية واستغلال الدين من جانب الأحزاب السياسية المعارضة للحكومة ؟ .

واقولها هنا صراحة دون ودون التواء : انى أرى القبــط مسئولين هنا مسئولية جسيمة عما يحدث لهم ، وذلك بانطوائهم التقليدى ، وسلبيتهم وحذرهم المشهورين به فى العالم كله ، واختيار الكثيرين من أفضل العناصر فيهم وأكثرها ثقافة وخبرة ومهارة للهجرة من وطنهم ، دون المجابهة الايجابية النشطة لمـا يجرى فيه ، والاشتراك اشتراكا فعالا مع المسلمين المستنيرين فى ايجاد مخرج من هذه الورطة ، ومساعدة الحكومة باقتراحاتهم على تعزيز التعايش الدينى بين الطائفتين . وانه ليحزننى ويدمى قلبى ان ارى مواقفهم لا تتعدى فى الأغلب ردود الفعل ازاء ما يحدث ، اما بالهجرة الى الخارج ، او الشكوى والتبرم فى مجالسهم الخاصة ، أو الصبر على مضض ، أو التـار مما يلحق بهم . أما التخطيط لانقاذ الوحدة الوطنية فلا يكادون يعرفونه ، وأما بصدد حقهم فى المواطنة والمساواة الكاملة فى قطر لهم فيه ما للمسلمين، فان مثقفيهم وقادتهم يكتفون بأن يرددوا فى المحافل العامة ما لا يؤمنون به ولا يؤمن به أحد ، من أن كل شىء على ما يرام ، وليس بالامكان أبدع مما كان ، وأن « كل جهود الاستعماريين من أجل التفرقة قد فشلت » !

بين الالحاد والعاطفة الدينية

نقطة رابعة : لطالمـا لمست فى وطننا وفى غيره أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هى تلك التى تسود بـين الملحدين من كل طائفة ممن قد تلاشت لديهم العقيدة ، وجمع بينهم الشك فى صحة الأديان جميعا .. هنا يختفى التعصب وضيق الأفق ، والشك المتبـادل والحيطة والحذر ، ويصبح من المتصور والممكن أن تقوم الصـداقة الحرة ، والألفـة الحقيقية ، ويضحى شعارهم بيت الشاعر القروى :

سلام على كفر يوحد بيننا
وأهلا وسهلا بعده بجهنم !

وربما وافقنى القارىء على أنه من المؤسف أن يكون للالحاد مثل هذا الفضل ، ولا يكون للعاطفة الدينية ، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين فى كل من الطائفتين وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك ازاء متدينى الطائفة الأخرى ، فى الوقت الذى تجابه الأديان كلها قوى عاتية تعارضها وتسعى الى هدمها جميعا ، هى أعتى وأبلغ خطرا مما كانت عليه فى اى عصر مضى • قد كان ثمة أزمات كتلك التى عرفها الاسلام وقت محنة خلق القرآن ، أو التى عرفتها أوروبا فى عصر الاصلاح الدينى ، غير أنها كانت ازمات داخل الدين ، فى حين نجد الأزمة الراهنة تتمثل فى هجوم ضد الدين ، سواء جاء هذا الهجوم من جهة الماركسية ، أو الانسانية ، أو المادية العلمية ، او نمط الحياة المعاصرة • وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لا يلعب دورا كبيرا أو صغيرا فى حياتهم ، ولا يعرفون القيم الدينية التى هى الوسيلة الأكيدة لمقاومة فقر الحياة الروحية فى المجتمع الحديث • فبدون هذه القيم لا يمكن أن يكون ثمة سلوك متجانس ، ويضحى سلوك الفرد مجموعة من التصرفات وردود الفعل لا رابط يجمع بينها •

وقد أحست الكنائس المتصارعة فى الغرب بهذا الخطر الذى يتهددها جميعا فى السنوات الأخيرة ، فسعت بنجاح الى رأب الصدع بينها ، وفتح باب الحوار من أجل اقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقى ، بل ومدت جميعها يدها الى اليهودية والاسلام للمشاركة فى الدفاع ، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين فى حد ذاته ، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت وأيا كان موضوعها ، فى سبيل احداث التقارب وتحقيق التلاقى • وبقينا نحن فى مصر نعيش فى بيت قد انقسم أهله على أنفسهم ، ولا يغطى سقفه غير جزء من مساحة أرضه •

الناس اعـداء لمـا جهلوا

بقيت كلمة أخيرة : لئن كان المثل العربى يقول : « الناس أعداء لمـا جهلوا » ، فانى لا أرى جهلا من فئة بعقيدة فئة أخرى كجهل كل من المسلم والقبطى فى مصر بعقيدة الآخر ٠ لا هذا قرأ الكتاب المقدس عند الآخر ، ولا هو تعلم عقائده فى مدرسته ، ولا تطلع الى معرفتها حين شب ونمـا ٠٠ ان سالت القبطى عن الاسلام أجابك بانه دين يحرم الخمر ولحم الخنزير ويحلل زواج الرجل من أربع ٠ وان سالت المسلم عن المسيحية اجابك بأنهـا دين يحلل الخمر ولحم الخنزير ويحرم زواج الرجل من أكثر من واحدة ٠٠ وقـد كان المفروض أن تتدارك المدارس ووسائل الاعلام والآداب عندنا هذا الخلل الذى هو ـ دون شك ـ احد أسباب التعصب وسوء العلاقات ٠٠ غير أنهـا لم تفعل ٠ فحصص الدين فى المدارس قاصرة على ابنـاء كل طائفة ، وكان يمكن ان تدرس للجميع ديانات الجميع ٠ وثمة سـتة قرون من تاريخ مصر المسيحى (هى أطول من تاريخ الولايات المتحدة بأسره) ، لا يكاد المسـلم المصرى يعرف عنها شيئا ٠ والصحف والمجلات لا منبر فيها لفكر قبطى ويكاد الأمر يقتصر على صحيفة واحدة لا يقرأها غـير القبط ٠ والاذاعـة والتليفزيون لا يلقيان بالا الى عقيدة القبط ، فى حين يبـدى أدباء القبط وكتابهم تقصيرا عظيما فى تصوير احوال طائفتهم وطريقة عيشها وتفكيرها ، سواء فى الروايات او المسرحيات أو الأفلام ٠ أما الأحزاب السياسية فان كل ما تسعى اليه باتجارها بالدين ، هو الوصول الى كرسى من خشب ، حتى ان استندت قوائمه الى فوهة بركان ٠ فما عسـانا أن نتوقعه بعد هـذا غـير الجهل ، وغير مشاعر الاحباط والمرارة ، وتعـذر قيام علاقات صـحية من التعايش الدينى ؟ ٠

* * *

وختاما ، فانى زعيم لكم بأن الأمور ليست على ما يرام ، وان الافتقار الى الصدق التام والصراحة الكاملة فى عرضها ، والى الحوار الحر المباشر من أجل الوصول الى حلول معقولة ، كفيل بأن يبقى الأوضاع على حالها . كما انى زعيم بأن التركيز على دور الاستعماريين ، والحديث عن زمرة مأجورة أو قلة قليلة من مثيرى الفتنة والشغب ، وتفسير الصدامات بقماش تظهر عليه علامة الصليب ، هى أمور لا أقول انها لا تقال الا للأطفال ، بل هى لا تقال أصلا حتى للأطفال ، خشية تشويش أفهامهم ، وتشويه مداركهم .

حسين ومرقص وكوهين ![1]

هتف بى صاحبى فجأة وقد حانت منه التفاتة الى الزجاج الخلفى لسيارتى :

ــ ما هذا ؟! أمجنون أنت ؟ ٠

وسرت الى عدوى فزعه ، فاوقفت السيارة فجأة لأستطلع اى خطأ بدر منى أو حادث تسببت فيه ٠

ــ ماذا صنعت ؟ ٠

ــ زجاج سيارتك ٠٠ امجنون انت ؟ اين الملصقات ؟ ٠

ــ اية ملصقات ؟ ٠

ــ ملصقات « لا اله الا الله محمد رسول الله » ٠

ــ أمن اللازم لشخص يشهد ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، أن يلصق هذه الشهادة على زجاج سيارته ؟ ٠

ــ بالتأكيد ! ٠

ــ لم أجد هذا لا فى قرآن ولا فى سنة ٠

ــ اعرف انها ليست فى القرآن والسنة ٠ ولكنها باتت الآن أمرا حيويا ٠٠ جوهريا ٠٠ مسألة حياة أو موت ٠٠ اعنى بالنسبة للسيارة ٠

ــ كيف ؟ كيف يمكن ان تفيد الملصقات السيارة ؟ ٠

---

(1) كتب هذا المقال فى ٢٧ مايو ١٩٨٥ على ضوء انتشار ظاهرة الملصقات الدينية على السيارات فى مصر ٠ ونشر فى مجلة « المصور » فى عدد ٦ يونيو ١٩٨٥ ٠ وفى ٣٠ يونيو امرت السلطات المصرية بازالة هذه الملصقات على الفور ٠

- لا تمزح أرجوك • ألم تسمع الشائعة القائلة بأن أفراد الجماعات الدينية المتطرفة تنوى بعد تاريخ معين أن تحرق أو تهشم كل سيارة لا تحمل مثل هذه الملصقات ؟ •

- أجاد أنت ؟ •

- بكل تأكيد • وقد لصقتها أنا شخصيا لا على الزجاج الخلفى فحسب ، بل وعلى الزجاج الأمامى وأبواب السيارة الأربعة ، زيادة فى الاحتياط والتحصين •

- وحسنا فعلت ! •

- فلتسرع اذن ، خاصة أننا لا نعرف بالضبط الأجل الذى حددوه •

- ومن أين أشتريها ؟ •

- ما يغيظنى منك هو أنك تتكلم وكأنك لست من أهل هذا البلد • « من أين أشتريها ؟! » • انه لمن الصعب الآن يا صاحبى ألا تشتريها ! الا تسير فى شوارع البلد ؟ ألا تدخل أيا من متاجرها ؟ ألا تمون سيارتك بالوقود من محطات البنزين ؟ « من أين أشتريها ؟!! » غير أنك ان أحببت فسأدلك على متجر فيه عينات مختلفة متنوعة بوسعك أن تختار منها ما يناسبك •

* * *

دلفت الى المحل الذى دلنى صديقى عليه ، فاستقبلنى صاحبه مرحبا بابتسامة :

- فى خدمتك •

- أريد واحدة من تلك الأوراق المصمغة التى تلصق على زجاج السيارة ، والمكتوب عليها « لا اله الا الله » •

— نعم نعم . بارك الله فيك وبارك فى دينك .. سيارتك ، اى لون هى ؟ .

— بيضاء .

— عظيم . البيضاء تناسبها كافة الوان الملصقات . وليس عليك الا ان تختار .

ومد يده الى رف وراءه وانزل منه مجموعة هائلة متنوعة من الأوراق .

— ذهبى . اسود . بنى . أبيض على خلفية سوداء . ذهبى على خلفية خضراء . فضى . ازرق غامق على خلفية لبنية .. تحت أمرك .

— هذه لا باس بها . صغيرة شفافة لن تحجب الرؤية .

— استغفر الله العظيم . مثل هـــذه الملصـــقات لا تحجب الرؤية يا سيدى . انها تشحذ الرؤية .. الروحية .

— طبيعى . وانما كنت اقصد الرؤية الاخرى : رؤية السيارات خلفى.

— مفهوم . نعم . هذه شفافة لا تحجب رؤية الســـيارات خلفك . وهى بالفعل رقيقة اللون . اتعرف صلاح بك المنياوى مدير بنك « ف » ؟ لقد اشترى هذا الصباح من هذا اللون نفسه عشرة . أتريد أن تنتقى من موديلات اخرى أم تشتريها كلها من هذا الموديل ؟ .

— ماذا تعنى ؟ لا أريد غير واحدة فحسب للزجاج الخلفى .

— وماذا عن الزجاج الأمامى ؟ .

— لا ياسيدى . على الزجـــاج الامامى ستحجب الملصقات الرؤيتين : المادية والروحية معا ! يكفى الزجاج الخلفى .

— ولكن الجميع قد باتوا الآن يلصـــقون اكثر من ورقة على الزجاج الخلفى . احديث العهد أنت بالعودة من الخارج ؟ .

— نعم .

— قد حزرت ذلك من طريقة كلامك · نعم · لم يعد احـــد يكتفى بلصق « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » · هناك العديد من الملصقات التى تحمل عبارات اخرى · هذه مثلا تحمل آية (ان الدين عند الله الاسلام) ، زيادة فى الكيد للأقباط · وهذه تحمل آية (أفغير دين الله يبغون ؟) وهذه (ولا تاخذكم بهما رافة فى دين الله) · وستصلنى بعد أسبوع تشكيلة كبيرة من الشعارات الأخرى التى يجرى طبعهـــا الآن ، يمكنك المرور فى نهـاية الأسبوع القادم للاختيار منها ·

— ساكتفى الآن بملصق واحد · وقد أمر عليك فيما بعد ·

— كما تشاء ·

— بكم هذا ؟

— غيرى يبيعه بثلاثين قرشـــا · غـير انى سابيعك الواحـد بخمسة وعشرين ان اخـــذت عشرة أو أكثر ··· هناك ملصـــقات أرخص تحوى اعلانات ·· هذه مثلا : (والســابقون الســابقون · أولئك المقربون · فى جنات النعيم) مع تحيات فندق سونيستا ، افخر فنادق الشرق الأوسط·· بعشرين قرشا ·· وهذه : (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون) مـــع اطيب تمنيات شركة اير فرانس بسلامة الوصول ·· بعشرين قرشـــا هى الأخرى ·

وفتح باب المحل ، ودخله رجل سمين فى نحو الخمسين يحمل حقيبة صغيرة ، رآه التاجر فاتجه نحوه يصافحه وعلى وجهه ابتسامة عريضة :

— اهلا بالأستاذ مرقص ·· نورت المحل ·· طلباتك يا استاذ مرقص·

— الملصق الذى بعته لى فى الأسبوع الماضى لا يكاد يكون فيه صمغ على الاطلاق · كلما حاولت لصـــقه على زجاج السيارة لم يثبت الا لبضـع ثوان · وقد جئتك به لأرده واختار آخر ·

ـ وحسنا فعلت · على عينى وراسى يا مرقص بك ·· اى ملصق ذاك الذى اشتريته ؟ ·

ـ (نعمة يسوع المسيح مع جميعكم) ·

ـ نعم · كل الملصقات التى وصلتنا من المطبعة وتحمل هـذا الشعار صمغها بالغ الرداءة · لم تعد هناك فى البلد ذمة او أخلاق ·· ولكن عندى عشرات غيرها جيدة التصميغ ·· هل عندك صورة الأنبا كيرلس ؟

ـ لا ·

ـ ساوريك اياها ، مع مجموعة من الملصقات الأخرى التى وصلتنى هذا الصباح ·· هـل رايت ملصق (الرب راعى فلا يعوزنى شىء) ؟ أو (طوبى للذين يطيعون وصاياه) ؟ ستكون سيارتك أول سيارة تحمل هذا الملصق الجديد ·· صدقنى ·

واتجه التاجر الى رف فى ناحية أخرى من الدكان ، فى حين شرع الأخ مرقص يفتح حقيبته ليعيد البضاعة المغشوشة ·

وفجاة ، خطرت فى ذهنى فكرة :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ مرقص ·· اسمى حسـين أمين · وكنت قد اتيت هنا لأشترى شعارا اسلاميا لسيارتى · غير أنى حين سمعتك تطلب شعارا مسيحيا لسـيارتك ، خطرت بذهنى فكرة ملصق ثالث لسـيارتك وسيارتى معا ·

ورأيت يد التاجر تتوقف عنـد رف علوى ، ووجهه وقـد تطلع الى يستمع فى انتباه شديد :

ـ ملصق ثالث ؟ وما عساه يكون ؟

ـ فكرت فى أنه بدلا من هذه الملصقات التى توحى بشىء كالتنافس بين فريقى الأهلى والزمالك للكرة ، أو بأغنية أحمد زكى وسعاد حسنى : « هوه أعظم من هى ٠٠ وهى أذكى من هوه » ، نضع ملصقا جديدا عليـــه شعار (لا تجعلوا من مصر لبنان آخر) ٠ ما رأيك ؟ ٠

صاح التاجر وقد أنزل يده فارغة من الرف المسيحى :

ـ بارك الله فيك يا أستاذ حسين ٠٠ بارك الله فيك ٠ تصور أن هذه الفكرة قد راودتنى أنا منذ أسبوعين ، وشرعت على الفور فى طلب تنفيـــذ كمية ضخمة من هذا الشعار من المطبعة ؟! ٠

ـ لا أصدق ! ٠

ـ لا تصدق ؟ ولكنك ربمـــا قد تصدق عينيك اذا رأيت الملصـــق مطبوعا بالفعل ٠

واتجه بسرعة الى رف ثالث فى ناحية أخرى من المحـــل ، فأنزل منه نسخا من الملصق الجديد بنفس العبارات التى كنت قد اقترحتها ٠

ـ ما قولك الآن ؟ صدقتنى ؟ ٠

ومكثت ارمقه فى ذهول وصمت ٠ قال :

ـ اعتقد أن مثل هذا الشعار سيروج رواجا لا بأس به على الاطلاق ، خصوصا عند أولئك الذين يخشون الفتنـــة الطائفية فى مصر ٠ غـــير أنى لا اتوقع بالطبع أن ابيع منه نفس الـكميات التى ابيعهـــا من الملصـــقات الأخرى ٠ والآن ٠٠ تريدان نسخا من (لا تجعلوا من مصر لبنان آخر) ؟ ٠

قلنا فى صوت واحد : نعم ٠

قال للأستاذ مرقص :

ـ ولا داعى اذن لصورة قداسة الأنبا كيرلس ، أم تريد الملصقين ؟ ٠

- يكفى هذا الملصق الأخير ·

- جميل ·· عندى منه ألوان : فضى · ذهبى على خلفية بنية · أحمر على خلفية سوداء · برتقالى ··· اعتقد أن الأحمر هو اللون الأنسب لما فيه من تلميح الى بحر الدماء التى تراق فى لبنان · ما رأيكم ؟ آه ! خطرت لى فكرة جهنمية · ما رأيكم فى ملصق « لا اله الا الله » على يمين زجاج السيارة ، وملصق « الله محبة » على اليسار ، وملصق « لا تجعلوا من مصر لبنان آخر » فى الوسط من قبيل التوفيق بين الطائفتين ؟ رائعة ، أليس كذلك ؟ هل آتى لكل منكما بالثلاثة معا ؟ ساحاسبكم على الثلاثة بسعر اثنين فحسب ، ورزقى على الله ·

وازداد ذهولى اذ أسمع حديثه ·· كدت أن أسأله عما اذا كان يعرف مصدر الشائعة عن نية تهشيم السيارات التى لا تحمل الملصقات بعد تاريخ معين · غير أنى لم أر حاجة الى السؤال · ثم خطر لى أن أسأله عن اسمه هو · غير أنه تجاهل سؤالى ولم يجب ·

حول أزمة تعاملنا مع التراث العربي

ابدا بملاحظة عامة : هى ان تكرر طرح الاشكاليات منذ عصر الطهطاوى الى يومنا هذا من السمات المؤسفة لمجتمعنا الاسلامى • ففى المجتمع الغربى مثلا ، تطرح الاشكالية للمناقشة بين الخصوم ، ثم ينجم الحل اما بالوصول الى صيغة وسط ، او بتغلب مذهب هو اكثر مسايرة لاحتياجات العصر ، وينتقل المجتمع بعد ذلك الى مجابهة اشكالية جديدة ، فلا يعود الى النظر فى اشكالية سبق طرحها الا فيما ندر • اما فى مجتمعنا الاسلامى فان المشكلة تطرح وتحل ، ثم نطرح مرة اخرى بصياغتها العتيقة وتحل ، ثم تطرح ثالثة ورابعة ، وكأنما نحن فى دائرة مغلقة لا نعرف كيف نتجاوزها الى غيرها • وعلى سبيل المثال : من ذا بوسعه ان يصدق او يسيغ العودة الى مناقشة قضية حجاب المرأة على نفس النحو الذى تصدى له به قاسم أمين وخصومه منذ اكثر من ثمانين عاما ، وبنفس الحجج والأسانيد البالية ؟! •

قضية الأصالة والمعاصرة

ومن تلك القضايا التى يتكرر طرحها فى مجتمعنا الاسلامى ، بصيغ مختلفة ، قضية الأصالة والمعاصرة ، وان كان هذا التكرر ينطوى على بعض الاختلاف فى طبيعته عن الاشكاليات الأخرى • فهى قضية لم يصل بصددها اى جيل الى حل مرض او الى اى تقدم ، عكس قضية تحرير المرأة مثلا • وتكرر الطرح كرة بعد اخرى ، هو فى كل مرة فى صورة اشد عنفا وحدة ، انما يعنى أن المشكلة تزداد تعقدا بمضى السنين ، وأن الوضع يزداد تأزما • فالازدواجية وانفصام الشخصية لدى ابناء مجتمعنا ينموان نموا ينذر بأن

تضحى أمتنا أمتين على نحو وصف كارل ماركس للمجتمع الانجليزى فى زمنه • وقد سبق أن أوضحت بدايات الأزمة وأرجعتها الى طبيعة نظام التعليم المزدوج الذى فرضه محمد على وغيره من ولاة أقطار الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر • وأضيف هنا أنها ازمة ترتبط ارتباطا وثيقا بتزعزع الثقة بالنفس ازاء التفوق المادى والحضارى للفرنجة • وبالتالى فانه كلما ظهرت في مجتمعنا من الأسباب والدواعى ما يعيد الى أبنائه بعض هذه الثقة المفقودة ، ويرد اليهم قدرا من الايمان بالمستقبل ، خفت حدة الاشكالية • وهو بالضبط ما حدث ويحدث فى فترات المد فى الحركة الوطنية •

إزمة تعاملنا مع التراث

ان هناك بالقطع أزمة فى تعاملنا مع التراث وفى تحديد موقفنا من المعاصرة • والسبب فى رأيى يتصل بحدة الازدواجية التى أشرت اليها ، وهى ازدواجية أساسها عجز المتفرنجين منا عن استساغة التراث ووصل ما بينهم وبين ماضيهم ، وعجز السلفيين عن المعاصرة والاستفادة من حضارات الغير ، وعجز هؤلاء وأولئك عن تمثل مختلف الاتجاهات ، والخروج منها بناتج جديد متجانس ، له ما لتلك الاتجاهات من الاستقلال • وقديما قالت العرب : « اذا سمعت الرجل يقول : (ما عند الله خير وأبقى) ، فاعلم أن فى جواره وليمة لم يدع اليها » ! فالعنب اذن هو فى العادة حصرم • ثم اذا بهذا العجز من أولئك وهؤلاء يتبلور فى عداء كل لموقف الطرف الآخر ، دون أن يحقق أى منهما الانسجام المنشود •

ولا أعتقد أن مجتمعات كثيرة غيرنا تعرف مثل هذه المشكلة العقيمة • فالغربى مثلا ان قرأ فانما يقرأ توما الآكوينى اليوم ، وبرتراند راسل غدا ، ثم أفلاطون بعد غد ، كتبهم جميعا ضمن سلسلة واحدة ، على رف

واحد ، فى مكتبة واحدة ، لا يقال عنه انه تراثى ان فضل اسخيلوس ، او انه عصرى ان هو آثر دورينمات ، ويدخل كل هذا فى تكوينه ليجعل منه الانسان الذى هو عليه ٠ لا مشكلة ولا حيرة ولا احساس بالتمزق ٠ مشكلة العربى المعاصر هى اذن كمشكلة امرىء يحاول تدارك صعوبة حمل العديد من صحون الطعام فى يدين اثنتين ، بينما الغربى أشبه بمن أكل منها جميعا وتمثلها فسرت فى بنيانه وصارت الى هيئة جسد مخالفة ٠ وعندى انه فى مقدورنا تحقيق مثل هذا الانسجام متى اتخذنا من تراثنا ومن حضارات الغير موقفين مغايرين لموقفنا اليوم :

من تراثنا : بحيث لا يكون الهدف من الاقبال عليه الهروب من حاضر ثقيل الوطاة ، أو الترويح عن النفس ، أو التفرج على اطلال العصور الخوالى ، وانما هو الاستفادة من حكمة الأقدمين وتجارب الأسلاف فى أن نجعل من عالمنا المعاصر عالما افضل ، وأن نهيىء لانفسنا وأبنائنا مستقبلا أزهى ، لا نحترم الماضى لمجرد أنه ماض ، ولا السلف لأنهم سلف ، ولا نقصر الحق فى التفكير على الأموات ٠

ومن حضارات الغير : بحيث لا يحكم موقفنا عقدة نقص أو استكبار أو فقدان الثقة بالنفس وبالدين والتقاليد ، مع الاقرار بان الاستفادة من معاصرة غيرنا ممكنة على نحو استفادة أوروبا من معاصرة العرب ابان العصر الوسيط فى تجاوزها لواقعها الى عصر النهضة فعصر الاصلاح الدينى ٠

مسئولية نظم التربية والتعليم

وتنبع المشكلة والحيرة عندنا فى رايى من امور ثلاثة لا مناص من أن تتصدى لها نظم التربية والتعليم فى اقطارنا ان هى ارادت المساهمة فى ايجاد الحلول :

الأول : الفهم الخاطىء لدى جميع الأطراف لماهية التراث والمعاصرة ·

والثانى : تخريج صنف من الناس لا يملكون ناصية لغات أجنبية تعينهم على تذوق ثمار حضارات غير حضارة أسلافهم ·

والثالث : تخريج صنف آخر من المتفرنجين ، بالغوا فى النظرة الى الغربيين وكأنهم أنصاف آلهة ، وبالغوا فى التحقير من شأن تراث أمتهم الذى حسبوه خطأ المسئول عن التخلف الذى صرنا اليه ، قد حرمهم فساد منهج تعليم اللغة العربية فى مدارسنا من القدرة على النظر فى كتب الأقدمين ، فان نظروا فيها كان ذلك من قبيل الرغبة فى التندر على سخافة نظرة الأسلاف ·

فاما عن التراث فانه يمكن الحديث عنه بأحد معنيين : انه مجموع ما خلفته قرائح الأقدمين وصفوة الأسلاف من فكر وفن وعلم ونمط عيش وفنون حضارة مما يمكن لجيلنا الحالى الافادة منه والاستعانة به على حل ما يواجهه من المشكلات والتحديات ، أو تعريفه بأنه كل ما أفرزه الماضى من افرازات ، ضارة ونافعة ، سامة وسليمة ، لا يزال لها أثرها الفعال فى مسلكنا ومعتقداتنا وأسلوب معيشتنا ونظرتنا الى الحياة ، منها ما يجدر بنا التمسك به وتنميته ، ومنها ما ينبغى علينا محاولة استئصاله أو الحد قدر الامكان من نطاق سلبياته ·

وأما عن المعاصرة فتفترض موقفا ايجابيا نشطا من جانب مثقفين يستهدفون الادراك الواعى لحقائق الزمن الذى يعيشون فيه ، وعناصره ، وموقعه من مجرى التاريخ ، وعلاقته بالمستقبل المرئى ، ثم تحملهم رؤيتهم على تقبل ما هو حتمى لا قبل للانسان بتغييره ، ومحاولة التغلب على الاتجاهات التى تسير ضد تيارات التاريخ ، وتقاوم حتميته ، وتعرقل وصوله الى هدفه كما يفهمه هؤلاء المثقفون ·

واستنادا الى هذه المفاهيم أمضى فأقول : ان ماضى وتراثى وسلفى ، وماضى الحضارات الأخرى وتراثها وأسلافها ، لا يعنينى منها الا الجانب الذى ثبت لدى انه حى ، وأن بوسعه أن يثرى حياتى وحاضرى ، ويزيد من قدرتى على مواجهة تحديات مستقبلى ، ومن قدرة أمتى على مواجهة تحديات مستقبلها .

كذلك فانه بوسعنا من نفس المنطلق أن نتخيل تغير تقويم أهل كل زمان لرجال تراثهم وثماره عن تقويم أهل الزمان الذى سبقه ، وأن من حق كل جيل ، ومن واجبه ، أن يعيد تقويم عناصر تراث أمته للتمييز بين ما يمكن استخدامه منها فيبقى عليه ، وبين ما لا يمكن استخدامه فيمضى عنه . فنحن انما نعيش فى زماننا نحن لا زمان الأقدمين ، وما لا يساعدنا من تراث الأسلاف على حل مشكلات زماننا هو ميت الى حين اكتشاف جيل تال لجيلنا ان فيه حلا لمشاكله فيحييه . اما ما نجد فيه العون فهو حى الى حين اكتشاف جيل تال عدم جدواه له فيهجره .

ونقاط البداية عندى تتلخص فيما يلى :

١ - تشخيص الأدواء التى تعانى أمتنا منها ، والتعرف على حقيقة موقعنا من الخريطة الحضارية للعالم .

٢ - التعمق فى دراسة تراثنا للنظر فيما يمكن ان يقدمه من حلول لهذه الأدواء .

٣ - دراسة تاريخ تطور أمتنا ، وتاريخ تطور غيرها من الامم ، بغرض الاستدلال منهما على ملامح المستقبل .

٤ - الاستفادة من تجارب الحضارات الأخرى والنظر فى ما اذا كان لديها أو فى تراثها ما يمكنه مساعدتنا على مواجهة تحديات المستقبل ، من

دون أن تخل هذه الاستفادة بتفرد شخصيتنا الحضارية .

واقولها صراحة اننى لست كبير التفاؤل بصدد بعض هـذه النقاط : فحصيلة شباب امتنا من اللغة العربية فى تضاؤل مستمر رهيب ، ونفورهم من النظر فى أمهات كتب تراثهم الاسلامى فى ازدياد ، واتجاههم يقوى يوما بعد يوم الى تبنى قيم الغرب وتقليد أهله فى أساليب عيشهم ، خاصة وقد ضاعت ثقتهم فى امة لا يبدى أبناؤها الحماس الا فى حرب بعضهم للبعض ، ولا يعرف ساداتها سبيلا الى انفاق الثروات أفضل من انفاقها على اشـباع شهواتهم الحسية ، وتصر حكوماتها على عدم المساس بسلطاتها المطلقة ، وعلى استئصال شأفة كل فكر حر .

اقتراح

فان اتفقنا بعد هذا على أن من أهم الأهداف التى يجب أن تتوخاها اية محاولة لاصلاح نظم التربية والتعليم عندنا هو أن يسترد شباب أمتنا احترامهم لتراثهم الفكرى ، والرغبة فى الاستزادة منه ، والقدرة على النظر فيه ، فالأجدى أن نبدأ بالاعتراف بأن الحصيلة التى يخرج بهـا أبناؤنا من اللغة العربية بعد انقضاء سنى دراستهم لا توفر القـدرة على فهم ما كتبه الأقدمون ، والنمـاذج التى تدرس لهم فى المدارس لأدب هـؤلاء ، كهجاء الفرزدق لجرير ، وفخر المتنبى بنفسه ، ومدح الأعشى لوالى الحيرة ، فى كتب رديئة الورق ، سيئة الطباعة ، قبيحة الصور ، لا يمكن أن ينجم عنها احترام حقيقى لتراث العرب كذلك الاحترام الذى ينجم لديه لآداب الفرنجة حين يدرس فى حصص اخرى مسرحية لشكسبير أو قصـائد هيجو ، فى كتب انيقة الطباعة ، بهية الصور والاخراج .

وقد أقدم الغربيون منذ بضع سنوات ، من أجل تعزيز الـمام شباب الغرب بتراثه والجذور الفكرية لحضارته ، على اخراج مجمـوعة من الـكتب

تضم أربعة وخمسين مجلدا أصدرتها دائرة المعارف البريطانية وتحمل اسم « أعظم كتب العالم الغربى » ، من هوميروس الى فرويد · هـــذه المجموعة باتت تشكل جزءا من أثاث معظم العائلات المثقفة القادرة على اقتنائها فى أوروبا وأمريكا الشمالية ·

فان كان عالمنا العربى قد نشر فيه بالفعـــل عشرات الآلاف من كتب التراث ، فان شبابنا يضل فى متاهاتها ، عاجز عن اقتناء ولو اليسير منها ، مفتقر الى من يهديه الى القمم الشامخة فيها ويثنيه عن النظر فى تافه الشأن منها · فلو أن حكومة من حكومات دول النفط تبنت مشروعا كمشروع دائرة المعارف البريطانية ، وشكلت لجنة من عشرة أو عشرين من العلماء المتبحرين فى التراث العربى ، المدركين مع ذلك لطبيعة ذوق شباب أمتنا المعـاصر ، فانتقت بعد النقاش والفرز وتمحيص الآراء المختلفة أعظم مائة كتاب مثـلا من المؤلفات العربية منذ امرىء القيس الى الجبرتى ، واستبعدت من هـــذه الكتب المـائة الغث الكثير الذى تحفل به كتب عظيمة كأغانى أبى الفرج أو السلوك للمقريزى ، وأبقت على بعضـــها الآخر بصورته الـكاملة كمقدمة ابن خلدون وحى بن يقظان لابن طفيل وفصل المقال لابن رشد ، ونشرتهـا فى خمسين أو ستين مجلدا أنيقا بسعر فى متناول العائلة متوسطة الحال ، بحيث تصبح جزءا من أثاث دارها ، وفى متناول أبنائها وتحت نظرهم فى كل يوم ، لأسدت بهذا الصنع خدمة جليلة لأبنـاء جيلنا والأجيـال التالية اذ تصل بينهم وبين ماضيهم ·

ويا حبذا لو تبع ذلك ترجمة كاملة لمجلدات مجمـــوعة « أعظم كتب العالم الغربى » ، فيجمع شبابنا بين الحسنيين · وأذكر هنا أن اللجنة التى نهضت بالمشروع الغربى كانت تعتزم فى البداية أن تضم المجمـــوعة أعظم كتب العالم ، ثم عدلت عن ذلك واكتفت بكتب العالم الغربى ، على أساس

ان ابناء الحضارات الأخرى اقدر عـــلى تقييم كتب حضـــاراتهم من غيرهم ، ووعدت فى مقدمة المجموعة بانه متى اخرجت الأمم الأخرى مجموعات مماثلة ، فقد تضمها جميعا فى مجمـــوعة ضخمة واحدة ، هى تراث الانســـانية ، لا شك أن من شأنها أن تسهم اسهاما عظيما فى اقامة الجسور الفكرية بين الحضارات ٠

حلاوة زمان
أو
ظاهرة الحنين إلى الماضى وانعكاساتها السياسية فى مصر

شهدت مصر خلال السنوات العشرين الماضية نموا مطردا فى ظاهرة الحنين الى الماضى • وهى ظاهرة عمت شرق العالم وغربه خاصة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية • بل انه حتى فى الاتحاد السوفييتى والصين ، حيث كانت السلطات الى زمن قريب تجرم مجرد التعبير عن الحنين الى العهد السابق على قيام الثورة الشيوعية ، باتت تلك السلطات تغضى الطرف عن انتشار هذه الظاهرة ، وتتساهل بشأنها ، وهو تساهل لمسناه فى مصر أيضا منذ وفاة عبد الناصر •

غير أننا لن ندعى أن الظاهرة ـ ظاهرة البكاء على الأطلال ـ قاصرة على زمننا • فقديما عبر امرؤ القيس والمتنبى ، وفيرجيل وبترارك ، بل وهوميروس نفسه ، عن الحنين الى ماض « مجيد سعيد » يختلف فى كل مظاهره عن حاضرهم « التافه التعس » ، والى سلف « صالح » يتمتع بكل ما يفتقر اليه معاصروهم من « القوة والشهامة ، وكريم الخلق والسجايا » • وثمة نص فرعونى يشكو فيه صاحبه من أن شباب زمنه لم يعد يبدى من الاحترام للآباء ما كان يبديه الشباب فى الماضى ! كما أن ثمة امرأة عربية فى القرن الأول الهجرى سئلت عن سبب لزومها دارها ، فأجابت بقولها : « قد كنت أخرج والناس ناس ، أما وقد فسد الناس فلزوم بيتى أجدر بى » !

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
(المتنبى)

كذلك فقد اشرأبت أعناق مفكرى عصر النهضة الأوروبية وفنانيها تتطلع فى حنين الى امجاد اليونان وتراثهم ، وعبر مارتن لوثر فى عصر الاصلاح الدينى عن حنينه الى المسيحية الخالصة من الشوائب فى زمن بولس . والجيروند وقت الثورة الفرنسية الى عظمة الدولة الرومانية القديمة ، ومدرسة « ما قبل رفائيل » فى الفن الانجليزى ابان القرن التاسع عشر الى روعة الفن القوطى ، وتغنى الأمريكيون فى أعقاب أزمة ١٩٢٩ الاقتصادية بمناقب أسلافهم مؤسسى الجمهورية ، وصلابة عودهم وخلقهم .

فى الدول المتقدمة

فان كانت ظاهرة الحنين الى الماضى قديمة قدم الماضى نفسه ، فانه لم يحدث فى التاريخ كله أن اتخذت مثل هذه الصورة الوبائية التى اتخذتها خلال الأربعين سنة السالفة ، ولا كان الناس قبل الآن يستشعرون مثل هذه الرغبة العارمة فى الهرب من الحاضر ، أو أقل تحرجا من التصريح بهذه الرغبة ، وأكثر وضوحا فى التعبير عن الحنين الى الماضى ، والتشدق بسحره وبريقه .

وليست الظاهرة قاصرة على شعوب قد اختلت أمورها وتدهورت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فيها . فهى مألوفة شائعة ، وبنفس القوة ، فى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة وكندا واليابان . فهناك الى جانب العناية الكبرى التى يولونها للآثار القديمة ، وترميم الكنائس والأماكن الأثرية وقصور الملوك والنبلاء ، وانشاء المتاحف وجمع المخطوطات : نشهد الاقبال على البحث عن الأنساب (كما فى رواية « جذور » لألكس هيلى) ، واهتمام الأسر بأن يكون لديها رسم لشجرة العائلة ، والبومات

الصــور العائلية (حتى لقد أوضــح اســتفتاء أجرى مؤخرا فى انجلترا أن أكثر من نصف أفراد الشعب الانجليزى يفضــل أن يفقد حليه أو ملابســه او كتبه أو نقوده على أن يفقد البوم صــور العائلة !) ٠ وهنــاك الشغف بالروايات والأفــلام التاريخية (وقد فسروا شــعبية المسلســل التليفزيونى «Upstairs, Downstairs» ونجاح الفيلم السينمائى «A Room With a View» فى انجلترا وغيرها بمجرد أنهما يعرضــان للحياة الانجليزية فى بداية هذا القرن) ، والغرام بجمع العمــلات القديمة ، وشراء التحف والأنتيكات وكل اثر من الماضى مهما صــغر ٠ وثمــة اقبال على الاســتماع الى الموســيقى القديمة ، والأغانى القديمة ، وعودة الى صنوف أطعمة كانت معروفة من جيلين او ثلاثة ثم اختفت او كادت ، أو الى أزياء اندثرت ، والى مشــاهدة أفــلام الثلاثينات والأربعينات ، (That's Entertainment) ، واقتناء قطع من اثاث الأجيال السالفة ، وشراء اجهزة الفونوغراف ومطاحن البن التى تدار باليــد ، والســيارات العتيقة ذات الذراع الذى يدير محركها ٠ وقد بات الكثير من أساليب الديكور وأثاث المنازل قريبا من أساليب القرون الماضية فثمة أثاث لحجرة الصــالون على طراز لويس الخامس عشر ، ولحجرة النوم على طراز لويس فيليب ، ومصــابيح كهربائية فى هيئة الشــموع أو قناديل الغاز أو فوانيس عربات الحنطور ، ومدفئات كهربائية تحوى ما هو فى صورة قطع الخشب حتى تضفى عليها مســحة القدم ٠٠ وهــكذا ٠

وهناك الى جانب كل هذا وغيره ذلك الشغف الواضــح الذى يبديه السياح بزيارة مدن أو جزر قد احتفظت بطابعها العتيق ، وشوارعها ومبانيها عريقة القدم ، ولم تتأثر بمظاهر الحياة الحديثة الا قليلا ، كالبندقية فى ايطاليا وستراتفورد فى انجلترا ، وايفوار فى فرنســا على ساحل بحيرة ليمان وباراتى وسلفادور فى البرازيل ، وان كان بعضــها ، مثل هاواى ، قد استغل

أهلها هذا الحنين لدى السياح الى البساطة والطبيعة والماضى ففقدت البساطة فيها عذريتها ، وأضحت فى مثل تصنع العروض المسرحية وزيفها ٠ وفى الولايات المتحدة ما يعرف بالمدينة التاريخية التى يخير زائرها بين الاقامة فى مسكن على طراز المساكن فى زمن شكسبير ، أو فى زمن واشنجطون ، او نابليون ، أو يوليوس قيصر ، وتقدم له الأطعمة المعروفة فى ذلك الزمان وفى صحونه ، ويحاط بجو مماثل أو مقارب لجوه ٠ ومن زار منا « ديزنى لاند » فى كاليفورنيا لا شك قد ركب فى بحيرتها سفينة show boat المنتمية الى زمن مارك توين ، وتجول فى أرجاء الجزيرة التى هيئت بنفس المواصفات الواردة فى روايته « توم سوير » و « هكلبرى فين » ٠

لقد أضحى الحنين الى الماضى والاستغراق فى أحلامه والتفكير فيه « موضة » هذا الزمان ، وساد بين الناس الاعتقاد بأن كل قديم هو بالضرورة ثمين نفيس ، وارتبط الماضى فى أذهانهم بالبساط والراحة والاحساس بالأمن والحياة الطبيعية السهلة ، مما يخالف وطأة الحاضر وتعقده ٠ ولو أن الناس سئلوا أى زمان يفضلون العيش فيه لذكرت غالبيتهم أى عصر عدا عصرهم ٠ وقد اتسع مؤخرا نطاق الماضى الذى يحنون اليه وامتد ٠ فبعد أن كانوا يحنون الى ما قبل عشرين قرنا أو عشرة ، أو ما قبل قرنين أو قرن واحد ، باتوا الآن يتنهدون لذكرى الفترة ما قبل أربعين او ثلاثين عاما فحسب ، ويقبلون على اقتناء ما يذكرهم بتلك الحقبة ٠ بل انه حتى الحقب القبيحة بيئة السوء ، قد بات لها الآن سحر ورونق ٠ فالكثيرون من شيوخ انجلترا مثلاً يحنون الى الزمن الذى كان النازيون فيه يقصفون بلدهم بالقنابل باعتباره زمنا سعيدا ، ويذكرون ما كانوا يتحلون به وقتها من ايمان قوى ، وثقة فى انتصار الحق على الباطل ، وقدرة بطولية على احتمال الآلام والمشاق ٠٠٠ ذلك أنه من السمات الجوهرية لمشاعر الحنين

الى الماضى أنها تستبعد دائما العناصر البغيضة المؤلمة من الذكريات . فذكرياتنا عن الطفولة غالبا ما تتجاهل أمراضها ومتاعبها وشجاراتها العائلية . أما الآلام فطابع يومنا هذا ، وحاضرنا هذا ... وقد يختار بعضنا الاستغراق فى ذكريات زمن قريب ، كالطفولة او الشباب ، وقد يختار البعض استعادة ذكرى زمن سحيق ، كعصر الاغريق أو عهد الخلفاء الراشدين. وكثيرا ما نردد القول ، بأن الحياة فيما مضى كانت مريحة سهلة ، طبيعية بسيطة ، ذات معنى وطعم وهدف ، وأن الناس « كان فيهم الخير » ، والعلاقات الانسانية تتسم بالدفء والتراحم والتعاطف . وما السر فى اقبال السياح على التقاط الصور الفوتوغرافية وشراء ما يذكرهم برحلاتهم، سوى ادراكهم أنهم حين يتاملونها فيما بعد ، سيتخيلون أنهم كانوا يشعرون وقت التقاطها أو شرائها بسعادة لم يكونوا فى الحقيقة يشعرون بها .. وقد قيل « انتظر حتى يصبح الحاضر ماضيا ، وسترى كيف كنت سعيدا وقتئذ » !!

فى مصــــر

وقد شاعت هذه الظاهرة فى مصر شيوعا رهيبا خاصة منذ هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ . فاحب الفترات الى القلوب الآن هى العشرينات والثلاثينات والأربعينات من هذا القرن ، حين كانت المواصلات صالحة لاستخدام الآدميين ، والشوارع لا تعرف الزحام ، والسماء خالية من سحابات التلوث ، وحين كانت يافطات « شقة للايجار » تصادف الأعين فى كل طريق ، وسيارات الأجرة تقف فى أدب لكل من يشير لها بالوقوف ، وحين كانت مظاهر الحياة بسيطة غير معقدة ، خالية من التوتر والضغوط العصبية والتزاحم والتكالب على كسب المال ، وقبل أن تفسد الأخلاق وتخلو العلاقات الاجتماعية من التآخى .. وأحب الأفلام الى مشاهدى التليفزيون الآن

عندنا — حتى المثقفين منهم — هى أفـلام على الكسار ونجيب الريحانى ومحمد عبد الوهـاب وغيرها من أفـلام تلك الحقبـة ٠٠ وأحب الفرق الموسـيقية والغنائية الى المستمعين هى فرقة الموسيقى العربية بما تقدمه من ألحان داود حسنى وسلامة حجازى وسيد درويش ٠٠ وقد خصصت مجلات اليوم ، وبدون استثناء تقريبا ، صـفحة كاملة أو صـفحتين لباب محبب الى النفوس هو « مصر من سـبعين عاما » ، أو من خمسين عاما ، أو من ثلاثين ، يتنهد الناس عنـد قراءته ٠٠ فان ركبت سـيارة أوتوبيس فقد يصـعد اليك فيها بائع أقراص نعناع يهتف بك : « نعناع بتاع زمان ! » ، وكأنما ما دام « بتاع زمان » فهو بالضرورة أفضـل من أقراص نعناع اليوم بعد انقراض الصنعة واندثار السر ٠٠ وأحب صـورة للعلـم المصرى هى الراية الخضراء بهـلالها ونجومها الثلاثة ٠٠ ومذكرات السياسيين والصحافيين والأدباء من العهـد السـابق تملأ رفوف المكتبات وأكشاك الجرائد ٠٠ وجنازة النحاس باشا قد تحولت الى مظاهرة قومية كبرى طابعها الحنين الى عهـده ٠٠ وقد كثرت محلات الأشـغال الفنية التى تسـتلهم القديم فى صياغة الحلى والتحف ٠٠ وكثيرا ما تظهر سـيدات المجتمع الراقى فى الحفلات بجلابيب الفلاحات ، وقد تحلين بالكردانات والخلاخل ٠٠ وأضحى جانب كبير من حديث الناس عن أيام كانت البيضـات العشر بقرش واحـد ، وكيلو اللحم بعشرة ، وأيام كان لدى الناس أخـلاق وذمـة ، وأيام كان الشـباب يحترم الشـيوخ ، وحين كان بوسـع أفراد الطبقة العليـا أن يترددوا على دور السينما والمسارح قبل أن تدهمها الغوغاء ، وحين كان عدد تلاميذ الفصـل فى المدارس لا يتجاوز العشرين وعن منـاطق سـكنية ملوثة كانت منذ أعوام قـلائل مزارع خضراء تشرح القلب ، وعن اشـياء لم تعد تصـنع كما كانت تصنع فى الماضى ٠٠٠ اذ أين الحـلاوة الطحينية « بتاعة زمان » ؟ والسـحلب الأصلى والمغـات ؟ والنوجة بالفستق ؟ وكشاكيل « الطاحونة » الفاخرة ؟ وباعة الفستق تذرع بلاجات

الاسكندرية جيئة وذهابا ؟ وأين اسكندرية الأمس ببلاجاتها النظيفة وكازينوهاتها ومطاعمها اليونانية وحدائقها ومواصلاتها من اسكندرية اليوم التى اختل أمرها وتلوث بحرها وعلاها البلى والصدأ ؟ وبور سعيد أيام العز ، أيام كان كيلو البطارخ فيها بجنيه واحد ، وكيلو الجمبرى بنصف جنيه ! ويا ألف حسرة على راس البر فى الأربعينات ! وأين ممثلو وممثلات اليوم من نجيب الريحانى ومارى منيب ؟ وهل ظهر مطرب أو مطربة منذ أن مات فريد الأطرش وأم كلثوم ؟ أو أدباء فى مثل قامة طه حسين وعباس العقاد ؟ حتى سماء القاهرة نفسها كانت أكثر زرقة !

مدى صحة الدعوى

قال محمد بن جرير الطبرى :

« حدثنا وكيع عن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها كانت تنشد بيت لبيد بن ربيعة :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم

وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

ثم تقول : رحم الله لبيدا ! كيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم !

قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم !

قال هشام بن عروة : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم !

قال الطبرى : رحم الله هشاما ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! » .

هذه القصة التى أوردها كتاب « الأغانى » لأبى الفرج وأمثالها توضح عمومية ظاهرة الحنين الى الماضى وأهله ، وأنها تشمل الشعوب كافة ، فى

العصور كافة ، وفى ظل كافة الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ٠ وعمومية الظاهرة تدفعنا دفعا الى الشك فى صحة الدعوى ومصداقية الشعور بأن الأمور فى تدهور مستمر فى كل مكان ٠ فلو أن الشباب حقا كان قد بدأ يفقد احترامه للآباء منذ زمن قدماء المصريين ، واستمر هذا الاحترام بعد ذلك فى التضاؤل تدريجا ، جيلا بعد جيل ، لما بقى منه شيء على زمن الرومان على أكثر تقدير ! ولو أن الأخلاق شرعت فى الانحطاط منذ زمن لبيد بن ربيعة ، وبدرجة أحست بها عائشة ، فعروة ، فهشام ، فالطبرى ، فالأجيال التالية جيلا بعد جيل ، لكان من العجب أن نسمع بوجود بقية منها فى زمن الملك فاروق ! وقد كان الشاعر الألمانى هاينى يقول : « كانت لدى الناس في الماضى معتقدات ، أما أهل زماننا فليس لديهم غير آراء ! » ٠ قال هذا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قبل خروج ماركس وانجلز ونيتشه وتولستوى ولينين وموسولينى وهتلر وجمال الأفغانى بمعتقداتهم ! فالأمر اذن لا بد راجع الى طبيعة بشرية تميل دوما الى الانتقاص من قدر الحاضر ، وإضفاء مسحة رومانسية على الماضى ٠ وهو ما يتمثل فى قولهم : « أزياء العام المنصرم قبيحة ، وما قبل عشر سنوات مضحكة ، وما قبل خمسين عاما لطيفة ، وما قبل مائة عام رومانتيكية ، وما قبل مائة وخمسين عاما رائعة » !

والمؤكد عندى أن الماضى لم يكن له سحره ، أو على الأقل ، لم يكن ساحرا بالدرجة التى يخالها الناس ٠ فان قبلت شهادة رجل مخضرم مثلى ولد فى زمن الملك فؤاد ، قلت ان الأحوال لم تكن بالروعة التى يظنها الكثيرون من شباب مصر اليوم ، ولدعوتهم الى مقارنة الأحوال المعيشية للفلاحين والعمال والحرفيين بالأمس بأحوالهم فى يومنا هذا ، والوضع الاجتماعى للمرأة فى مستهل القرن بوضعها الآن ، وكذا بالنسبة لقدر الوعى السياسى

والالمام بما يدور فى العالم الخارجى ، وتفتح العقول للتيارات الفكرية المختلفة ، وادراك معنى حقوق الانسان ، والعناية بالطفل ، واحترام حق الأبناء فى استقلال الرأى .. الى آخره . فان كان للضائقة الاقتصادية آثارها السلبية ، فبالوسع الاشارة الى ما أدت اليه من اضطرار الأفراد الى بذل المزيد من الجهد والبحث عن اعمال انتاجية اضافية تزيد من دخولهم ، بدلا من تبديد الوقت فى المقاهى كما كانوا يفعلون فى الماضى . ثم فليقارنوا ان شاءوا بين ثلاجات الأمس بفريجيديرات اليوم ، وفونوغراف الأمس بأجهزة الكومباكت ديسك ، ووابور الغاز بالفرن الكهربائى .. فان حسبوا أن بوسعهم افحامى بالاشارة الى شوقى وسيد درويش ، وسعد زغلول وطلعت حرب ، دعوتهم الى المقارنة بين كتابات المنفلوطى وصادق الرافعى الأشبه بغزل البنات وكتابات فؤاد زكريا الدسمة المفعمة بالفكر ، وبين تماثيل مختار وتماثيل صالح رضا ، وبين مسرحيات محمد تيمور ومسرحيات عبد الرحمن الشرقاوى ، وبين قصص محمود تيمور وقصص يوسف ادريس ، وبين افلام على الكسار وافلام صلاح أبو سيف ، وبين تمثيل يوسف وهبى وعزيزة أمير وتمثيل نور الشريف وسعاد حسنى ....

ان أفراد الجماعات الدينية يتغنون بمناقب السلف الصالح وزمن الخلفاء الراشدين ، وقت أن كانت الأمجاد والحياة المثالية . وقد رأيت بنفسى فى احتفال « الدوبار » بشمال نيجيريا صحفيا مصريا تدمع عيناه لرؤية الفرسان يرمحون بخيولهم ، اذ ذكره منظرهم بأيام وجيوش الفتوحات الاسلامية فى زمن أبى بكر وعمر .. وفى اعتقادى أن أولئك الذين يتشدقون بروعة الحياة فى العصرين الأموى والعباسى مثلا لن ترضى غير قلة قليلة منهم بالحياة فيهما لو كان بوسعهما ذلك ، ولو أنها كانت على دراية كاملة بالأحوال وقتها . وحسبنا أن نذكر أنها أزمنة عرفت الرق وعبودية المرأة ،

وتكرر وقوع الأوبئة والطواعين ، وانتشــار المجاعات ، وغلبة الفقر والأمية ، ومـآسى تعـدد الزوجات ، ووهن الصلة العاطفية بين الأزواج ، وبين الآباء والأبناء ، والسلطة المطلقة للحــاكم ، وضعف تأثير الرأى العام ، وقسوة العقوبات ولا انســانية معاملة المجانين والسـجناء ، وســوء الأحوال الصحية والجهل بسبل الوقاية من الأمراض ، وســذاجة نظم التعليم ، وجلد الشعراء وقطـع الرءوس لمجرد نزوة من الحــاكم ، واحراق المبتـدعين من المفـكرين وتقطيع أوصــالهم (اقرأ ما حدث لعبد الله بن المقفع فى زمن المنصور) وســوء حال المسنين والعجزة ، وقلة وسائل الراحة والترويح عن النفس ٠ وقد كان تشارلس ديكنز على دراية بخرافة عظمة الماضى اذ جعل على رف بحجرة مكتبه ورقا مقوى فى صورة ســبعة كتب يحمل جميعها عنوان « حكمة الأقدمين » ، ثم عنوانا فرعيا لكل منها ٠ والعناوين السبعة هى :

الجهــل ـ الخرافة ـ المقصلة ـ المشنقة ـ التعذيب ـ القذارة ـ المرض !

أســباب ظاهرة الحنين الى المــاضى

فالغــالبية اذن تريد أن تحلم بالمــاضى شريطة ألا تعود اليه ٠٠٠ وانما يجد الناس للمــاضى ســحرا ورونقا لأسباب بعضها قائم فى كل عصر ، وبعضها يتصل بعصرنا الحديث وظروف الحيــاة منذ نهاية الحرب العــالمية الثانية ٠

فاما عن الأسباب القائمة فى كل عصر فمنها :

اولا : أن المــاضى ان بدا أكثر حيوية وأعظم بريقا فليس ذلك لأنه كان أفضــل من الحاضر ، وانما لأننا كنا انفســنا أكثر تألقا وحيوية أيام الطفولة والصــبا والشــباب ، ثم ما عدنا الآن نشعر بالأشــياء والأحداث بنفس القوة الســالفة ٠٠ فأفــلام يوسف وهبى هى بالتأكيد دون مستوى افلام يوسف شاهين ٠ غير أنه ان كان الشيوخ منا يشاهدون اليوم من جديد

« بنــات الريف » على شاشة التيليفزيون فتدمع أعينهم ، ولا تدمع أعينهم اذ شاهدوا « اليوم السادس » ليوسف شاهين ، فانما تفسير ذلك هو انهم حين شاهدوا الفيلم الأول فى شـبابهم كانت قدرتهم على التأثر والتجاوب أكبر من قدرتهم على التأثر بالفيلم الثانى بعد أن شابت منهم الرءوس ووهنت العواطف ، فجاء تفضيلهم الأول على ضوء استعدادتهم لذكرى جيشان عواطفهم وقت الصبا والشباب ٠٠ كذلك الحال بالنسبة لمـا قرأناه فى شبابنا من كتب ، أو استمعنا اليه وقت الصـبا من الموسيقى والأغانى ٠ فان نحن أعلنا اليوم تفضيلنا اياها على غيرها ، فانما نحن فى الواقع نعلن تفضيلنا لأنفسنا وقت قراءتها أو الاستماع اليها أول مرة على أنفسـنا اليوم ٠ فالحنين الى الماضى هو فى حقيقته حنين الى المشاعر القديمة لا الى الأشياء القديمة ٠٠ حنين الى ايام كنا نخال كل شيء ممكنا ومتاحا لنا ، ايام كنا نشعر بالحب ونثير فى الغير مشاعر الحب تجاهنا ، ايام كانت الحياة امامنا لا خلفنا ٠

ثانيا : أن المـاضى يحمل فى طياته سمة الأمن والاطمئنان ٠ كل شيء فيه قد تحدد مكانه ، واستقرت معالمه ، ومعروفة سلفا ملابساته وعواقبه ٠ فهو كالمسرحية نأتى لمشاهدتها بعد قراءة نصها وقد المنا بأحداثها وعرفنـا خاتمتها ٠٠ هو معروف ومفهوم وآمن ثابت لا يتغير ولا يتحول ، قد اودعت فى الكتب والوثائق والمتاحف تفاصيله ، وسهل علينا الانغماس فيه دقائق التاريخ وحيوية الأفلام والروايات والصور التاريخية ٠٠ اما الحاضر فمجهول العواقب ، متميع المعالم ، لا نكاد نفرق ازاء تعدد جوانبه وانغماسنا فيه بين ما له قيمة دائمة وما هو عرضى زائل ٠

ثالثا : ذلك السخط الملموس دائما عند الكافة على الحاضر ٠ فالحيـاة فى جوهرها أكثرها شر ٠ غير أن الناس تأبى أن تصدق أن الشر كان دوما طابعها ، وتتوهم أن الحياة فى الحاضر وحده هى التى يغلب الشر والنقائص

عليها . وعلى ذلك فهم يتصورون أن الحياة فى الماضى كانت دائمـا ذات غرض وهدف ، وأن الناس فيـه كانوا لا يعرفون مللا أو ضـياعا وحيرة ، وانما كانوا يتحركون ويتصرفون وقد عمرت صدورهم الثقة ، لا كما نتحرك ونتصرف نحن وكأنما نساق الى الذبح . وبالتالى فهم يسبغون على الماضى البريق ، ويجدون الراحة فى النظر فيه واستعادة ذكراه ، وينقبون فيه عما يفتقدونه فى الحاضر التعس الأجرد .

رابعا : أن جهل الغالبية بالتاريخ يسهل على الناس تزييف الماضى . فلو أننا عدنا الى الماضى بملابساته الحقيقيـة بعـد تقديسـه وتفخيمه ، لاصابتنا خيبة أمل عظيمة ، ولو أتيح لنا أن نلتقى بأبطاله والشخصـيات التاريخية التى نعجب بها ، لكان الأغلب أن نفجع فيهم . وكلنا يعلم هذه الحقيقة من واقع تجربتنا حين نعود لزيارة بقعـة لها فى أنفسـنا ذكريات سعيدة ، أو حين نلتقى لأول مرة بأديب أو فنـان أو سياسى كنا نخاله كاملا . وهل ننسى كيف ظل توفيق الحكيم يحلم بباريس وزهرة العمر ، فلما أراد عبد الناصر أن يكافئه فى شيخوخته بتدبير عمل له فيهـا ، لم يطق أن يمكث بها أكثر من أشهر قلائل ؟ وفى ظنى أنه لو كان بوسعنا أن ننبىء هارون الرشيد أو سيف الدولة الحمدانى مثلا بأسباب تفضيلنا لعصره على عصرنا ، لظن بنا الخبال ، ولضحك من جهلنا بزمنه ، ولرد بأن أسـباب تفضيلنا لزمنه هى بعينها أسباب كراهيته له .

أما عن الأسباب المتصلة بعصرنا خاصة فمنها :

اولا : أنه بالرغم من ان المستقبل كان دوما غامضا بالنسبة لأبناء أى عصر ، فهو بالنسبة لأبناء زماننا ، وبالرغم من كتب ألفين توفلر وأمثاله ؛ أكثر غموضا وأحلك ظلمة ، فى حين أضحت دواعى عدم الاطمئنان اليـه اقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، وذلك بسبب انتشـار الأسلحة

النووية ، واخطار نشوب حرب عالمية ثالثة مدمرة ، وتلوث البيئة ، وتآكل مصادر الثروات الطبيعية والطاقة ، واضطراب أسس الاقتصاد العالمى ٠

ثانيا : ما ساد شعوب المجتمعات الحديثة فى معظم انحاء العالم من شعور بأن عملية التحديث لم تحل الجانب الأكبر من مشكلات البشرية ، بل وتسببت فى خلق مشكلات جديدة ، كتلوث البيئة ، وانهيار القيم ، وتفاقم الأمراض النفسية ، وانتشار تعاطى المخدرات بين الشباب ، واللجوء الى الجريمة واعمال العنف ، الى آخره ٠ فثمة اذن خيبة أمل فى فكرة التقدم والتحسن المستمر التى ازدهرت فى أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وتضاءلت الثقة فيما يخبئه الغد لنا ، وفى قدرة العلم على استئصال ما تعانيه البشرية من شرور ٠ قد يكون أهل القرن التاسع عشر اكبر شغفا منا بدراسة التاريخ ، غير أنه من المؤكد ان شكوكنا بصدد المستقبل اعظم واخطر ٠ وقد فقدت الحداثة ذاتها ما كان لها فى اعيننا من سحر وروعة ، وبات الناس يتطلعون الى الفرار منها بالعودة بذاكرتهم الى الماضى ، بعد أن تفاقمت ثورتهم على الحاضر واستفحل نفورهم منه ٠

ثالثا : انه مما ساعد على تغذية مشاعر الحنين الى الماضى تزايد معدل سرعة التغيرات فى عصرنا ، وضخامة هذه التغيرات ، وما يحدث من ثورات كبرى تنقل مجتمعاتنا فى زمن قصير من وضع الى وضع مغاير تماما ، خاصة منذ الثورة الفرنسية ٠ وهو امر من شأنه أن يجعل الماضى القريب يبدو وكأنه ماض بعيد ، ويفسر ما سبق ان ذكرناه عن اتساع نطاق الماضى بحيث بات الناس يحنون الى فترة ما قبل ثلاثين عاما او اربعين عاما حنينهم الى العصور السحيقة ٠

رابعا : ما حدث ويحدث منذ الثورة الفرنسية الى اليوم من انهيار وتبدد للمفاهيم القديمة المتوارثة عن الحياة وقدر الانسان والمرأة والأخلاق

والقوانين والمجتمع ، وعن الله والدين ومقتضيات السلوك ، وتآكل التقاليد والأنماط المعيشية والعلاقات الاجتماعية المألوفة ، وكلها كانت من عوامل ثبات نظرة الانسان الى الكون والحياة والعالم حوله ، والى كيانه وجيرانه وتحفظ عليه أمله وثقته فى المستقبل .

خامسا : وهو سبب تختص به مصر ، ويتصل بما شاع بين شبابها ومثقفيها ومفكريها من خيبة أمل وفقدان الثقة فى مختلف الحلول والمذاهب والأيديولوجيات التى جربتها مصر واحدة اثر أخرى على مدى قرن من الزمان ، مع حماس زائد فى كل حالة ، واستعداد للتضحية بالنفس فى سبيلها ، وايمان مطلق بفاعليتها ، وتهليل وتمجيد لقادتها ، واحتمال السجن والنفى والتشريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها ، حتى اذا ما طبقت ، لم ينجم عنها غير شيوع الفساد ، والدمار الاقتصادى ، وانهيار القيم والأخلاق ، والهزائم العسكرية ، وقمع الديموقراطية والحريات ، وتفاقم المشكلات الاجتماعية ... قد جربنا الليبرالية والحكم العسكرى ، والديموقراطية والفاشية ، وتعدد الأحزاب ونظام الحزب الواحد ، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادى ، والسير فى ركاب الغرب والسير فى ركاب الشرق ، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الافريقى ، ومساندة الأنظمة التقدمية (كنظام السلال فى اليمن) ومساندة الأنظمة الرجعية (كنظام النميرى فى السودان) ونادينا بكافة الشعارات ، وتلونت أجهزة اعلامنا بألف لون ، وقلب الكتاب والصحافيون معاطفهم ألف مرة ، ورقعوها بألف رقعة ، وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم ، وأقمنا لهم التماثيل ثم حطمناها بعد وفاتهم ، وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثم غيرناها ، وحاربنا اسرائيل ثم صالحناها ، وهللنا لثورة القذافى ثم لعناها ، واتحدنا مع سوريا ثم خاصمناها ، وسببنا السعودية ثم تلقينا المساعدات منها ثم هاجمناها ، وقاومنا النفوذ الأمريكى ثم استسلمنا له ، وأبرمنا

معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتى ثم مزقناها ..

فما الذى بقى لنا مما لم نجربه بعد ؟ ما الذى بقى لنا غير الاستغراق بكايتنا فى ماض قد استاصلنا من معالمه كل ما هو مؤلم مزعج ، وابقينا منها على كل ما هو مشرق مبهج ؟ .

عبـــادة الأســلاف

فاما الجماعات الاسلامية فقد اختارت المـاضى البعيـــد ، عصْر النبوة والخلفاء الراشدين والسلف الصالح . وقد لجأ افرادها الى ارتداء الجـلابيب واطلاق اللحى وفضلوا الجلوس على الأرض عند تناول الطعام كخطوة أولى فى سبيل العودة الى العصر الذهبى . وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى من هؤلاء الى الاستغراق فى الحنين الى المـاضى ، كلاهما يتمثلان فى عجز : العجز عن تبوء مكان يرضون به فى اطار النظام الاجتماعى والاقتصـــادى السائد ، والعجز عن مواءمة تعاليم الاسلام مع معالم العصر الحـديث وعن اقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الاسلامية الأكثر مرونة وتحررا.. فهنا ثورة على الحداثة ، وتنفيس مرضى عن مشاعر العقم والقهر ، وتفضـــيل واختيار مؤسف للهروب الى المـاضى على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم والتكيف والتغيير . وهنا حضارة مهزومة اطلت براسها هنيهة من قوقعتها فى محاولة للحاق بالعصر الحديث ، ثم اذا بها عند أول صدمة ترتد بسرعة الى القوقعة مفضلة البقاء فيها الى أبد الآبدين على مواجهة المصاعب والصدمات والتحديات ، ومحاولة ايهام نفسها وايهام الغير بان هذا التفضيل من جانبها للقوقعة ناجم عن كراهة لمظاهر الحضارة الحديثة ، وعن تعلق بماض مجيد . وعن التزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برىء .

واما حزب الوفد الجديد فقـــد اختار العهد الســـابق على ثورة عام ١٩٥٢ ، واستغل ظاهرة الحنين الى المـاضى فى جمع الأنصار والمتعاطفين ممن

ارتبطت فى أذهانهم - لسبب غير واضح أو مفهوم - كل « خيرات الماضى ومباهجه » بحزب الوفد ، وكأنما هو الذى كان مسئولا قبل الثورة عن توفيرها ، وعن تميز العلاقات الاجتماعية بمشاعر التآخى والتراحم ، وعن الاحساس بالأمن والطمأنينة ، وعن غيبة التوتر والضغوط العصبية ، وعن صفاء زرقة السماء ، وكأنما هو الذى صمم راية مصر الخضراء ، وأنتج الأفلام القديمة ، وكتب سيناريوهات على الكسار ، ووضع الألحان لأغانى سيد درويش وفرقة الموسيقى العربية ، ثم لكأنما بوسعه - متى تولى الحكم - أن يعيد كل شىء الى ما كان عليه قبل أن تفسده حكومة الثورة .. حتى سيجار الباشا زعيم الوفد نفسه أصبح رمزا من رموز الماضى محببا الى النفوس ! .



من المؤكد اذن أن الشعوب تلجأ وقت المحن والأزمات الى ايجاد صلة بماض هو فى زعمهم « مجيد » ، أو - على الأقل - « آمن هادىء مستقر » . ولا ننكر أن الانغماس فى الماضى يخفف من حدة الضغط العصبى (كما يخفف اخفاء النعامة لراسها فى الرمال من حدة توترها) ، ويلهى - كما تلهى المخدرات متعاطيها - عن الواقع ، ويريحنا ولو لساعات من التفكير فى حاضر دائب التغيير ولا شكل له ، وفى مستقبل لا نطمئن الى الصورة التى سيكون عليها . غير أنه من المؤكد أيضا - فى رأيى - أن ظاهرة الحنين الى الماضى تنطوى على مخاطر هائلة أخفها الميل الى تزييف التاريخ ، وانعدام الأمانة فى تسجيل أحداثه أو تخيلها ، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شىء بعبادة الأسلاف التى عرفها أهل العصور السحيقة ، والى الغضب والثورة على كل من تسول له نفسه أن يصور الماضى والأسلاف صورة واقعية لا رتوش فيها .. أما الخطر الأعظم فيكمن فى أن الاستغراق فى الماضى والحنين اليه يشل من قدرتنا على مواجهة الحياة المعاصرة ، والتصدى

لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لايجاد الحلول ، والاعداد للمستقبل ، ويعطل من امكانية الخلق والابداع ٠

ان الحاضر هو الزمن الوحيـــد الذى نملك أن نعيش فيـــه ، ولابد للواقع من أن يفرض نفسه فى وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ ٠ وانما تتحقق المأســاة وتقع الصدمة حين يتبدد الوهم ، ويزول تأثير المخدر بالافاقة ٠ كذلك فانه لن يكون بوسعنا اصلاح الواقع الا متى أدركنا زيف تقديس المــاضى الميت ومثاله وافكاره ، ومتى فهمنا أن تقديس المــاضى لمجرد انه ماض ينطوى على جهل ، وأنه أشبه بالسراب الذى لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا ، ومتى تصدينا لفضح اســـتغلال بعض الأحزاب والجماعات للتعطش الزائد اليه ، وتصدى المفكرون منا لبيــــان الجوانب الايجابية فى الحاضر والعصر الحديث مما لم يكن القدماء ليحلموا ببلوغه وتحقيقه ٠



لقد باتت مصر اليوم أشبه شىء برجل يتدافعه أشخاص كما يتدافعون كرة القدم : ثمة من يدفعه دفعا عنيفا الى الأمام ، وثمة من يعترض طريقــه ويرده ردا غليظا الى الخلف ، وثالث يميل به الى يسار ، ورابع يعود به الى يمين ٠ وكافتهم تتجاهل كونه كيانا قائما بذاته ، وتأبى الاعتراف بأنه قد يكون له توجهـــاته وأهدافه الخاصـــة به ، وارادته المســتقلة عن ارادتهم جميعا ٠

حديث فى الطائرة مع أستاذ يهودى عن الخمينية والصهيونيــة

فى الطــائرة من لندن الى ريو دو جانيرو ، كان مجلسى بجــانب رجل أوروبى فى نحو الخمسين ، ذى لحية كثة قد غلب عليها الشيب · واذ أخرجت من حقيبتى كتابا وشرعت أقرأ فيه ، شعرت بأن جارى يردد الى الكتاب بصره وقد غلب عليه حب الاستطلاع · ثم اذا به يبادرنى بقوله :

ــ كتابك يبدو مالوفا لدىّ · هل لى ان أسأل عن عنوانه ؟ ·

أريته الغلاف · غير أنى قبل أن انطق باسم المؤلف وبترجمة للعنوان العربى للكتاب ، سمعته يهتف فى سرور :

ــ آه ! « رسالة الاعتقادات الامامية لابن بابويه » ! ذاك ما ظننته ·

والتفت أرقبه فى دهشة ، فرأيته يبتسم لدهشتى ·

ــ لقد قمت بترجمة هذه الرسالة الى الألمــانية منذ سبع سنوات ·

ثم شرع يعرفنى بنفسه : ر· ل· أستاذ الدراسات الاسلامية باحدى جامعات المــانيا الاتحادية ·

ــ يهودى أنت ؟ ·

هز رأسه بالايجاب وقد اتسعت ابتسامته ·

ــ وقد قابلت الامام الخمينى مرتين وهو بمنفاه فى فرنسا قبل عودته الى ايران ·

ــ وحادثته ؟ ·

- بالتأكيد ‥ سافرت من ألمانيا الى باريس بقصد محادثته والتعرف على أهداف الثورة التى يدعو اليها ٠

- هل لى أن أسالك عما دار بينكما من حديث ؟ ٠

- حدثنى عن تاريخ علاقات العالم الاسلامى بأوروبا ، وعن دور الاستعمار الأوروبى وأذنابه فى زعزعة ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم ٠ ثم تكلم عن الحاجة الى ثورة فى جميع أرجاء دار الاسلام تقف حائلا دون المزيد من التغلغل الحضارى الغربى ‥ قال انه يدعو الى عودة المسلمين الى شريعة الله وعزل دولتهم (هكذا قال ، «دولتهم») لسنوات طويلة مقبلة حتى تجتث كافة التأثيرات الأجنبية منها اجتثاثا ويقام مجتمع اسلامى محض على دعائم من التقاليد والقيم والمفاهيم التى أرساها النبى والأئمة والسلف الصالح ، دون الاقتباس من شرق أو من غرب ٠

- وناقشته فى رأيه أم اقتصر الأمر منك على الاستماع ؟ ٠

- لست ممن يقتصر على الاستماع ٠ بالعكس ، كان حديثى اليه أطول من حديثه الى ٠

- فبماذا أجبته ؟ ٠

- أجبته بأنه وأمثاله من قادة الحركات الاسلامية المتطرفة يقعون فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الصهاينة من قبل ٠

وساد صمت قصير اتسعت خلاله ابتسامة الأستاذ اليهودى أكثر من ذى قبل ٠ ثم عاد يقول :

- قلت له ان سياسة العزلة القومية والتقوقع التى يدعو اليها ويدعو اليها الصهاينة ان كانت فى أية فترة فى الماضى قد أسفرت عن نتائج ايجابية طيبة ، فقد أضحت غير واقعية وغير عملية فى عصرنا هذا الذى

شهد تداخل العلاقات الدوليـــة واتساع نطاق التكنولوجيـا والصناعـــة والتجارة ٠٠٠ لقد انقضت أيام داريوس وأيام سليمان ، وانقضت تجـارة القوافل التى كانت وراء مجد سليمان ، وصرنا الى عصر جديد بتنا ازاءه فى حاجة الى مفاهيم جديدة ، ومواقف جديدة ، وفكر جديد ٠

ما الذى تعنيه دعوة الصهيونية ودعوة الخمينى غير الاصرار على العودة الى موقف قبلى عنيد متعجرف ؟ الاثنتان على حق فى اشارتيهما الى ما عاناه كل من اليهود والمسلمين من مظالم على يد الغير ٠ غير أن اى رد فعل ناجم عن عقدة اضطهاد ، أو رغبة فى انتقام ، هو رد فعل غير صحى وغير سليم ، وسيكون صاحبه ، على حد تعبير المثـل العربى ، كطاعن نفسـه ليقتل من خالفه ٠

هو موقف لن يعنى غير التخريب ٠

يجرى منطق الصهاينة على النحو التـــالى : « لقـد حقق أفراد الأمة اليهودية انجازات رائعة فى ميادين الفكر والفن والعلوم وغيرها أثناء عيشهم فى ظل ظروف صعبة للغاية ، مشتتين فى الدول الأوروبيـــة ، بين اقوام يخالفونهم فى العقيدة ، ويسومونهم صنوف الاضطهاد والعذاب ٠ فما بالك بالانجازات التى يمكنهم تحقيقها لو أنه اتيح لهم أن يعيشوا فى أمن وهدوء ورخاء داخل دولة يهودية خاصة بهم وحدهم ؟ » أليس هذا منطقهم ؟ غـير انى لا ارى ما يرون ٠ فاحوال العالم قد تغـيرت ٠ والانجازات الفـكرية أو العلمية أو الفنية الرائعة التى حققها افراد نابهون من اليهود أثناء شتاتهم فى اوروبا لا ارى فيها دلالة قاطعة على ما ستحققه امة اليهود فى دولة خاصة بهم ، ولا احسبها ستتكرر بالضرورة لو أنهم تجمعوا داخـل حـدود الأرض المقدسة ٠

نعم قد ساهم اليهود اسهاما جليلا وضخما فى الحياة العقلية والبحوث العلمية الاوروبية ٠ خاصة فى العلوم الحديثة ٠ ولا أنكر أن نسبة العلماء اليهود الى علماء الغرب غير اليهود أعلى بكثير من نسبة عدد اليهود الى عدد المسيحيين فى أوروبا ٠ غير أن ارجاع الصهيونيين وبعض اليهود (بل وبعض المسيحيين) هذه الظاهرة الى مميزات فريدة تميز هذه الأمة ، والى طبيعة تكوين افرادها وما يتمتعون به من مواهب وقدرات أو ذكاء لا يتمتع به غيرهم ، هو فى رأيى المتواضع اما تفسير ساذج ، أو تفسير خبيث ! ٠

ان روعة دور اليهود فى الحضارة الغربية لا ترجع الى مواهب خارقة مقصورة عليهم ٠ نعم هناك الكثير من الخصائص التى تميز مزاجهم وطباعهم واخلاقهم وسلوكهم عن غيرهم من البشر ٠ غير ان اى بحث موضوعى غير متحيز فى علم السلالات سيوضح لنا على الفور أن الدم اليهودى لم يكن فى اى وقت من الأوقات دما يهوديا خالصا ، وانهم كانوا دائما ، وعبر القرون ، ورغم حرصهم التقليدى على نقاء الدم ، يتزاوجون من غير اليهود فى أوروبا والعالم الاسلامي بنسبة كبيرة ٠ ولا شك عندى فى أن امتهم قد استفادت فائدة كبرى من هذا التزاوج والاختلاط ، ومن الحياة بين شعوب وامم غير امتهم ٠ فان شئت دليلا على ذلك فانظر الى اية قائمة من اسماء مشاهير اليهود فى اى عصر من عصور التاريخ الأوروبى ، وممن اسهموا اسهاما بارزا فى الحضارة الغربية ، وستجد نسبة ضخمة منهم من أولئك الذين اختلط بالدم اليهودى فيهم دم غير يهودى ٠

ما اريد الوصول اليه هو أن ما يسمى بالانجازات اليهودية العظيمة انما ظهرت داخل مجتمعات من غير اليهود ، وحققها يهود قد استوعبوا وتشربوا ونهلوا نهلا من مظاهر الحضارة فى تلك المجتمعات غير اليهودية ، لا اليهود الوافدون اليها من خارجها ، ولا جماعات اليهود فيها التى اختارت

اغلاق الأبواب على نفسها وقصر الاحتكاك والاختلاط بغيرهم على أضيق نطاق ... والنتيجة التى نخرج بها من كل هذا هو أن تحرر اليهودى الموهوب من قيود بيئته الدينية وتقاليده الثقافية والحضارية وكل ما كان نتاجا صرفا لعقلية أمته ، ثم انتهاجه بعد ذلك سبل البحث العلمى الذى هو أغلى ثمرة قدمتها الحضارة الغربية للانسانية ، وتنميته قدرته على الاستفادة من المظاهر الايجابية لتلك الحضارة فى ميادين العلم والمعرفة ، هى الشروط الأساسية التى لا غنى عنها حتى يصبح ذلك اليهودى رائدا خلاقا فى الحياة الفكرية ، وعلما بارزا فى المجالات العلمية .

سألنى الخمينى عندئذ ساخرا عما اذا كنت أعلنى بذلك أن فقدان الولاء للأمة والدين شرط للريادة والاسهام فى حضارة البشر . فأجبته بالنفى . وقلت ان ما عنيته من حديثى هو أن الشرط الأساسى فى أية اضافة بناءة الى العلم الحديث أو الى اى مجال من مجالات المعرفة يمكن لها ان تحقق نتائج باقية على مر العصور ، هو العقل المتشكك الذى يرفض الرضوخ للأفكار المسبقة ، ويأبى الا التحرر من المعرفة القطعية التقليدية ، ويرفض أن تمتد الى عنقه يد الماضى الميتة لتمسك بخناقه .

ثم أضفت قولى انى أعتقد بكل اخلاص أن المثقفين الموهوبين من المسلمين واليهود على سواء اقدر من الأوروبيين والأمريكيين على الخروج باسهامات جليلة فى الفكر الانسانى متى ما تركوا مخبأهم او مكانهم الآمن فى ظل تقاليدهم الجامدة التى ولدوا ونشأوا فى ظلها ، وتحرروا من القيود الغليظة التى تكبلهم ، شريطة الا يتبنوا تقاليد غيرهم ، والا يستبدلوا بقيودهم قيود الشعوب القسوية الغنية حولهم ... انه امر فى حاجة الى شجاعة خارقة ، والى قوة ليست من نصيب الكثيرين ، والى استعداد فريد لتحدى المجتمع بأسره ... مثل هذا الشخص المثقف الموهوب ، مسلما كان

او يهوديا ، هو بالضرورة المعكر لصفو السلام العقلى والراحة الذهنية لأمته ..! هو عدوها وزعيمها فى آن واحد . وهو وحده الذى بوسعه أن يقودها الى الخير . هو يرى الكثير من معارف أسلافه وتقاليدهم غير مناسب للعصر الذى يعيش فيه ، ويرى الكثير من تقاليده أوعية قد ختم عليها « تم صنعها قبل الميلاد ! » أو « تم صنعها فى العصور الوسطى ! » .. أوعية لا تشبه فى كثير أو قليل ما يحتاج الناس اليه فى عصرنا هذا وما يبحثون عنه من أجل حل المشكلات الخاصة بزمانهم .. أوعية فخارية وضعت وسط أوان من حديد ، ولا مفر من اصابتها بالكسر لدى أدنى احتكاك أو صدام .

المثقف المسلم أو اليهودى لابد واجد الأطر الذهنية التقليدية التى ورثها عن الأسلاف غير مناسبة للعصر . غير أن هذا لا يعنى أنه سيتقبل الأطر الذهنية التقليدية فى الدول المتقدمة حوله ، أو عادات شعوبها ووجهات نظرها .. لقد حطم أوثان قومه كى يحرر نفسه من ربقة العبودية ، لا ليكبل يديه من جديد بعبادة أوثان أقوام أجانب . وهذا هو بالضبط سر النجاح الغريب الذى نراه ونقرأ أو نسمع عنه لأفراد من المصريين أو الايرانيين أو العرب ممن يعيشون فى أوروبا أو الولايات المتحدة ... علماء ومهندسون واطباء وفنانون بارزون حققوا ما لم يكونوا يحلمون أو يحلم غيرهم بقدرتهم على تحقيقه وهم فى بلادهم ... لا أريدك أن تظن ، كما يظن الكثيرون ، أن السبب فى هذا راجع الى فقر الموارد ، أو ضعف التشجيع ، أو ضآلة المرتبات ، أو تخلف المجتمع ، أو عدم توفر الأجهزة العلمية فى بلادهم . قد يكون لكل هذا بعض التاثير . غير أن السبب الجوهرى فى رأيى هو تلك الجرأة المكتسبة على الشك ، الجرأة على الفكر الحر ، والجرأة على تبنى المفاهيم الاساسية لسبل البحث العلمى .

لقد برز هذا المصرى أو اليهودى أو الايرانى أو العربى فى الخـارج لا لانه قد اصبح « خواجة » وتنكر لقومه أو دينه • فالرحالة قد يرى اثناء رحلته فى اقطار اجنبية أمورا غريبة كثيرة ، ولكننا لن نراه بالضرورة يسجد لكل اله اجنبى يصادفه على قارعة الطريق • وانما برز هذا او ذاك لانه أدرك أن العزلة ضارة ، وأن فكرة الوطن القومى خرافة ، وأن اية امة تتقوقع على نفسها وترى السلامة فى العزلة عن غيرها ، لا يمكن ان تقدم فى أى وقت من الأوقات اسهاما ذا قيمة فى الفكر البشرى ، أو فى العلوم والفنون •

لقد خرج الموهوبون من اليهـود بما خرجوا به ، اثنـاء حياتهم مـع غيرهم ، وبفضل صلاتهم بهم ، واستيعابهم للجوانب الايجابية من حضـارة هذا الغير دون أن يضعف هـذا من تمسكهم بدينهم • ويخرج وسيخرج الموهوبون من المسلمين بما يخرجون به لهذه الأسباب نفسها ، وفى هـذه الظروف نفسها •

ذلك ما ذكرته للخمينى أثناء لقائى به •

والواضح أنه لم يقتنع •

قضـــاة الشـــرع

من الظواهر التى لم يولهـا مؤرخونا وعلماء الدين عنـدنا الاهتمـام الواجب ، ولا حاول أحد من قبل أن يفسرها أو أن يدرس عواقبها ، ظاهرة شاعت فى العالم الاسلامى منذ أوائل العصر العباسى ، وهى عزوف الأتقياء من الفقهاء عن تولى منصب القضاء ، والجلوس للحكم بين النـاس لتطبيق الشريعة الاسلامية ، واستنادهم ، من أجـل تبرير موقفهم ، الى أحاديث منسوبة الى النبى عليه الصلاة والسلام تنفر من تولى هذا المنصب ، مثل : « يجاء بالقاضى العدل يوم القيامة ، فيلاقى من شدة الحساب ما يود ان لم يكن قضى بين اثنين » ، و « من جعل قاضيا فكانما ذبح بغير سكين » ·

وقد حفلت كتب الأقدمين بمئات القصص عن كراهة صالحى الفقهـاء للقضاء · فقد روى عن أبى حنيفة مثلا أنه فضل الابتـلاء بالضرب والحبس حتى الموت على قبول دعوة الخليفة المنصور له بتولى منصب القاضى · كمـا روى عن أبى قلابة أنه لمـا دعى للقضاء ، هرب من العراق حتى اتى الشام ، فوافق ذلك عزل قاضيها ، فهرب واختفى حتى أتى بلاد اليمـامة · ودعى سفيان الثورى الى القضاء فهرب الى البصرة حتى مات وهو متوار · ويحكى انه لمـا تولى عبد الرحمن بن حجيرة قضاء مصر ، هتف أبوه قائلا : « انا لله وانا اليه راجعون ، هلك الرجل ! » · كذلك قيل انه لمـا تولى اسماعيل بن اسحاق القضاء ، وكان من علماء أهل الدنيا ومن سادة الفضلاء وعقلائهم ، هجره صديقه ابن أبى الورد قائلا له : « يا اسماعيل ، علم أجلسك هـذا المجلس كان الجهل خيرا منه ! » · فغطى اسماعيل وجهـه بردائه وأجهش

بالبكاء . وكانت الصوفية تسمى من قبلوا من الفقهاء منصب القاضى « علماء الدنيا » ، وتقول : « يحشر العلماء فى زمرة الأنبياء ، والقضاة فى زمرة السلاطين » .

السبب

وتكمن غرابة هذه الظاهرة فى أنه وقد أعلن الخلفاء العباسيون الأوائل عن نيتهم تطبيق الشريعة الاسلامية ، كان المتوقع من فضلاء الفقهاء ، والأولى بهم ، أن يقبلوا على تولى منصب القضاء من أجل ضمان تنفيذ شرع الله ، واخضاع أحوال الأمة لأحكامه ، لا أن يتهربوا منه وأن يرفضوه ولو أدى رفضهم الى جلدهم وحبسهم . فلو أن فريقا من الاقتصاديين مثلا ، فى عصرنا هذا ، طلع بآراء معينة وخطط محددة لاصلاح المسار الاقتصادى للدولة ، وأكدوا أن من شأن هذه الخطط وحدها أن تنقذ البلاد من ورطتها الاقتصادية ، ثم دعاهم رئيس الدولة الى تولى مقاليد الأمور من أجل تطبيق مفاهيمهم واقتراحاتهم ، معطيا اياهم الحرية الكاملة فى اتخاذ القرار ، فاعتذروا أو هربوا أو فضلوا السجن والتعذيب على تطبيق ما اقترحوه ودعوا اليه ، لبدا تصرفهم هذا غريبا مستهجنا ، ولكان للناس العذر ان هم شكوا فى جديتهم وحقيقة بواعثهم ، وفى قابلية مشروعاتهم للتطبيق العملى .

غير أنه ما دام الشك لا يخامرنا نحن فى حقيقة ورع أولئك الفقهاء الذين أبوا تولى منصب القضاء ، فما السبب اذن فى ذلك العزوف منهم عن الاشراف بأنفسهم على تطبيق أحكام الشريعة ؟

مثل هذا العزوف القوى عن تولى منصب القاضى لم يكن معروفا فى عهد الخلفاء الراشدين حين كانت أحوال المجتمع الاسلامى لا تختلف اختلافا

عظيما عن أحواله وقت الرسـول . ولا هو كان معروفا فى العصر الأموى حين كان قضـاة الأمصـار يفصلون فى القضـايا وفق اجتهـادهم ورأيهم الشـخصى ، ويسـتعينون فى قضـائهم بالمفـاهيم القـانونية الرومـانية والساسانية ، ويطبقون العرف الشـائع والشرائع المحلية مهما اختلفت من اقليم لاقليم ، وحين كان أمر تطبيق الأحـكام القرآنية ذاتها متروكا للقاضى، ياخذ بها أو لا ياخذ فى حدود علمه بها ، وعلى قدر تقواه .

لم تكن ثمة معضـلة اذن تواجه القاضى التقى قبل زمن العباسيين . فهو فى ظل الخـلافة الراشـدة لا يرى ما يطبقه شـديد المخـالفة لأحوال العصر ، وهو فى ظل الخلافة الأموية واسـع الحرية فى الحـكم بما يناسب ظروف الزمان والمكان . أما وقد جاء الخلفاء العباسيون يزعمون أنه ما من غرض يستهدفونه غير اقرار دعائم حـكم يرضاه الله وعلى أساس من شريعته وسـنة نبيه ، فقد وقع الفقهاء الأتقياء فى ورطة عظيمة فضلوا ازاءها رفض المنصب الذى يلزمهم بتطبيق احـكام الشريعة ، وهو منصب القضـاء .. كانوا فى قرارة أنفسـهم يدركون تغير طبيعة الظروف المعيشـية وأحوال الناس عنها فى زمن النبى والخلفاء الراشدين . وكانوا بعقولهم الراجحـة وبحـكم سعة ثقافتهم يعلمون حق العلـم أن القوانين كائن حى ، تسـن وتتطور ، وتنسـخ ويستبدل بها غيرها ، على ضـوء الاحتياجات المتطورة ، وتغير العلاقات وأساليب الانتاج فى المجتمع الذى تنظمه وتحـكمه . غير انهم كانوا فى نفس الوقت ، على درجـة كبيرة من الورع والتقوى ، ليس بوسـعهم الاحجام عن تطبيق ما قضت به الشريعة ، ولا المخالفة الصريحة لمـا جرى عليه عمل السلف . فهم موزعون اذن بين الرغبة فى العدل الذى لا يمكن أن يتحقق الا بمراعاة ظروف العصر واحتياجاته ، وبين الخشية من الخروج على أحكام الشريعة . وقد كان هذا الخوف من المسـئولية ، فى رأيى ،

هو السبب فى عزوفهم عن النهوض بالمسئولية • فكان ان رفضوا قبول الحكم بين الناس ، وآثروا الهرب والاختفاء والحبس والجلد على قبول المنصب، ورددوا من الأحاديث المنسوبة الى النبى ما يبرر هذا التنصل من المسئولية •

العـواقب

وكانت اولى عواقب هـذا الموقف أن شـهد العالم الاسـلامى انفصاما كاملا بين الفقه والواقع • لقد فضل الفقهاء أن يتركوا المجتمع يدبر أموره كما يهوى ، وانصرفوا عنه الى كتبهـم وحلقات دروسـهم فى المسـاجد . يفكرون ويتحدثون ويكتبون عن نظـام الهى شـامل ، وأحـكام لا شان لها ولا صـلة بالحياة الاجتمـاعية حولهم ، ولا هى ناجمة عن العـلاقات فيها ، ولا كان لديهم وقتها أدنى رغبة فى أن يروها تدخل حيز التنفيذ ، ولا أدنى امـل فى أن يطبق فى وقت ما ما يستنبطونه من أحـكام • كان أملهم الأوحد هو اكتشاف كنه الارادة الالهية ، لا تطبيق الشريعة عملا ، وكانوا يرون فى العزلة والبعد عن السـلطان وأفراد الرعية السـبيل الأمثل للتفكير فى هذه الارادة • وكانت النتيجة الحتمية هى ظهور الهوة السـحيقة التى تفصل بين دور الفقيه ودور القاضى ، وبين المثل العليـا وواقع الأمور ، وبين الأحـكام الشرعية التى اودعوها بطون كتبهم والممارسات القضائية التى كان يمكنها وحـدها أن تجعل من الأحـكام الشرعية قوة حيـة متطورة واعية بالأحوال الاجتماعية المتغيرة •

وليس بوسـع احد أن يزعم أن كافة من قبل أن يتولى منصب القضا كان من أراذل الفقهـاء واضعفهم دينا • ذلك انه كان منهم من اكره عليه ، وكان منهم من أبى أن يأخذ عنه رزقا او ان يصيب منه مالا • وكان منهم من أحجم وتردد ثم قبله معتقدا انه قد يكون بوسـعه ان يفيد الأمة بعلمه وعدله • غير ان هؤلاء الأفاضل الذين قبلوا منصب القضاء على مضض ،

وتمكن من نفوسهم الخوف من المسئولية ومن الوقوع فى خطأ يؤاخذهم الله عليه يوم القيامة ، نهجوا مسلكا أضر ضررا كبيرا بمسار العدالة فى دولة الاسلام ٠

كان سبيلهم للتنصل من المسئولية ولالقاء تبعة ما يصدرونه من احكام على عاتق الغير هو الزام المدعى الذى يقع عليه عبء البينة ، بتقديم شاهدين مسلمين من الرجال ، (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) ، يشهدان على صدق دعواه ، مع اشتراط العدل وحسن السمعة والسلوك فى الشهود ٠ أما الامارات والشواهد والدلائل الاستنتاجية التى قد تعين القاضى على اكتشاف الحقيقة فهى فى العادة غير مقبولة الا ان كانت من القوة بحيث تكاد أن تكون قاطعة ٠ وأما القاضى فهو غير مطالب لا باستجواب الشاهدين ان هو شك فى شهادتيهما ، ولا باحلافهما ، ولا بالاستكثار من عدد الشهود حتى يزول عنه الشك ، ولا بأن يزن شهادة المدعى بشهادة المنكر على ضوء غلبة الاحتمالات ، وانما هو مطالب قبل المضى فى نظر القضية بأمرين اثنين لا ثالث لهما : الأول : تحديد المسئول عن اثبات دعواه ، والثانى : التحقق من عدالة الشهود وأهليتهم للشهادة ٠ حتى اذا ما فرغ من هذا وذاك اكتفى بالاشراف على مسار القضية ، والاستماع الى الشاهدين ، والى يمين المنكر أو رفضه القسم ، ثم الحكم فى النهاية ٠

وتدل طبيعة هذه الاجراءات دلالة واضحة على أن المقصود بها انما كان اعفاء القاضى على قدر المستطاع من أية مسئولية مباشرة عن الحكم بما يخالف الشرع ٠ فاليمين وشهادة الشهود ملزمان للقاضى ، ولا يقوم الحكم على أساس غيرهما ، وبذا تكون مسئولية الحكم المنافى للشرع أو غير العادل واقعة على عاتق الخصوم والشهود لا عليه ٠

ولا شك فى أن مفهوم الشريعة عن شهادة الشهود يعكس موقفا مثاليا لدى فقهاء المسلمين ٠ اذ من ذا بوسعه أن يضمن أن يكون الشاهد الذى عرف قبل النظر فى القضية بطيب الخلق والسلوك ، صادقا فى شهادته فى هذه القضية بعينها ؟ كذلك فانه ليس من المألوف أن ترتكب الجرائم دائما بحضور شاهدين ذكرين بالغين عدلين مسلمين ، أو رجل وامرأتين ٠ وبوسع المدعى عليه دائما متى لم يقدم المدعى بينة مقبولة ، (كما فى حالة استشهاده رجلا وامرأة واحدة فحسب) ، أن يحصل على حكم لصالحه متى شهد بالله أن خصمه كاذب ، وهو قسم له دوره الفعال فى حسم القضية ، وناجم عن اعتقاد مثالى على صدق العاطفة الدينية لدى المدعى عليه ٠

فاتجاه القضاة اذن الى التنصل من المسئولية عن الحكم هو المسئول عن الطابع المثالى لاجراءات التقاضى فى الشريعة ، وبالتالى عن افتقارها الى السمة العملية ٠ وهذا الافتقار هو الذى حدا بالولاة والسلاطين الى الاستغناء الى حد كبير عن القضاة ، واسناد أمر النظر والفصل فى القضايا الى جهات أخرى متعددة ، مثل المحتسب (فى الشؤون التجارية) ، وصاحب الشرطة (فى القضايا الجنائية) ، وصاحب المظالم (فى الأمور التى يهم السلطة السياسية الفصل السريع الفعال فيها) ٠ وكان هؤلاء يتمتعون بقدر من الحرية لم يعرفه القضاة ، سواء فيما يتعلق بالاجراءات ، أو تقييم شهادة الشهود ، أو الفصل فى المنازعات على أساس أقوى الأدلة المتوفرة ٠ وقد تعرض الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » الى فضل نظر صاحب المظالم على نظر القاضى ، فقال « ان للأول من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة ، بكف الخصوم عن التجاحد ، ومنع الظلمة من التغالب » وأنه يستعمل من الشواهد ما لا يستعمله القاضى من أجل معرفة المحق

من المبطل . كما يقول الكندي فى كتاب « ولاة مصر وقضاتها » : « ان احمد بن طولون داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس عن القاضى ، وحتى كان القاضى ربما نعس فى محله ثم انصرف الى منزله ولم يتقدم اليه احد . ولم يكن فى مصر قاض فى ذلك العهد سبع سنين . فكان كل شىء يرد الى الناظر فى المظالم . وكذلك كان كافور الاخشيدى يجلس للمظالم ، حتى كان القاضى كالمحجور عليه لكثرة جلوس كافور للفصل فيها » .

تطوير الوضع

تبين للسلاطين والولاة اذن أن اجراءات التقاضى ، وتلك الخشية المفرطة لدى قضاة الشرع من المسئولية عن اصدار حكم ظالم ، لا تعرقل سير العدالة فحسب ، بل وقد تؤدى فى كثير من الاحيان الى اصدار احكام اكثر ظلما . فقد قضى المذهب الحنفى مثلا بان مدة حمل المراة يمكن أن يمتد الى سنتين ، فى حين قضى المذهب المالكى بامكان امتدادها الى خمس سنوات ! وقد ادت هذه الآراء النابعة عن خشية مضحكة من اتهام المرأة بالزنا ، الى ان اصبح من حق الأرملة التى تنجب طفلا بعد أقل بقليل من عامين من تاريخ وفاة زوجها ، ان تنسب الطفل الى زوجها المتوفى ، وأن ترث بالتالى نصيب الأسد من تركته ، واصبح على المتضررين من هذا الوضع عبء اثبات وقوع الزنا قبل وفاة الزوج ، وتقديم أربعة شهود شهدوا وقوع الزنا ، وهى مهمة تكاد تكون مستحيلة .

كذلك رأى هؤلاء السلاطين والولاة أن قضاة الشرع دابوا على النظر الى الجرائم التى ترتكب ضد الشخص ، من الضرب الى القتل ، باعتبارها جرائم ضد الشخص لا ضد المجتمع باسره ، وعلى القول بأن من حق الضحية او اقربائه ان يتظلموا او الا يتظلموا ، فان تظلموا وأدين الجانى كان لهم ان يختاروا اما العفو عن الجانى ، أو طلب التعويض (الدية) ،

او الحاق نفس الأذى به . واذ رأوا أن مثل هذا الموقف من قضـاة الشرع انما يعكس المفهوم القبلي عن العدالة في زمن كان الكيان القبلي فيه قد انهار واندثر ، لجأوا تدريجا الى سن تشريعات جديدة ، ثم اقاموا من أجل تطبيق هذه التشريعات الجديدة محـاكم جديدة تاخذ اجراءات مباينة لاجراءات قضاة الشرع ، بحيث اصبحت القوانين وسـبل تطبيقها بمرور الوقت علمـانية بحتة ، وبصورة صريحة .



ان الذين ينادون اليوم بالعودة الى تطبيق احكام الشريعة ، لا يدركون ابعاد العواقب التي ستنجم عن الأخذ بدعوتهم . وهم يجهلون او يرفضون ان يصدقوا أن الغالبية العظمى من هذه الأحـكام ليست من القرآن ولا من السـنة الصحيحة في شيء ، وانما هي من وضع فقهـاء لم يمارسوا الواقع ولم يعايشوه ، قد صاغوها منذ اكثر من الف عام وهم عاكفون في ابراج عاجية بعيدا عن ممارسات الأمة . وقد بقيت هذه الأحـكام المثالية جامدة لسببين : الأول : انها لم تطبق قط . والثاني : أن التغيرات في المجتمع الاسلامي ظلت حتى مطلع القرن التاسع عشر محدودة وقليلة نسبيا وضيقة النطاق . ثم اذا بالقرنين الماضيين يشـهدان من التطورات الهائلة الشاملة ما لا يكاد يكون بوسع القوانين ، حتى في العـالم المتحضر ، أن تلاحقها للاهتداء بها في تنظيمها للعلاقات الاجتماعية . وفي رايي ان المطالبة الآن بازالة الغبار عن قوانين وضـعها منذ أكثر من عشرة قرون أناس فاقدو الصلة حتى بمجتمعهم هم ، وواقعهم هم ، هي كاصرار شخص يحمل ذكريات سـعيدة عن طفولته على فتح صندوق يحوي حلة كان يلبسها ابان ذلك العهـد ، فما اخرجها وشرع في ارتدائها وادخل ذراعه فيها حتى تمزقت واستحالت في يـده نسجا مهلهلا .

المسألة القانونية
بين
الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي

[نص تعقيب لى على ورقة السيد المستشار طارق البشرى فى نفس الموضوع ، فى ندوة « التراث وتحديات العصر » ، بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٨٤] ٠

قد نجد من الطبيعى ان يذهب علماء الدين الى أن الشرائع السماوية لا دخل للاعتبارات التاريخية فيها ، وأن الأصل فيها انها صالحة لكل مكان وزمان ، وان الشريعة التى تصلح لتركيا تصلح للنيجر وبنجلاديش ، والتى تصلح لمصر فى القرن السابع الميلادى تصلح لها فى القرن العشرين ٠ فأحكام الشريعة فى رأى هؤلاء انما تعبر عن الارادة الالهية التى تحكم المجتمعات البشرية ، ولا تأثير لهذه المجتمعات فيها ٠ ومن ثم فانه لا مجال للقول بضرورة تطوير الشريعة على ضوء التطور التاريخى للمجتمع وتغير احتياجاته ، ولا دور للفقيه فى ارساء قواعد جديدة ، أو مواءمة الشريعة مع ظروف هذا المجتمع أو ذاك ، وانما دوره قاصر على اكتشاف كنه الارادة الالهية الثابتة غير المتغيرة ٠

ما نجده مدعاة للعجب ، وغير طبيعى ، هو ان ينبرى بعض القانونيين، من امثال السيد المستشار طارق البشرى ، للتنكر لأول قاعدة بديهية فى فقه القانون ، بل ربما لأول جملة تطرق سمع طالب الحقوق فى أول سنى دراسته ، الا وهى أن الأصل فى القوانين انها تسن وتتطور ، وتنسخ ويستبدل بها غيرها ، على ضوء الاحتياجات المتطورة ، وتغير

العلاقات وأساليب الانتاج فى المجتمع الذى تنظمه وتحكمه ، وأنها بالتالى، وبالضرورة ، تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأن القوانين والأنظمة التى بوسعها أن تطلق المواهب الخلاقة لأبناء عصر ما ، أو شعب ما ، غير القوانين والأنظمة التى يمكنها أن تطلق المواهب الخلاقة لأبناء عصر آخر ، وشعب آخر .

فان ردوا بأن هذا انما ينطبق على القوانين الوضعية دون الشرائع السماوية ، أجبناهم بأنه حتى فيما يتصل بالشرائع السماوية ، تجد فى مسألة النسخ فى القرآن الكريم ، آيات نسخت آيات ، وأحكام استبدلت بأحكام ، نتيجة لتطور الجماعة الاسلامية خلال ثلاث وعشرين سنة من الدعوة ، فما بالك بالتغيرات التى طرأت على مدى أربعة عشر قرنا ؟) ، ما يضعف من حجتهم ، وبأنه ما من شك فى أن بعض الأحكام القرآنية (كالآية الثالثة من سورة النساء التى تبيح تعدد الزوجات) راعى أحوال مجتمع الجاهليين ، وقدر صعوبة فرض أحوال مثالية ، واكتفى بالحد من شرور أوضاع كان من الصعب على الجاهليين قبول استئصالها دفعة واحدة ، وأن بعضها الآخر ، (كتلك التى تقضى بقطع يد السارق مثلا) ، كان ناجما عن حقيقة أن الشكل الغالب للملكية فى شبه الجزيرة العربية فى الجاهلية وفى زمن النبى عليه الصلاة والسلام ، هو الملكية المنقولة دون العقارية .

ويؤكد هؤلاء القانونيون ، وهم فى معرض بيان الصلة بين الدين الاسلامى وبين الشريعة الاسلامية ، أن اقصاء الشريعة من شأنه أن يصيب الدين فى بعض أركانه ، ويوهن من عزيمته بوصفه مرجع الشرعية . فان كانوا يبادرون مع ذلك فيضيفون ، وهم يدعون الى الأخذ بأحكام الشريعة ، قولهم : « من دون أن يخل هذا بقابلية التشريع للتطور والتجدد ،

وبقابلية الخصائص الحضارية للآمة للتطور والتجدد أيضا » ، معرفين الاجتهاد ، (وهو مقبول عندهم) ، بأنه سبيل التفسير المتجدد للنص الثابت على الوقائع المتغيرة ، فانهم لم يشرحوا لنا قط مفهومهم الدقيق الصريح عن العلاقة بين النص الثابت والتطوير المطلوب ، وعن حدود تفاعلهما ومعاييره والسبل العملية لاتاحته • وأجدنى دائما بعد القراءة لهؤلاء أو الاستماع اليهم ، عاجزا عن فهم كيفية أو ضرورة ثبات النص مع تفسيره المتجدد لمسايرة الوقائع المتغيرة • وعلى سبيل المثال فانه ما من احد منهم أجاب اجابة شافية عن سؤالى له : ان اقتضت الأحوال المتجددة والظروف المتغيرة واختلاف اشكال الملكية الغالبة ، الاقلاع عن قطع يد السارق ، فكيف يمكن تفسير النص الثابت على ضوء هذه الأحوال والظروف ، وكيف يكون بوسعنا عند تغيير الحكم آن نصفه بأنه « ثابت » ؟

شريعة الاسلام وشرائع الفرنجة

غير أن عجبى يشتد اذ اسمعهم يقولون انه « لا شبهة فى أن الاسلام كان هو السائد فى ديارنا ، فكرا وثقافة وسياسة ودينا وعقيدة ونظاما ، حتى نهاية القرن الثامن عشر حين بدآ الغزو الاستعمارى الأوروبى ينقض نسيج الأمة وانسجامها واخلاقياتها وكيانها الراسخ ، ليقيم بدلا منها نظما غربية رموا بها شعبنا ، ولم يراعوا عواطفنا وارادتنا واخلاقنا الوطنية وتقاليدنا القومية » • فليسمحوا لى بأن احتفظ لنفسى بما يساورها من شبهة فى هذا الصدد ، أثارتها قراءاتى فى البلوى وابن أبيك الداودارى وابن الفرات والمقريزى وابن تغرى بردى والصيرفى والسخاوى والسيوطى وابن اياس والجبرتى وعشرات غيرهم من المؤرخين المسلمين الذين احالوا هذه الشبهة عندى الى يقين بأن الاسلام لم يكن ، لا فى مصر ولا فى غيرها ، يسود فكرنا او ثقافتنا او سياستنا او عقيدتنا او نظامنا ، ولا كان ما يسمى

بالشريعة الاســلامية مطبقـا فى أى وقت من الأوقـات ، عـدا زمن النبى والخلفاء الراشدين ، قبل الاتجاه فى القرن التاسع عشر الى الاقتباس من النظم القانونية الغربية ٠

ثقافة وفكرا ؟ الذى نعلمه أن المشـايخ وفقهاء الاسـلام كفروا اختراع الطبـاعة فى حينه باعتباره بدعة ، فظل استخدامها محرما فى أقطار الدولة العثمانية حتى أفتى شيخ الاسـلام مرغما باجازتها بعد نحو ثلاثة قرون ، كانت أوروبا قد ألحت خلالها — ربما بفضل هذا الاختراع ذاته — فى أن تسبق العالم الاسلامى فى مضمار الحضارة ، وظل النهل من الثقافة الاسلامية لهذا السبب قاصرا على فئة محدودة للغاية من بين أبناء مجتمعنا ٠

سـياسة ونظاما ؟ انى لأربأ بهؤلاء القانونيين أن يعتقدوا أن حـكم امثال أحمد بن طولون والاخشيد ، أو الظاهر بيبرس وقلاون والغورى ، او مراد بك وابراهيم بك ، كان حـكما اسلاميا ، ناهيك عن حـكم الولاة العثمانيين ٠

أم أن الشريعة الاسـلامية كانت مطبقة حتى غزتنا شرائع الفرنجة ؟ لقد كان السلاطين والولاة أكثر الناس جهلا بها وتبجحا فى نقضها ، وكان جل جهود الفقهاء منصرفا الى اختراع الحيل والذرائع التى يتخلصون بها من الأحـكام الشرعيـة ، والى كيفية تجنب تطبيق الحـدود قـدر الامـكان ، والاستعاضة عنها بالتعزير الذى لم يذكره القرآن ، ولم يعرض له الحديث الا قليلا ، مراعين فيه اختلاف مراتب الناس وأقدارهم ٠

انى لأتفق معهم كل الاتفاق فى أن النظم الوافدة ، ومنها التنظيمات القانونية والحقوقية ، التى فرضـتها السياسة الأجنبية لدعم سيطرتها على مجتمعنا المغزو ، ساهمت فى اجتثاث تقاليد هذا المجتمع وأصوله ومعاييره ٠ واتفق معهم فى أن القوانين انما ينبغى أن تنبع من كيان الشعب نفسـه

وتطوره التاريخى ، لا مستمدا من جهة أجنبية ونظمها . غير أنى أسألهم وما قولهم فى النظم الوافدة من شبه الجزيرة العربية الى مصر مثلا فى القرن السابع الميلادى ، ومنها التنظيمات القانونية والحقوقية التى نراهم اليوم يدعوننا الى العودة اليها ؟ أكانت مطابقة لتقاليد الشعب القبطى وأصوله ومعاييره وكيانه وتطوره التاريخى ؟ وكيف عسانا أن نتصور موقف هؤلاء القانونيين من هذه النظم الوافدة لو أنهم كانوا يعيشون وقت الفتح العربى لمصر ؟ وكم من السنين يا ترى يرونها لازمة حتى تصبح النظم الوافدة تراثا نتعلق به ، وندعو الى العودة اليه ؟ ألا يمكن بهذا المنطق ومن هذا المنطلق أن تصبح القوانين الفرنسية هنا بمضى الوقت من ضروب التراث ؟

خطة خبيثة أم احكام الضرورة ؟

لقد ذكر المستشار طارق البشرى أنه « يبدو أن هدف تحويل مصر الى النظام القانونى الفرنسى قد بيت بليل من منتصف الستينات من القرن التاسع عشر فى بواكير عهد اسماعيل » ، وصور الأمر على أنه خطة خبيثة من أجل التمكين للأجانب من احكام قبضتهم على البلاد ، إتخذت سمت التحديث وارساء أسس التقنينات التى تتفق مع احتياجات دولة عصرية . ولكن ، اليس من الجائز أن يكون السبب الرئيسى هو أن المشرعين المصريين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين لم يجدوا فى أحكام الشريعة الاسلامية من المادة ما يكفى لسن التشريعات الدستورية والادارية والمدنية والجنائية والتجارية التى تسد كافة احتياجات العصر الحديث ؟

ان نسبة الاحكام الشرعية المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، بل وحتى فى الأحاديث النبوية المتفق على صحتها ، هى نسبة ضئيلة جدا الى الاحكام التى نحتاج اليها لتنظيم حياتنا المعاصرة . ذلك أنه ليس فى القرآن غير نحو ثمانين آية تتعلق بموضوعات قانونية ، كحد السرقة وحد الزنا

وأحكام الوصية والمواريث · ومعظم هذه الآيات الثمانين أكتفى بايراد مبادىء عامة تسمح بتفسيرات وتطبيقات شتى · كذلك اقتصر دور السنة الصحيحة على وضع بضعة أحكام تتصل بالحرب أو شعائر الدين (كأداة الصلاة) وعلى ادخال تعديلات ، على أسس دينية ، على العرف الجاهلى الخاص بالأحوال الشخصية ، وفق ما تقضى به الملابسات المتغيرة · وبالتالى فانه ليس صحيحا القول بأن القرآن والسنة قد شرعا أحكاما تفصيلية محددة لكافة مظاهر حياة المسلمين · والأقرب الى الصواب القول بأن العمل قد استمر فى مجالات عديدة ، أثناء حياة النبى ، بالعرف الذى كان سائدا فى الجاهلية ·

السنهورى والقانون المدنى

ما اجده طريفا حقا هو ما وجهه المستشار طارق البشرى من نقد الى الدكتور عبد الرزاق السنهورى الذى كتب فى منتصف الثلاثينات ، وهو على أهبة اعداد مشروع جديد للقانون المدنى ، يدعو الى تحرير الفقه المصرى من ربقة الاحتلال الأجنبى ، ويذهب الى أن من اهم الوسائل لهذا التحرر العناية بالشريعة الاسلامية ، « شريعة الشرق ووحى الهامه ، وعصارة أذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه ، وترعرعت فى سهوله ووديانه ·· لو وطئت أكنافها ، وعبدت سبلها ، لكان لنا من هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وقضائنا وتشريعنا ··· » ·

ثم ينتهى الدكتور السنهورى بعد هذا المدخل المهيب من اعداد المشروع الجديد للقانون المدنى ، فاذا به يجىء ـ كما وصفه طارق البشرى بصدق ـ والمصدر الغالب فيه هو القانون المقارن ، أما الفقه الاسلامى فان الاهتداء به كان فى اطار جد محدود ، وغلب على القليل مما اختير من الفقه الاسلامى ما كان استبقاه القانون المدنى القديم (١٨٨٣) من أحكام

جـد قليلة ، أو ما وجد له مثيل فى التشريعات الغربية الحديثة ، جرمانية او سنكسونية أو لاتينية !! ويعقب المستشار طارق على هذه المفارقة ساخرا بقوله :

« فدعوة الاستقلال قد تحققت هنا ، لا بحسبانه استقلال الذات عن الغير فقط ، ولكن بحسبانها أيضا استقلالا عن الذات نفسها ، أو بالأقل، استقلالا عن الذات التاريخية التى تشكل واحدا من المكونات الحالة فى النفس الجماعية المعاصرة » ٠

اذن فقد أخلف الدكتور السنهورى وعده ، ولم يكن صادقا ولا جادا فيما أعلنه من نية ٠ ولكنى أبادر فأسأل المستشار طارق عما اذا لم يكن قد دار بخلده تفسيرا لهذا التناقض بين النية والثمرة احتمال هو الأقرب الى الصواب فى رايى ، وهو أن يكون الدكتور السنهورى قد حاول ولم يستطع ، لقد كان صادق العزم على توطئة أكناف الشريعة الاسلامية وتعبيد سبلها ، ثم تبين له أن أحكامها المدنية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تمثل غير جزء صغير من قانون مدنى متكامل ، وأن فقه الشريعة ليس على ما ظنه هو نفسه عام ١٩٣٤ ، وما ينسب اليه من تقبل للمعاصرة ، وقابلية للتقنين ٠

صحيح أن الدكتور السنهورى عاد عام ١٩٥٣ ليتهم الفقه المصرى بالافتقار الى الطابع الشخصى ، وبأنه يكاد يكون تقليدا محضا ٠ غير أن اساس هذا الاتهام الصائب فى رايى ليس اهمال فقهائنا لوعاء الشريعة كما يذهب البعض ، وانما هو استقاؤهم فقههم من الفقه الفرنسى لا من واقع مجتمعنا ٠ وشتان ما بين الأمرين ٠

لقد هيئت للعالم الاسلامى خلال نحو اثنى عشر قرنا (قبل أن يقع فى براثن الفرنجة الذين يلقون عليهم الجانب الأكبر من تبعة ضياع هويتنا

القانونية) فرصة ارســاء دعائم شريعة اســلامية ، وتقنينات على هديها تتفق واحتياجات المجتمع الذى تحــكمه · غير أنه لم يفعل · ولا هو تحرك ليقنن · واذ بزغت فى عصرنا الحديث الحاجة الى التقنين ، صادف المشرعون فراغا قانونيا رهيبا كان لا بد من التعجيل بملئه · ومن المؤكد أن هؤلاء المشرعين قد أخطأوا خطأ فاحشا فى تمكينهم للتشريعات المخالفة لاحتياجات مجتمعنــا من التغلغــل والهيمنة ، وفى تسـببهم فى حـدوث الازدواجية والانفصام في نظمنا القانونية · غير أنه من المؤكد أيضا أن دواعى العجلة ، وعظيم الفراغ الســائد ، أعذار مخففة مقبولة · فان كان ســوء النية من جانب الفرنجة مقطوعا به اذ يعيدون تشكيل مؤسساتنا الفكرية والاجتماعية بما يخـدم مصــالحهم ، فليس من المقبــول أن ننسـبه الى رجل كالدكتور الســنهورى ، هو من أوسع أبناء أمتنا دراية بشرائع الفرنجة والشريعة الاســلامية واحتياجات الأمة جميعا ·

الاعتبــار التــاريخى

لقد كان من العيوب اللصيقة بالمفكرين الاسلاميين ، وبنظرة المسلمين الى دينهم ، اغفال الاعتبار التاريخى ومفهوم التطور ، وانعدام القدرة على اســتيعابهما والأخذ بهما · ومن مظاهر ذلك أن غالبيتهم تتوهم أن أحـكام الشريعة الاســلامية كما وردت فى كتب فقهاء المســلمين بين أيديهم ، هى كما قضى بها القــرآن الــكريم والسنة الشريفة ، وأنها على الحالة التى تركها الرســول صلى الله عليه وســلم وقت وفاته ، فى حين يدرك أى باحث جاد فى التاريخ الاســلامى أن الشريعة صرح شامخ أقيم معظم طبقاته طبقة طبقة على مدى قرون طويلة ، وبأيــدى بشر مثلنا ، وعلى ضــوء تطور المجتمعات الاســلامية واحتياجاتها ، وأن الكثير من الأحاديث المتضمنة لأحـكام شرعية هو من اختلاق أناس من أقطار شتى ، كان أحد الدوافع الى وضعهم اياها

مسايرة التطور ، أو الظروف الخاصة بقطرهم · فكيف يمكن اذن لآراء فقهاء من العراق وافغانستان والأندلس والشام والحجاز ، مضى عليها الف عام او يزيد ، أن ندعها تحد من حرية أناس فى مصر مثلا ، لهم ما كان لهؤلاء من قدرة على النظر واعمال الفكر ، فى التقنين لأنفسهم ، علما بان اهل مكة ادرى بشعاب مكة ، وابناء القرن العشرين أدرى باحتياجات وظروف القرن العشرين ؟ غير أن البعض يعتقد ان محاولة الاستقلال التى قام السنهورى بها قد أسفرت عن انسلاخنا من ذاتنا التاريخية ، وكأن فقه ابى حنيفة الأفغانى ، أو فقه مالك الحجازى ، أو فقه ابن حنبل العراقى ، هو بالضرورة جزء لا يتجزأ من الذات التاريخية المصرية ، ومن المكونات الحالة فى النفس الجماعية المصرية المعاصرة ·

الخلاصـــة

ان البعض يرى احكام الشريعة اقدس من ان تعاد صياغتها ، وينسب الى السلف الصالح حكمة خارقة لا يملكها بشر ، ومواهب وقدرات مقصورة عليه دوننا · قد يكون هؤلاء سلفا صالحا ، غير انهم بالقطع لم يخبروا ما خبرناه من احتياجات ومشكلات ، ولم يحيطوا علما بما احطنا به · هم أناس مثلنا ، ولكن علمنا بالتاريخ ومقتضيات التطور أوسع من علمهم ، وهو ما كانوا سيقررون به لنا لو أنهم بعثوا من قبورهم ·

والقوانين والأنظمة ينبغى أن تواكب تقدم العقل البشرى · وكلما نما هذا العقل واضحى اكثر استنارة نتيجة للاكتشافات والحقائق الجديدة ، وجب تطوير الشرائع والانظمة حتى تساير الزمن · فان لم نطورها واصررنا على الابقاء عليها كما كانت ، وعلى أن تحكم مجتمعنا القوانين التى حكمت مجتمع اسلافنا الأقدمين ، كنا كالرجل يصر على ارتداء المعطف الذى كان له وهو صبى ·

فان نحن سـلبنا أى جيل حقه فى أن يسـتقل عن الجيل الذى سبقه ، وفى أن يختار لنفسـه القوانين التى يراها تحقق خيره وسعادته ، وأن يغير مما تلقاه عن الأسـلاف حتى يوافق ظروفه وبيئته ويحل مشكلاته ، فانما نفسح بعملنا هذا مجالا للطغيان ، ونمكن للسلف من التحـكم فى مصيرنا ومقدراتنا ٠

ورحم الله أبا يزيد البسطامى اذ يقول :

« أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت ٠ يقول أمثالنا : حدثنى قلبى عن ربى ، ويقول أمثالكم : حدثنى فلان ، وأين هو ؟ قالوا مات ٠ عن فلان ٠ وأين هو ؟ قالوا مات » ٠

من أطاع عصاك فقد عصاك !

ثمة اتجاه فى مصر الآن ، ودعوة يشتد عودها ، الى استصدار تشريع يقضى بحظر انتاج الخمور واستيرادها وبيعها • والظاهر ان رجال السلطة ومجلس الشعب قد رأوا مرة أخرى أنه قد يكون من الحكمة أن يستسلموا لضغط التيار الدينى المتطرف بصدد مطلب هو أهون على أى حال من مطالب أخرى ، كقطع يد السارق أو فرض الجزية على الأقباط • وقد عودنا هؤلاء فى الآونة الأخيرة أن نتوقع منهم ارخاء شعرة معاوية كلما جذبتها تلك الجماعات •

ومع مباركتنا للنية وراء صدور مثل هذا التشريع ، نود ان ننبه الى ضرورة أن تسبقه دراسات عميقة جادة لعواقبه المحتملة • فقد سئم الشعب كثرة ما صدر من تشريعات لم تعط حظها من الدراسة ، ولا كان الهدف من تبنيها غير أن يحظى الداعون اليها بتصفيق الغوغاء • ولا أظن أحدا يرضيه التعجل بتدشين قرار يبدأ باحتفال مرح صاخب تراق خلاله الخمور فى نهر النيل ، وينتهى باراقة دماء المفكرين فى الميادين العامة •

ولعل أول ما ننصح السلطة ومجلس الشعب ببحثه قبل استصدار هذا التشريع ، هو ما نجم عن تشريع مماثل فى دول أخرى تبنته ، مثل الولايات المتحدة خلال الأعوام من ١٩٢٠ الى ١٩٣٣ •

التجربة الأمريكية

ففى ١٦ يناير عام ١٩٢٠ ، صدر قانون أمريكى يحظر صنع الخمور أو بيعها • وقد سبق صدور هذا القانون تعديل فى الدستور عام ١٩١٩ تم

نتيجة ضغط قوى من جانب دعاة تحريم الخمر (وغالبيتهم من البروتستانت) الذين ساءهم تأثير الخمر فى انتاج العمـــال ، وتبديد الرجال لدخولهم فى الحانات مع حاجة عائلاتهم الى المـــال ، وتهـــديد الأمن والنظـــام من جانب المهاجرين الجـــدد الى الولايات المتحـــدة ممن أقبلوا على شرب الخمر نتيجـــة لبشاعة أحوالهم المعيشية فى الأحياء الفقيرة ، وتفضيلهم قضاء وقت الفراغ فى الحانات على قضائه فى مساكنهم ، واعتبارهم الخمر المتعة الوحيـــدة فى حياتهم البائسة ٠

ولم يخطر ببال دعاة تحريم الخمر الارتقـــاء بالأحوال المعيشية لهؤلاء كحل للمشكلة ، وانما استقر رأيهم على أن الحل يكمن فى حظر انتاج الخمور وبيعها ، والحيلولة بينها وبين مستهلكيها ٠ وقد ناضلوا قرابة نصف قرن من أجل تعديل الدستور كخطوة فى سبيل استصدار تشريع بهذا الحظر ، وهو ما وافق عليه الكونجرس فى يناير عام ١٩١٩ ، على أن يبدأ العمـــل بالتشريع الجديد بعد عام واحـــد ٠ وكان من أبرز مؤيدى هـــذا التشريع السيناتور وارن هاردينج ، السكير الأعظم ، الذى رأى من الحـــكمة وهو فى سبيل ترشيح نفسه لرئاسة الجمهـــورية عن الحزب الجمهورى (والغالبية العظمى من أعضائه من البروتستانت المؤيدين للحظر) ، أن يعلن مؤازرته للتشريع ٠ وقد فاز فعلا بالرئاسة عام ١٩٢٠ ٠

وصدر التشريع رغم معارضة المسيحيين الكاثوليك الذين يستخدمون النبيذ فى بعض طقوسهم الدينية ٠ وقد ظن الـــكثيرون أن النـــاس سرعان ما سيألفون هذا الحظر ، خاصة وقد فرضت عقوبة الحبس لمدة ستة أشهر أو غرامة قدرها ألف دولار على كل من يضبط متلبسا بشرب الخمر ٠ غـــير أن ما حدث كان خلاف ما توقعوه ٠ فقـــد رأى المجرمون والمهربون ورجـــال العصابات فى صدور هذا التشريع فرصة ذهبية لمضـــاعفة دخولهم وتبنى

تجارة درت عليهم ملايين الدولارات . وقد أدى الحظر الى أن أصبح موضوع شرب الخمر يشغل تفكير الغالبية العظمى من أفراد الشعب ، حتى من أولئك الذين كانوا يمقتون الخمر قبل صدور التشريع . فاذ بات شربه الآن محفوفا بالمخاطر زادت الرغبة فيه . واذا بالحانات وقد فتحت أبوابها من جديد ، ولكن تحت اسم جديد ، تقدم فيها الخمور خلسة أو فى فناجين الشاى ، وتاتيها كميات ضخمة منها عن طريق مهربين قد أبرموا الاتفاقات وقدموا الرشاوى المناسبة الى رجال الشرطة وموظفى الجمارك وغيرهم من المسئولين . وسرعان ما أصبح الاتجار بالخمر أكثر التجارات ربحا فى الولايات المتحدة ، يتحكم فيه رجال عصابات سفاحون من أمثال آل كابونى ، قسموا بينهم الولايات الى مناطق تتبع كل منها عصابة معينة ، فان اعتدت احداها على مجال نفوذ أخرى سويت الخلافات عن طريق الاغتيالات . غير أنها غالبا ما كانت تتعاون بأمانة فيما بينها فى ظل اتحاد يعرف الآن باسم المافيا .

فما انتهت العشرينات حتى وصل عدد الحانات الأمريكية الى أقصى حد وصل اليه فى تاريخ الولايات المتحدة ، وأقبلت الملايين على شرب خمر هو أغلى سعرا وأردأ نوعية مما كانت تشربه قبل الحظر ، بل ان غش الخمر تسبب فى عدد هائل من الوفيات . وقد كان من المحظور على النساء دخول الحانات قبل صدور التشريع . أما بعد صدوره وبعد أن غيرت الحانات اسمها دون أن تغير مشروباتها ، فقد أقبلت النسوة على دخولها كى يشربن فيها ما لم يشربنه من قبل . والمقطوع به أن رشوة رجال الشرطة والمسئولين فى الحكومة بلغت ذروتها فى تلك الحقبة ، بل وكان الكثيرون من المرشحين للمناصب الرفيعة يعتمدون على عصابات تهريب الخمور فى تمويل حملاتهم الانتخابية مقابل وعد بغض الطرف عن نشاطها بعد الفوز بالمناصب . وقد تمكن أحد المهربين ، وهو جورج ريموس ، من أن يكون ثروة تقدر بأربعين مليون ولار ، فى حين كان مليونير آخر ، هو بيل ماكوى ، يأتى بالخمر فى

أسطول بحرى من البهاما الى نيويورك ، فترسو السفن خارج المياه الاقليمية ، ويأتى الناس اليها فى قواربهم لشراء الخمر ! أما مفتشو الحكومة الاكفاء الأمناء ممن أبوا قبول الرشوة أثناء حملات التفتيش عن الخمور فكثيرا ما انتهى أمرهم بصدور قرارات بفصلهم بتهمة « التقصير فى أداء الواجب » ! .

فما حل عام ١٩٣٣ ، حتى ساد الأمة اعتراف بالفشل ، واقر الجميع بأن تشريع حظر انتاج الخمر وبيعه واستيراده قد أدى الى زيادة فى استهلاك الخمر ، وارتفاع فى عدد الجرائم ، وشيوع الفساد والرشوة فى جميع انحاء البلاد ، بالاضافة الى ما نجم من وفيات واضرار بالصحة العامة نتيجة غش الخمور . وفى ٥ ديسمبر ١٩٣٣ تم الغاء القانون . غير أن عواقب تلك السنوات لا تزال قائمة الى يومنا هذا ، وتتمثل فى اقبال الشرطة وموظفى الحكومة على التعاون والاتفاق مع رجال العصابات والمجرمين ، وفى شيوع روح الاستخفاف بالقانون التى بدا ظهورها بين الأمريكيين منذ صدور التشريع عام ١٩٢٠ .

فضيلة الخصيان

وفى اعتقادى ، على ضوء تجارب الماضى القريب الذى شهد شيوع التهريب والجريمة فى مصر نتيجة تطبيق قيود مماثلة ، أنه باستطاعتنا أن نتوقع لمثل هذا التشريع ان صدر عواقب مشابهة لتلك التى شهدتها الولايات المتحدة فى العشرينات . غير ان ثمة أمرا اهم . وهو أن الحيلولة بين الناس وبين الخمر عن طريق التشريع لا يمكن أن نسميه الا بفضيلة الخصيان . وقد سبق لآرنولد توينبى ان ذكر فى كتابه « تحديات هذا العصر » وهو فى معرض الحديث عن الثورة البيولوجية المرتقبة حين تؤدى القدرة على التأثير فى الجينات الى استئصال ميل الانسان الى العدوانية

والشر ، أن مثل هذه الثورة ستنهى مسئولية الفرد عن أعماله ، وقدرته على تحكيم ضميره وعلى الاختيار بين الخير والشر ، فتصبح محاسبة الانسان فى الآخرة غير ذات موضوع ٠

كذلك فان تفضيل علاج موضوع شرب الخمر عن طريق التشريعات والقمع والحيلولة بين المرء وبين الحصول عليه ، أمر من شأنه ازالة كل فضل لمن آثر طاعة الله سبحانه وتعالى فانصرف عن الخمر من تلقاء ذاته ٠ وحتى لو كانت مثل هذه التشريعات مجدية فعالة ، وهو ما نشك فيه ، فقد ترى السلطة ومجلس الشعب والجماعات الدينية من الأجدى والأفضل أن تتم مكافحة هذا المنكر عن طريق الدعاية المكثفة لبيان أضراره وعواقبه الوخيمة ، وسبل الاقناع والدعوة بالمعروف الى الانصراف عنه ، والتركيز على بيان مخالفته لحكم القرآن الكريم ، مع ترك الأمر بعد ذلك لضمير الفرد ٠

وعلى أى الأحوال ، وسواء كان هذا الرأى منى صحيحا أو فاسدا ، فان اصدار مثل هذا التشريع - كما سبق القول - يحتاج الى دراسة متأنية متعقلة لكافة جوانبه ، ومختلف عواقبه ، من أجل الوصول الى رأى سليم وقرار حكيم ٠

عن القضاة والطلبة واليسار والسلطة والحزب الحاكم

المؤكد عندى أن المسئولين عندنا فى مصر اما أنهم لا يقراون التاريخ ، او انهم يقرأونه ولا يعتقدون أنه يعيد نفسه ، أو أنه يحوى دروسا بوسعهم الاستفادة منها ٠

لننظر مثلا الى تلك الظاهرة بالغة الخطورة التى نلمسها حاليا فى العديد من احكام القضاة المصريين ، وأعنى ذلك الاعراب المتكرر عن « حسرتهم » و « حيرتهم » ازاء « مخالفة » القوانين التى هم ملزمون بتطبيقها لاحكام الشريعة الاسلامية ، وندمهم على أدائهم فى مستهل خدمتهم يمين الولاء لتلك القوانين ، ومناشدتهم الحكومة ومجلس الشعب الاسراع بتقنين الشريعة ، ثم اقدام بعضهم فى جراة شديدة على تنحية القوانين جانبا والحكم بما يخالونه مطابقا للحكم الدينى ٠

ثم لننظر بعد ذلك فى كتب التاريخ لنرى ما اذا كانت لهذه الظاهرة سابقة يمكن لنا الاستفادة من دراسة اسباب ظهورها ، ومن دراسة عواقبها الوخيمة ، دون أن نرجع الى ما قبل قرننا هذا ٠ فان نحن قرأنا فى تاريخ المانيا خلال العشرينات ، قبل وصول النازية الى الحكم ، وجدناه سجلا ناطقا بانهيار سيادة القانون ٠ فقد كانت غالبية رجال السلطة القضائية فى ذلك العهد شديدة الكراهية للنظام الجمهورى الديموقراطى الذى قام فى أعقاب الحرب العالمية الأولى على انقاض امبراطورية القيصر ، وقررت تلك الغالبية ان تحذو حذو أفراد القوات المسلحة وأن تنضم الى المعارضة ٠ وكان لهذا القرار من جانبهم اثره الحتمى فى صبغ احكامهم بصبغة آرائهم

السياسية ، كلما عرضت أمام ساحتهم قضية خاصـــة بالارهاب الاجرامى النازى أصدروا أحكاما متعاطفة مع ذلك الارهاب ، مبررين موقفهم بقولهم ان ارهاب اليمين المتطرف انما نشأ كرد فعـــل لارهاب اليســار المتطرف فى السنوات التالية مباشرة لانتهاء الحرب ، وأن جرائم النازية انما تستهدف فى حقيقة أمرها حفظ النظام العـــام ، والحيلولة دون وصـول الشيوعيين الى الحـكم ، ودون هيمنة اليهود على اقتصاد المـانيا وثقافتها ووسائل الاعلام فيها ، وبالتالى فان لها ما يبررها ويدفع الى تجنب ادانتهـــا . وقد كانت نتيجة هذا الموقف من القضاة المتعاطف مع الجمـــاعات الارهابية أن تحول المجتمع الألمـانى المعروف بشدة احترامه للقانون والتمسك بالشرعية ، الى مجتمع يسوده العنف والعبث بالشرعيـــة وبالقـوانين والنظام ، واطمـأن النازيون الى أن القضاء سيغض الطرف عن جرائمهم ، فان اضطر الى الحكم بعقابها فالمؤكد ان يجىء الحكم مخففا والعقوبة هينة . ولا ادل على ما نذهب اليه من الاحصاءات التى أجريت للأعوام الأربعـة بين ١٩١٩ و١٩٢٢ والتى تبين أنه قد وقعت خلالهـــا ٣٥٤ جريمة اغتيال سياسى ارتكبهـــا اليمين المتطرف ، واثنتان وعشرون ارتكبها اليسار المتطرف ، فقضت المحـــاكم باعدام عشرة من اليساريين وسجن ثمانية وعشرين آخرين لمـدد متوسطها خمسة عشر عاما ، أما بصدد جرائم اليمين فانه بالرغم من اعتراف خمسين من أفراده بارتكاب جريمة القتل ، فقد قضى بأن التهمة لم تثبت على أحـد فى ٣٢٦ قضية ، واكتفى بالحكم بالحبس على أربعة وعشرين شخصا من بين الخمسين الذين اعترفوا ، وكان متوسط مدة الحبس أربعة أشهر ! .

حدث هذا كله ولدى القضاة اعتقاد بأنهم بمواقفهم هذه يســاهمون مســاهمة مشـكورة فى المعركة الناشـبة بين المـدافعين عن الشخصـية والتقاليد الألمـانية العريقة ، وبين أنصار الانفتاح على الغرب وفتح البـاب

أمام الاستفادة من الثقافات الغربية الأخرى ، واعتقاد بان العنف والجريمة السياسية سلاحان فى دفاع مشروع عن الذات الألمانية ضد المؤثرات الأجنبية الوافدة .

طلبة الجامعات

وثمة مثل آخر فى تاريخ النازية ، خاص بالطلبة ، كان يمكن للمسئولين المصريين الاتعاظ به لو انهم كانوا يقراون التاريخ أو يحفلون بدروسه . فالثابت أن أكبر نجاح للدعاية النازية خلال العشرينات لم يكن بين صفوف العمال أو الفلاحين او المثقفين أو رجال الأعمال أو حتى أفراد الطبقة المتوسطة الدنيا ، وانما كان بين طلبة الجامعات ، خاصة الوافدين منهم من الريف للدراسة فى المدن الكبيرة بالولايات الألمانية ، وهم الذين راوا مبادىء النازية تسوى بين أفراد الحركة ، ولا تميز بين غنى منهم وفقير . كما أنها توفر للساخطين متنفسا يعبرون من خلاله عن مظالمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ضد المجتمع والنظام القائمين . وقد كانت السلطات فى كل مناسبة يقوم فيها الطلبة النازيون باضرابات وأعمال تخريب او ارهاب تحاول بعدها مراضاتهم والرضوخ لمطالبهم ، خاصة بعد عام ١٩٢٠ حين باتت السلطات الحكومية والجامعية على السواء تفضل الاستجابة لكل ضغط او مطلب يمينى متطرف مهما بدت للأعين شناعته على مواجهة هذه الفوضى بالردع والحزم . فما حل عام ١٩٢٩ حتى كانت كافة الجامعات الألمانية واتحادات الطلبة فيها تحت هيمنة العناصر النازية .

اليساريون والليبراليون

ولعل هذين المثلين يدفعاننا الى التساؤل عن رد فعل اليسار الألمانى وسائر قطاعات الراى العام غير النازية ازاء الخطر الداهم . الحقيقة المؤسفة

المخجلة هى أن شرذمة ضئيلة ضعيفة من أفراد اليسار وتلك القطاعات هى التى كانت على استعداد للدفاع عن الجمهورية ونظام الحكم ، أو على حد تعبير أحد ليبراليي ذلك العهد : « كان زواجنا من الجمهورية عن غير حب ! » ٠٠ كانت مهمة حكومة فايمر الديموقراطية بالنسبة لهؤلاء جميعا هى مجرد ملء الفراغ الناجم عن سقوط نظام القيصر الى حين ظهور نظام أفضل ٠ فهو لا يعدو أن يكون فترة انتقالية ريثما تتبلور الأمور ٠ والغريب أن الشيوعيين الذين كان من المفروض ومن السهل عليهم أن يدركوا أنهم بالذات صائرون الى أبشع مصير متى وصل النازيون الى السلطة ، وأن من مصلحتهم هم بالذات أن يناصروا حكومة فايمر بكل ما فى وسعهم ، وأن يعاونوها على انجاح خططها الاقتصادية والاجتماعية ومشروعاتها الاصلاحية ، كانوا من أكثر الطوائف استخفافا بخطر النازية ، وكان عداؤهم لغيرهم من أفراد التيارات والأحزاب الاشتراكية الأخرى أشد وأقوى من عدائهم للنازيين ، كما أنهم أصروا على رفض التمييز بين النازيين الارهابيين وبين المحافظين من الطبقة المتوسطة ممن كان يهمهم العمل فى اطار سيادة القانون ٠

والواقع أن سقوط حكومة فايمر ما كان ليحدث لولا هذا الموقف الأعمى من اليساريين والليبراليين من خطر اليمين المتطرف ، ولولا أن الحكومة بدورها كانت ـ رغم جو الديموقراطية والحرية الذى وفرته ـ عاجزة تماما عن أن تصوغ لنفسها المبادىء والأفكار والمثل التى يمكنها أن تلهب مخيلة الجماهير ، وتثير حماسهم ، وتضمن تعلقهم بها ، وجديتهم فى الدفاع عنها ضد كل خطر أو عدو ٠ فكان أن سقط النظام الديموقراطى نتيجة لرضوخه لابتزاز جماعات ارهابية ، وطوائف تحتقر المدنية والديموقراطية ، وتمقت الليبراليين واليساريين ٠

فماذا كان بوسع الحكومة واليسار والليبراليين أن يفعلوه من أجل تدارك الموقف ؟

لا حرية لأعداء الحرية

أولا : كان عليهم جميعا أن يدركوا أن نجاح الارهابيين ما كان ليتحقق لولا استغلالهم لجو الحرية السياسية والديموقراطية الذى أشاعته الحكومة فى المجتمع ، فاتاح لهم أن تكون لهم صحفهم ومجلاتهم ، وأن يؤسسوا التنظيمات ويعقدوا الاجتماعات ويقيموا الاحتفالات ، وأن يسلحوا الشباب ويدربوهم على أعمال العنف والارهاب ، وأن يطبعوا الكتب ويوزعوا المنشورات ، الى آخره . وقد درسنا فى علمى السياسة والتاريخ أن الليبرالية لا يمكن لها أن تنجح ما دام لغير الليبراليين قوة يعتد بها ، وليس بوسع الديموقراطية أن تستمر وتبقى الا اذا كان الجميع يؤمنون بها ويحرصون على حمايتها . وقد كان واضحا منذ البداية أن الارهابيين كانوا يستفيدون من الديموقراطية دون أن يكنوا لها أدنى احترام ، وكانوا منذ نشأة حركتهم عاقدى العزم على ألا يسمحوا ، متى وصلوا الى السلطة ، بأن يتكرر الوضع فيستفيد غيرهم من الجو الديموقراطى . وما كنا فى حاجة الى ظهور الارهابيين بين ظهرانينا حتى ندرك أن الليبراليين المؤمنين بالديموقراطية هم فى خطر ان هم استرخوا ناعمى البال يستمتعون بدفئها ، وكأنها بالضرورة قائمة الى الأبد ، وأنهم فى خطر ما لم تكن ليبراليتهم مناضلة ، وانسانيتهم مقاتلة ، وعيونهم على الدوام يقظة ، مع ادراك لضرورة التسلح ضد عدو مسلح ، وضرورة الفظاظة تجاه مجرم فظ . فلا حرية صحفية لمن لن يوفر حرية الصحافة لمعارضيه متى وصل الى السلطة ، ولا حرية تنظيمات واجتماعات لمن هو واضح منذ اليوم أنه سيضرب تنظيمات خصومه ومخالفيه فى الرأى بيد من حديد ، ويفرق شملهم واجتماعاتهم .

اين يكمن الخطر ؟

ثانيا : كان على السلطات أن تدرك انه ما من سياسة تضمن استيلاء الارهابيين على الحكم قدر ما تضمنه سياسة التنازل والرضوخ بدعوى أن التنازلات تبعد شبح الصدام ، وتوفر السلام الاجتماعي • فالعكس تماما هو الصحيح • وقد سبق لمعاوية أن نصح الخليفة المحاصر عثمان بأن يختار لنفسه ما شاء من الحلول عدا حل واحد : أن يرضخ لمطالب أعدائه وهو مرغم ، ويطيعهم وهو كاره • وقد كانت الوسيلة الوحيدة لمقاومة النازية هى التصدى لها بالحزم لا محاولة استرضائها والاستجابة لمطالبها مطلبا فمطلبا • فالرضوخ لا يفهمه الارهابيون على أنه حرص من جانب السلطات على السلام والمصالحة الاجتماعيين ، وانما يفهمونه على انه دلالة ضعف وافتقار الى القدرة على المقاومة يجدر بهم استغلالهما فى تحقيق المزيد من الانتصارات ، وطرق الحديد وهو ساخن •

ثالثا : كان على اليسار والسلطة والمثقفين ان يدركوا أين يكمن الخطر الأكبر على الدولة ، وعلى الديموقراطية والحرية ، وعليهم جميعا ، ومن هو عدوهم الأول ، فيدفعهم هذا الادراك الى توحيد الصفوف فى جبهة صامدة مناضلة الى حين استئصال شأفته • غير أن الذى حدث كان على خلاف ذلك : كان اليسار سعيدا اذ يرى الارهابيين يهدمون بمعاولهم هيبة النظام وسلطانه ، طالما أنه هو المستفيد من زوال هذه الهيبة وهذا السلطان • وكانت الحكومة سعيدة اذ ترى التنظيمات النازية سدا عتيدا فى وجه نجاح الشيوعيين • وكان المثقفون الليبراليون ، كعادتهم فى كل عصر وقطر ، قاعدى الهمة خاملين ، لا يحسنون غير الكلام والنقاش ، عاجزين رغم استنارتهم ، او بسببها ، عن الوقوف فى وجه حركة همجية ديناميكية غير عقلانية • بل وكانوا — وهو الأدهى والأخطر — على استعداد للاعتراف بأن

القيم الغالية التى يعتزون بها ويعتبرونها أسمى ما فى الوجود ، قد يكون من الأنسب الآن اطراحها والتخلص منها باعتبارها كماليات روحية وترفا ذهنيا ، وعلى استعداد للاعتراف بأن اليمينية المتطرفة ، مع خطئها ، تمثل روح الشعب الألمانى وتحقق له ذاتيته الفريدة ٠

كان على كل هذه الفئات الثلاث أن ترى فى أفراد الفئتين الأخريين حلفاءها الطبيعيين ٠ غير أن ثلاثتهم شغلوا بالتناحر فيما بينهم عن الخطر الذى ابتلع ثلاثتهم فيما بعد ٠

الحزب الحاكم

رابعا : كان على حزب الحكومة ازاء ما تتمتع به الأيديولوجيا النازية من قدرة هائلة على اجتذاب قطاعات واسعة هامة من الجماهير ، ان يدرك انه ما من أمل فى نجاح المقاومة ما لم يطرح بدوره فى الساحة فكرا متكاملا قادرا على المنافسة ٠ كان السر فى جاذبية النازية بالنسبة للرجل العادى أو رجل الشارع غير المثقف أنها أوهمته بانها تعرض أمامه اتجاها فكريا ومبدأ فلسفيا ، وتطالبه باستخدام عقله واعمال فكره فيهما ، فاذا برجل الشارع ، وهو الذى لم يشغل ذهنه من قبل بمثل هذه الأمور العويصة ، ولا كان يحسب نفسه قادرا على فهمها حتى عرضوا عليه فكرهم الساذج ، يتخيل انه بات يفكر لأول مرة ، وسره وازهاه أن يرى نفسه فى سبيل تحكيم عقله والاختيار بين بدائل « عويصة » !

وقد كان على حزب الحكومة تجاه هذه الظاهرة مسئوليتان :

الأولى : أن يخرج بايديولوجية أخرى قادرة هى أيضا على اجتذاب الجماهير ،

والثانية : أن يفضح المزاعم الفكرية لأعدائه الذين باتوا يهيمنون على الشارع وعلى مستقبل الأمة ، وأن يظهرهم فى صورتهم الحقيقية : صورة أفراد محدودى الفكر والتعليم والثقافة ، قد استقوا جل معلوماتهم وأوهامهم من كتب بدائية هزيلة ومن الأساطير الجرمانية في القرون الوسطى ، يظنون هيستيريتهم رفاهة حس ، ويحسبون اضطرابهم الذهنى دلالة على تفكير عميق ، ويسعون الى فرض نمط تفكيرهم المشوش على أمة عريقة ، قد أكلت قلوبهم الكراهية ويخالون أنهم على أساس من هذه الكراهية سيقيمون المجتمع المثالى الذى سيباهون به الأمم يوم القيامة ، ويدعون ما لم يجرؤ جوته أو كانت أو بسمارك على ادعائه ، ألا وهو أنهم معلمو البشرية وقادتها .

وكان على حزب الحكومة أن يصدر تحذيراته القوية بصدد ما يتهدد الأمة بأسرها من أخطار ازاء تعاظم قوة أناس لا يلزمون أنفسهم بغير مبدأين : الارهاب والكذب ، وأن يوضح كيف أن الأمر لا يمكن الا أن ينتهى بكارثة ، كارثة تدفع المانيا الى عزلة رهيبة ، وتدفع العالم بأسره الى كراهيتها فمحاربتها ، وكيف أنه ليس من المقبول أو المستساغ أن يكون قدر تلك الأمة العظيمة أن تخرج بثورة دون فكر ، بل وضد الفكر ، وضد الحرية والحقيقة والعدل ، وأن تخرج بنظام يحرق الكتب ، ويرى فى كل معارض له مرتدا أو عميلا خائنا ، نظام لا يمثل غير الكراهية العميقة التى يكنها بسطاء العقول عادة لأصحاب الفكر ، ولا تنبع شعاراته الا عن عقد نقص عاطفية وذهنية يستحيل معها الخروج بسياسات تقدمية نبيلة ، أو تحقيق سعادة الجماهير . فان كانت قطاعات عريضة من تلك الجماهير تبارك الآن هذه الشعارات وتتحمس لها ، فما من أدنى شك فى أنها بعد بضع سنين ستصاب بخيبة أمل عظيمة حين تتبين استحالة تحقيق الوعود التى تكال لها الآن كيلا . وان كان المثقفون يرون السلامة اليوم فى السلبية والجبن ، فما من أدنى شك

فى أنهم سـيدركون غدا ، حين يتولى ادارة الشـؤون الخـارجية والداخليـة والاقتصادية والثقافية للدولة أناس فقيرو الحـظ من التعليم ، يهمهم أن يبقى الشعب على غبائه حتى يفرضوا عليه نمطـا ذهنيا موحـدا بفضل ما وفره العام الحديث من أجهـزة رهيبة القوة والفاعلية ، وبفضـل الايحاء وأبواق دعاياتهم الشيطانية ، سيدركون غدا أنه ما كان ينبغى أن يكون اعتبـار الخوف عندهم أقوى من اعتبارات العقد والانسانية والحكمة ، ولا الخلاف مع اليسار أو السلطة أو كليهما سببا يحول دون التلاحم فى جبهة قوية نشطة ضد عدو قوى نشط .

إستنكار البدعة وكراهة الجديد
موقف إسلامي أم جاهلي ؟

« كلما جاءهم رسول بما لا تهوى انفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ».

(سورة المائدة ٧٠)

كان جل ما اتى به الرسول عليه الصلاة والسلام قومه مخالفا للمالوف عندهم ، وللقيم والتقاليد السائدة بينهم ، مناقضا لمثلهم ونظرتهم الأساسية الى الحياة مما توارثوه جيلا عن جيل . فلا غرو ان لم تجد دعوته صدى واستجابة سريعين لدى اهل مكة . وما كانت المعارضة القوية التى لقيها منهم ناشئة عن امتعاضهم من تسفيهه لعبادة الأوثان ، بقدر ما كانت نتيجة دعوته اياهم الى تبنى موقف من الحياة لا هو مالوف ولا مقبول . فتعلقهم باصنامهم كان سطحيا وفى طريقه الى الزوال . غير انه جاء يدعوهم الى استهجان قيم ورثوها عن آبائهم واجدادهم كانوا يرون فيها ارقى مثل تحتذى . وسمعوه يسفه آباءهم ، وكانوا لا يفخرون بشىء فخرهم بالآباء . وراوه يتحدث عما يعتبرونه من الفضائل الكبرى وكانما هى مما يشين المرء ان يتخلق به .

وما كان ثمة عربى أصيل يسعده أو يسهل عليه أن يتخلى عما ورثه من مفهوم عن الفضيلة . كان العربى اذا فخر بفضائله أكد انه بتبنيه اياها انما يسعى الى التشبه بآبائه . بل انه حتى فى قراه للضيف كان يحرص على أن يقدم الطعام لأضيافه فى الأوانى التى ورثها عن أجداده . وها نحن نرى آبا امرىء القيس لا يورث ابنه سلاحه وخيوله فحسب ، وانما

يترك له أيضا « قدوره » التى هى رمز الكرم وحسن الضيافة حتى يواصل بها الممارسة المتوارثة لهاتين الفضيلتين ٠

لم يكن بوسع مثل هؤلاء قبول فكر جديد أو قيم مستحدثة ليس لها أساس مما تتناقله الأجيال وتحفظه التقاليد ٠ قد كان مجد الفرد منهم من مجد قبيلته ، ومجد قبيلته من مجد أجدادها (وهو ما عرفوه باسم الحسب) ٠ فالحسب وعظمة الأجداد هما أبرز دواعى الفخر لدى الفرد ولدى القبيلة على السواء ٠ وما كان المجد الشخصى ليهمهم قدر ما يهمهم الحسب والمجد المورث ، فان ساءتهم دناءة مسلك امرىء فسروها بدناءة أصله وخمول ذكر أجداده ٠

ثم ها هم يرون رجلا منهم يظهر بينهم بدعوة جديدة كل الجدة ٠ ويرونه علاوة على ذلك لا يملك من مؤهلات الزعامة والرئاسة ما ألفوه ووقروه واعجبوا به من مؤهلات فى شيوخهم وساداتهم ٠ أتى يكلمهم فيما لا يفهمون ولا يعرفون له أصلا ، ككبح الشهوات ، والتضحية بالمال ، والزهد فى الحياة الدنيا ٠ والقرآن الذى جاء به من عند ربه يحرم الخمر والزنا ، وهما ما كان الجاهليون يسمونهما بالأطيبين ٠ وهو يدعو الى أخوة ومساواة ٠ وينهى عن الفخر بالحسب وعن التنافس بين القبائل ، مؤكدا انه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لحر على عبد الا بالتقوى ٠ وهو يمتدح المسالمين وقومه يرون فى المسالة ضعفا :

❋ ودع عنك عمرا ان عمرا مسالم ❋

ويثنى على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وقومه يهزأون ممن ترك الثار واغتفر اساءة أو رد السيئة بالحسنة ، ويعتبرون من أقذع أبيات الهجاء بيت قريظ بن أنيف الذى يعير فيه قومه فيصفهم بأنهم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن اساءة أهل السوء احسانا !

* * *

موقف القرآن من التقاليد

غير أن ابن سعد يذكر أن أهل مكة ما اشتدوا وغلظوا فى معارضة النبى حتى هاجم آباءهم ونعتهم بالكفر وسفه أحلامهم . وقد كانت شكواهم الى عمه أبى طالب هى من أنه « ضلل آباءنا ... وانا والله لا نصبر على شتم آبائنا » . وقد شن القرآن الكريم هجوما عنيفا فى آيات كثيرة على تعلق الناس بالقيم والآراء والعقائد الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل ومناقضتها لكل منطق : فقوم النبى (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل) هود ١٠٩ . غير أن عقائد الآباء ليست صائبة بالضرورة : (أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) البقرة ١٧٠ . فان كانت معتقداتهم فاسدة فلا ينبغى قبولها : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) التوبة ٢٣ . كذلك فانه بمضى الأيام والعصور ، وبنمو المعارف وتراكمها قد يدرك الأبناء من الحقائق ما لم يكن للآباء والأجداد به علم : (يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى) مريم ٤٣ . واذ المرء بطبيعته عدو لما يجهل ، فالغالب أن يتشبث الآباء بمعتقداتهم البالية ، (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) يونس ٣٩ . ومن حق الأبناء أن يجادلوا آباءهم فيما يذهبون اليه ، (اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) مريم ٤٢ . (اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) الأنبياء ٥٢ - ٥٤ . كما أن من حق الأبناء حينئذ ، بل وواجبهم ، أن يتركوا نهج

الآباء ، (واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه اننى براء مما تعبدون) الزخرف ٢٦ · ذلك أن الله أحق أن نخشاه من الآباء ، (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) البقرة ٢٠٠ · فان ثبت لنا بالتروى والتفكير أن آباءنا قد جانبوا الصواب والحق فعلينا أن نختار الصواب والحق (أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) الزخرف ٢٤ · غير أن هناك من الناس من للتقاليد على عقله وقلبه سلطان مبين ، ويأبى قبول آية بدعة مستحدثة لمجرد أنها لا تتفق مع هذه التقاليد ، (ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) القصص ٣٦ · وقد كان هذا هو موقف قوم النبى عليه الصلاة والسلام منه ، (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) المائدة ١٠٤ · كلما دعاهم الى رأى جديد (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ؟) يونس ٧٨ · وقالوا عنه : (ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) سبأ ٤٣ ، وقالوا له : (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟) هود ٦٢ ، (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) الزخرف ٢٣ · وهذا موقف منهم لا يستسيغه عقل ، (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ؟) الأعراف ٧١ · فهم قوم يأبون تحكيم المنطق والفكر ، (لهم قلوب لا يفقهون بها) الأعراف ١٧٩ ، (قل هل يستوى الأعمى والبصير ، افلا تتفكرون ؟) الأنعام ٥٠ · والتفكير هو واجبنا الأول ، (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) النحل ٤٤ ، (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) الأنفال ٢٢ · وليكن شعارنا دائما : (وقل رب زدنى علما) طه ١١٤ · فان طلع علينا قوم برأى جديد ناقشناه معهم بالمنطق ، (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟) الأنعام ١٤٨ · أما الجدال عن غير علم ومنطق فمرفوض ، (وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم) الأنعام ١١٩ ، (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق) الرعد ٣٧ ·

« الباذنجان شـفاء من كل داء »

وقد أمرنا الرسـول الكريم أن نعرض ما ينسب اليه من أحاديث على القـرآن ، فما اتفق منها معه قبلناه وما خالفه منها أبينا الأخذ به · فهل يعقل بعد ما أوردناه من آيات (وقد أوردناها على سـبيل المثال لا الحصر) أن يسلم أحد بصـحة أحاديث نسبت الى النبى مثل : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شـبرا بشـبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضـب تبعتموهم » ، او « ألا واياكم ومحـدثات الأمور ، فان شر الأمور محـدثاتها ، وكل محـدثة بدعـة ، وكل بدعة ضـلالة ، وكل ضـلالة فى النـار » ؟ لقد اوردت كتب الصحاح والسنن والمسانيد والسير والمغازى والطبقات من الأحاديث المنسوبة الى الرسـول ما يذم البدع ويدعو الى رفض كل جديد محدث ، ما لا يمكن ان يتفق مع مفهوم الآيات التى اشرنا اليها ، وما ليس بالوسـع قبوله مع علمنا بان كل ما جاء به الاسـلام رآه الجاهلون من « محدثات الأمور » ، وعلمنا ان الرسـول عليه الصلاة والسلام كان أعظم رافض لاتباع سنة من كان قبله · فهل يمكن لمن أنزل عليه (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) الأنعـام ٩١ ، و (قالوا بل نتبـع ما ألفينا عليه آباءنا) البقرة ١٧٠ ، أن يقول : « سـيكون فى آخر أمتى انـاس يحدثونـكم ما لم تسـمعوا أنتـم ولا آباؤكم ، فاياكم واياهم » (صحيح مسلم) ؟

فان احتـج البعض بان هذه الأحاديث رواها البخارى ومسلم وغيرهما من الثقات ، قلنا انه قد ورد أيضا فى البخارى : « من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سـم ولا سـحر » ، وأنه قد ورد فى صحيح مسـلم « لولا حواء لم تخن انثى زوجها الدهر » ، وفى غير البخارى ومسلم « الباذنجان شـفاء من كل داء » ·

ويقينى أن مثل نبى الاسلام عليه السلام لم يكن كمثل أولئك الثوريين المجددين الذين يروى التاريخ انهم صارعوا قومهم وجاهدوا فى سبيل نصرة آرائهم ، حتى اذا ما نجحوا وقبلت أفكارهم واستقرت وأضحت جزءا من كيان مجتمعهم ، واعتبرهم الناس أبطالا مصلحين ، جزعوا وتنكروا لكل تجديد لاحق حتى لو أن هذا التجديد كان فى نفس اتجاه فكرهم ، وهاجموا كل بدعة مستحدثة حتى لو أن هذه البدعة لم يكن لها من غرض غير مواءمة فكر البطل المصلح مع ما يستجد من ظروف ، واتهموا دعاة التجديد بالمروق والخيانة ، وأكدوا ضرورة الولاء لمبادىء الآباء والزعماء الأول ، وهو ما فعله كل من لوثر وكالفن وستالين وعشرات غيرهم ·

« انتم اعلم بامر دنياكم »

روى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بقوم يأبرون النخل ، فسأل : ما يصنع هؤلاء ؟ فقيل له انهم يلقحون النخل · فقال : لو لم يفعلوا لصلح · فأخبروا بقوله فتركوا التلقيح ، ولكن لم ينضج الثمر · فلما علم الرسول بذلك قال : « انما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » · وكان عليه السلام يكرر للناس قوله : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » ·

ومفهوم هذا أن تعاليم النبى الملزمة للمسلمين هى تلك التى تتعلق بالدين والأخلاق لا المتعلقة بمعايش الدنيا الفرعية التى ذكرها على سبيل الرأى · ومع ذلك فاننا نرى بيننا من يذهب الى انتهاج نهج السلف الصالح فى كل شأن من شؤون الحياة ، كالملبس والمآكل ، بل وحتى فيما يقال لمن عطس ، ولا يرون مسلما حقا من تبع شيئا من عنده · وها هو القسطلانى يرى بدعة مرفوضة كل ما يتبع دون مثل من العصر القديم ، وكل ما لم يكن

معروفا فى زمان النبى . وعلى هذا تصبح القهوة والطباعة والاذاعة والجرائد والمصباح الكهربائى واستخراج النفط واستخدام الشوكة والسكين فى الأكل بدعا بغيضة ، وهو ما من شأنه أن يجعل الحياة فى ظل ظروف مخالفة للظروف السائدة فى زمن النبي والصحابة والتابعين أمرا محالا . (قل هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا) الكهف ١٠٣ و١٠٤ .

غير ان هؤلاء الذين يدعون الى انتهاج سنة السلف الصالح لا يذكرون كيف الغى الخليفة عمر بن الخطاب حصة المؤلفة قلوبهم من الصدقات والآية القرآنية تقول (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ...) التوبة ٦٠ . وقد استند عمر فى الغائه لحصتهم الى زوال العلة التي بنى عليها النص ، وهى نصرة الدعوة فى بدء الاسلام بعد أن قويت شوكته ورأى ان الأحكام الشرعية انما بنيت على علل ومقاصد ، وكلها راجعة الى مصالح العباد فى دنياهم وأخراهم . ولا يطبق الحكم – حتى ان استند الى نص شرعي – متى زالت العلة التى بنى عليها ، والتى هى شرط تطبيقه . وقد ذكر ابن تيمية « ان صحيح المنقول فى الشرع الاسلامى موافق دائما لصحيح المعقول » . واستنادا الى هذا المعنى ذهبت القاعدة الأصولية الى « أن الحكم الشرعى المبنى على علة يدور مع علته وجودا وعدما »، وخرج بعض الفقهاء بقاعدة عامة مؤداها « انه لا ينكر تغيير الأحكام بتغير الأزمنة والأحوال » . كذلك كتب السيوطى (الاتقان فى علوم القرآن) فى معرض حديثه عن النسخ فى القرآن يقول : « من أقسام النسخ ما أمر به لسبب ثم يزول السبب ، بمعنى أن كل أمر ورد يجب امتثاله فى وقت ما لعلة تقتضى ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة الى حكم آخر » . وقال : « ان هناك آيات نسخ حكمها دون تلاوتها . واذ أن النسخ غالبا ما يكون للتخفيف (التيسير) فقد أبقيت التلاوة تذكيرا للنعمة » .

البدعة ومعارضوها

إن البعض يرى أنه لا سبيل الى انصلاح أمور المسلمين الا بالعودة الى الماضى والالتزام بسنة السلف الصالح ٠ وهو قول سليم ان كان يعنى التنقيب عن الجوهر الأصلى للدين ، وازاحة ما تراكم على هذا الجوهر خلال عصور طويلة من الخرافات والأوهام مما حجب عن المسلمين معنى الاسلام الصحيح ٠ غير أن هؤلاء يمضون فيقولون انه على المؤمن أن يأخذ بالاتباع لا الابتداع ، ويعرفون الابتداع بأنه النظر الشخصى ، والاستقلال فى الرأى ، ومخالفة الاجماع والرأى العام ، وانتهاج أساليب حياة تخالف أسلوب حياة الرسول والصحابة والتابعين ٠

غير انى أنظر فارى من بين الأحاديث النبوية الشريفة ما يذهب الى أن « العلماء هم ورثة الأنبياء » ٠ وأفهم من هذا الحديث أنه كما أن على وارث التركة واجبا خلقيا يحتم عليه رعاية التركة وانماءها ، فعلى ورثة الأنبياء أن يرعوا التراث الروحى الذى خلفوه وأن ينموه ٠ وكما أن من حق وارث حانوت أبيه - بل ومن واجبه - أن يسعى الى أن يوسعه ويضيف اليه ويزيد من أنواع السلع المعروضة فيه ويستبدل سلعا رائجة بسلع قد كسدت وفتر الطلب عليها ، مراعاة منه لأحوال السوق ، فكذلك على العلماء ما يشبه ذلك فيما يتصل بما ورثوه ٠

بيد أن معظم علماء المسلمين لا يرون توسعا أو اضافة ، ولا يأخذون الا بالتقليد الأعمى والجمود الباطل ، مستندين فى تبريرهم قفل باب الاجتهاد الى عظمة شأن الاسلام فى عصره الأول ، وملقين تبعة تدهور حال المسلمين بعد ذلك على أسباب وظروف خارجة عنهم ٠ وهم فى هذا الموقف أشبه بمن أبقى الحال فى الحانوت الذى ورثه على ما كان عليه فى زمن أبيه وجده ، غير آخذ بعين الاعتبار ما طرأ على أساليب التجارة وأذواق الناس

من تغير ، مبررا مسالكه برواج الحانوت وبضاعته وقت آبائه ، ومعللا كساد تجارته المحتوم بفساد الزمن ، أو فساد الذمم ، أو فساد كل شيء عدا اسلوب تفكيره ٠

قد دعانا من رأى قفل باب الاجتهاد الى الوقوف عند آراء مجتهدين في عصر معين ٠ وقد كان هؤلاء المجتهدون يفكرون لانفسهم ، ويراعون في وضعهم الأحكام موافقتها للظروف المتغيرة في مجتمعهم ٠ غير أنهم سلكوا مسلكا خاطئا اذ صاغوا آراءهم المبتدعة في قالب احاديث نسبوها الى النبي واختلقوا الأسانيد لها حتى نلقى آراؤهم قبولا من الامة ٠ أو على حد تعبير بعضهم واعترافه : « كنا اذا رأينا رأيا صيرناه حديثا ! » ٠ فاذا بالأجيال التالية لقفل باب الاجتهاد وقد صدقت نسبة هذه الأحكام والآراء الى النبي، وحرمت على نفسها أن نرى لنفسها رأيا جديدا ، حتى ان كانت هذه الأجيال قد احاطت بما لم يحط به المجتهدون الأول علما ، ونشأت لديها مصالح واحتياجات لم يعرفوها ، وعاشت في ظروف لم يخبروها ٠

وكان أن قضى على الفكر الاسلامي بالتوقف ، وتفشى التقليد والجمود في الشريعة وغيرها ، واتهم كل صاحب رأى جديد باتباع الهوى ، ووصفت كل دعوة الى الاصلاح والتطوير بأنها بدعة ، واخترعت أحاديث نسبت الى النبي تستنكر البدعة وتبشر صاحبها بالنار ٠

وقد جاهد بعض أعاظم الفقهاء كابن تيمية وابن قيم الجوزية والشوكاني ثم الأفغاني ومحمد عبده من أجل أن يثبتوا بالأدلة الشرعية الواضحة أن باب الاجتهاد ليس مفتوحا فحسب ، بل هو واجب على كل من اتصف بصفات المجتهد ٠ ذلك أنه ما دام الوجود البشرى سلسلة من الأحداث والظروف المتعاقبة ، فان الاجتهاد والابتداع سيظلان دائما الجوهر الحي للتاريخ ٠ وقد فهمت الحضارات الراقية هذه الحقيقة حتى أضحت البدعة

مقصودة فی حـد ذاتها وطلبها متعمـدا ، وأسـمتها بالمنهج العلمی ، وحتی اصبحت ـ خاصة فی وقت الأزمات كالحرب أو الضائقة الاقتصـادية ـ تبدی تهافتنا علی الابتداع ، وتناشـد المبتدعين وتحثهم علی اجراء التجارب والاختبار والاسـتنباط ، بحيث بات التغيير وتوفير المرونة شـعار السـياسة العامة عندها .

ورغم ما تذكره كتب علم الاجتمـاع من أن الأزمات والاحسـاس بالخطر من شأنها أن تدفع المجتمعـات المتحجرة الجامدة الی ابـداء الاستعداد لتقبل الجديد من الأفـكار والمستحدث من الأساليب ، فلا يزال مجتمعنا الاسـلامی الملیء بالأزمات والمحفوف بالأخطـار يری البدعة كفرا ، والمستحدث عصيانا وتمردا ، والأسـاليب الجديدة تشويشـا غير مستحب للروتين والتقاليد ، ومخالفة مستهجنة لعادات الآباء والأنماط المألوفة من العيش . غير أن الوقت قد حان لأن ندرك أن التقدم متعـذر دون تغيير وابتداع ، وأن أولئك الذين يكفرون البدع لا يفعلون ذلك عن محض غباء ، وانما عن خوف علی مصالح خاصة تتهددها تلك البـدع . ذلك أن كل بدعة تقريبا تستدعی اعادة فی تنظيم القوی الاجتماعية ، فلا غرو أن نلمس عند كل من سـينحيه التغيير عن مكانته ، ويحـد من نطاق نفوذه ، استنكارا وكراهية للبدعة . وهم من أجل النجاح فی مقاومتهم لها لا بد أن يحظوا بتأييد الجماهير لهم ، ولا سبيل الی حصولهم علی هذا التأييد الا بالادعاء أن البدعة منافية للدين ، وأن الدين قد أوصی بالالتزام بسـنة الأولين ، وعدم الخروج عما كان شائعا لدی آبائنا واجـدادنا الأقدمين . والله أعلم أن دينـه الحی بریء مما يزعمون ، وأنهـم واشياعهم أناس قد يجاهدون فی نصرة الدين ، ويكتبون فی نصرة الدين ، بل وقد يموتون فی نصرة الدين ، غير أنهم علی غير استعداد البتة لأن «يحيوا» من أجل الدين .

الاجتهـــاد
حق هو أم واجب ؟

الاجتهـاد لغة بذل الوسـع فى طلب المقصود · والمجتهـد هو من يبذل وسعه ليحصل له ظن · وهو فى هذا على نقيض المقلـد الذى يعرفه السبكى فى « جمع الجوامع » بأنه « من يأخذ بمذهب غيره دون دليل » · وقد ورد فى حديث نبوى أن للمجتهـد أجرا اذا أخطـأ وأجرين اذا أصـاب · فالاجتهـاد اذن لا يقتضى عدم الوقوع فى الخطـأ ، وذلك بالنظر الى أن نتيجته هى دائما « ظن » ·

وقد ظل المسـلمون قرابة قرنين ونصف قرن بعد الهجرة لا ينكرون على أحد حقه فى اعمال فكره فى المسـائل الشرعية للتوصل الى حلول خاصة به · ثم ظهر بعد ذلك ميل الى تضييق معنى الاجتهـاد ، وقصر الحق فيه على كبار الفقهاء ممن يقررون الأحـكام ، والزام غيرهم بالأخذ بما توصـل اليه هؤلاء · وفى بداية القرن الرابع (أى حوالى سـنة ٩٠٠ ميلادية) ، سـاد الاعتقاد لدى فقهاء المذاهب الأربعة بأن مؤسسى هذه المذاهب ، والبعض ممن عاصرهم ، هم وحدهم الذين لهم أن يصلوا بفكرهم الى حلول لمـا يعرض من مسـائل ، وان كافة المسـائل الرئيسية قد تمت مناقشتها جملة وتفصيلا ، وصيغت الحلول النهائية لها ، فلا يحق أن يوصف أحد من وقتها والى أبد الآبدين بأنه أهل للاجتهـاد ، وعلى كل جهـد أن ينحصر مستقبلا فى نطاق الشرح والتطبيق لمـا ذهب اليه الأوائل · وبهذا قفل باب الاجتهـاد ، ولم يسمح للمسـلمين بغير التقليد ، وشاع القول بأنه لا يصـح للمؤمن أن ينقاد لمـا يمليه عقله عليه ، وأنه ليس ثمة حاجة الى العقل فى معرفة الحقيقة الدينية التى هى فى القرآن والسنة واقوال السلف ·

هدف الاجتهاد عند مسكويه

ومع ذلك فقد ظل هناك دائما فى العالم الاسلامى أفراد يرون رأى فضالى الذى بسطه فى كتاب « كفاية العوام » فى أنه ليس بوسع الانسان ان يصل بالتقليد الى ايمان ينجيه ، وينكرون الجمود الناجم عن قفل باب الاجتهاد ، ويصرون على حقهم فى الرجوع اليه · كان من بين هؤلاء ابن تيمية، وابن رشد ثم السيوطى الذى ذهب الى انه من الواجب الا يخلو زمن من مجتهد واحد على الأقل · غير ان اطرفهم رايا واعمقهم نظرة فى اعتقادى هو مسكويه ، الذى اجاب فى كتاب « الهوامل والشوامل » على سؤال لأبى حيان التوحيدى عن قضية الاجتهاد وسبب اختلاف الفقهاء فيما بينهم حول ما هو حرام وما هو حلال ، بقوله :

« ··· أما ما سوغ للفقهاء ان يقولوا فى شىء واحد انه حلال وحرام ، فلأن ذلك الشىء ترك واجتهاد الناس فيه · فبعض الأحكام يتغير بحسب الزمان ، وبحسب العادة ، وعلى قدر مصالح الناس ، لأن الأحكام موضوعة على العدل الوضعى ، وربما كانت المصلحة اليوم فى شىء ، وغدا فى شىء آخر، وكانت لزيد مصلحة ، ولعمرو مفسدة · والاجتهاد الذى يجرى مجرى التعبد أو لعموم المصلحة ، فى النظر والاجتهاد نفسه ، لا فى الأمر المطلوب ، ليس يضر فيه الخطا بعد أن يقع فيه الاجتهاد موقعه · مثال ذلك أن المراد من ضرب الكرة بالصولجان انما هو الرياضة بالحركة ، فليس يضر أن يخطىء الكرة ، ولا ينفع أن يصيبها ، وان كان الحكم قد أمر بالضرب والاصابة ، لأن غرضه كان فى ذلك الأمر نفس الحركة والرياضة · وكذلك ان دفن حكيم فى برية دفينا وقال للناس : اطلبوه ، فمن وجده فله كذا · وكان غرضه فى ذلك أن يجتهد الناس فيعرف مقادير اجتهادهم ، ليكون ذلك الطلب عائدا لهم بمنفعة اخرى غير وجود الدفين · فانه لا يضر أيضا فى ذلك

أن يخطىء الدفين ، وانما الفائدة كانت في السعي والطلب ، وقد حصلت للطائفتين جميعا ، أعني الذين وجدوه والذين لم يجدوه ٠

« وأصناف الاجتهادات والنظر الذى يجرى هذا المجرى كثيرة ٠ فمن ذلك كثير من مسائل العدد والهندسة وسائر الموضوعات ، ليس غرض الحكماء فيها وجود الغرض الأقصى من استخراج ثمرتها ، وانما مرادهم أن ترتاض النفس بالنظر ، وتتعود الصبر على الروية والفكر اذا جريا على منهاج صحيح ، ولتصير النفس ذات ملكة للفكر الطويل ٠ فاذا حصلت هذه الفائدة فقد وجد الغرض الأقصى من النظر ٠

« وليس ينبغى أن يتعجب الانسان من الشيء الواحد أن يكون حلالا بحسب نظر الشافعى ، وحراما بحسب نظر مالك وأبى حنيفة ٠ فان الحلال والحرام في الأحكام ليس يجرى مجرى الضدين أو المتناقضين ٠ فينبغى للعاقل اذا نظر فى شيء من أحكام الشرع أن يجتهد فى النظر ، ثم يعمل بحسب اجتهاده ذلك ٠ ولغيره أن يجتهد ويعمل بما يؤديه اليه اجتهاده وان كان مخالفا للأول ، واثقا بأن اجتهاده هو المطلوب منه ، ولا ضرر فى الخلاف » ٠

القصد الحقيقى

وقريب من هذا الرأى لمسكويه ما كتبه الفيلسوف البريطانى المعاصر أ٠ج ٠ اير A.J. Ayer :

« دأب أحد مشاهير علماء الرياضة على تذكير طلبته بأنهم حين يفكرون فى معضلة رياضية صعبة مستعصية على الحل ، يصيبون من خلال تفكيرهم فيها كل ما هو ذو قيمة حقيقية ٠ وهو قول يصدق على الفلسفة أكثر ما يصدق حتى على الرياضة ٠ فالمعضلات الكبرى فى الفلسفة لا تزال بعد

أكثر من ألفى عام مستعصية على الحل ، ولا شك فى أنها ستظل دوما كذلك · غير أن البنية الأساسية للحضارة الغربية ، وكافة المناهج الرئيسية للفكر والعمل عندنا ، ليست الا ثمارا جانبية ايجابية لهذا الفشل » !

ولنضرب لذلك مثلا :

ينص قانون أوم الذى كشف العلاقة بين شدة التيار الكهربائى وشدة المقاومة له على أن « فرق الجهد الكهربى = شدة التيار × المقاومة » · غير أن قيمة هذا القانون الحقيقية (على ضوء نظرية مسكويه وفكر اير) ليست فى نتيجته بقدر ما هى فيما جال بخاطر أوم من تساؤلات قبل توصله الى قانونه ، والمفاهيم الكامنة وراء تساؤلاته ، كمفهومه عن شدة التيار وقوة البطارية المولدة له باعتبارهما مقادير تقاس وتعقد المقارنات وتكتشف العلاقة بينهما ، ونظره الى كل هذا على أنه من الأمور الواجب أخذها فى الاعتبار عند دراسة التيار الكهربائى ، ثم طرق البحث والتجربة وقياس المقادير ، وتحديد الأجهزة اللازمة للتجربة ووسائل استخدامها ·

فالطالب المقبل على دراسة علم الكهرباء ، غير مطالب بتصديق قانون اوم · لكنه مطالب بفهم الأسئلة ، وباستخدام الأجهزة بين يديه فى التحقق من صحة القانون · وهم يعلمونه كيفية طرح الأسئلة واستخدام الأجهزة ، ولا يفرضون عليه قبول نظريات الأقدمين دون جدل أو نقاش أو تمحيص · يعلمونه كيف يتحقق من صدق ما يقال ، ولا يوهمونه بانه متى قرأ كتب الأسلاف قد أضحى من العلماء العارفين · ولو أن الناس جميعا نسيت قانون أوم وبقيت لهم تساؤلاته ومنهاجه فى البحث عن الاجابات ، لأمكنهم اعادة اكتشاف القانون فى بحر ساعة أو أقل · أما ان هم حفظوا القانون دون ادراك لقيمة التساؤلات ومنهاج البحث ، فسيكون القانون فى أيديهم كالساعة فى يد همجى لا علم له بطريقة تشغيلها ·

فالذى يعنيه مسكويه اذن هو ان المقصود والمرغوب فيه لا معرفة ما اذا كان هذا الأمر أو ذاك حراما أم حلالا ، ولا الالمام برأى الشافعى أو رأى أبى حنيفة فيه ، ولا تقبل الأحكام لمجرد أن علماء السلف قالوا بها ، وانما المقصود هو الاجتهاد ذاته ، واعمال الفكر ، وطرح الأسئلة بطريقة سليمة ، واستيعاب المفاهيم التى تمكننا من طرح المزيد من الأسئلة ، ومنهاجية البحث عن اجاباتها . وانما تكمن أهمية كل هذه الأمور فى امكان اختبار مدى مسايرتها لمصالح الناس المتغيرة بحسب الزمان ، وحسب العادة ، والتحقق من فاعلية التغيير المطلوب فى الأحكام على ضوء اختلاف الأحوال والظروف . وبالتالى يصبح من واجب كل ذى عقل أن يقدم على التفكير والاختبار ، وتوسيع نطاق التجارب ، وتطهيرها من النتائج الباطلة ، والأفكار البالية ، لا أن يستخدم النتائج التى توصل اليها الأوائل فى كبت شكوكه ، ومنع الآخرين من التساؤل والتأمل والاجتهاد .

حق المرء فى اعتناق الرأى

وهنا يثور التساؤل عما اذا كان من حق كل انسان أن يعتنق ما يعن له من آراء وافكار ، مهما كانت هذه الآراء باطلة ، والأفكار سقيمة . فالكثيرون يذهبون الى تأكيد حقه هذا ما لم تؤد آراؤه الى اقدامه على تصرف غير مرغوب فيه ، أو منع غيره من التفكير كما يحلو له .

بيد أنه مهما بدا هذا القول سديدا فى مجال التشريع وسن الدساتير ، فما من شك عندى فى أن الانسان لا يملك حق اعتقاد رأى ما لم يكن قد درسه وقلب فيه نظره ، واجتهد حتى توصل اليه بالصبر والاختبار والبحث الجاد . فهو حق يتصل اتصالا وثيقا بالأساس الذى بنى المرء عليه اعتقاده ، وبالسبل التى سلكها من أجل الوصول اليه ، لا بالرأى نفسه ، ولا بما اذا كان قد ثبتت صحته أم فساده . وهنا يكون التساؤل عن وزن الأدلة

التى جمعها وصبر على تقصيها ثم استند اليها فى تكوينه لرأيه • فثمة فارق ضخم بين من حيره سؤال فانبرى يفتش عن اجابة عليه ، دون تعصب أو هوى أو ميل مسبق ، يزن الآراء المختلفة والمتناقضة فيه ويختبرها ، وبين من قاده هواه الى هذا الرأى أو ذاك مهما كانت الحجج التى تنتقص من قدره ، ولمجرد انه راغب فى اعتناقه لسبب أو آخر ، يابى أن يقرأ الا ما يزيده ثقة فى رأيه ، ويكره الاستماع الى من يخالفه فيه • فمثل هذا الشخص الأخير فى زعمنا لا حق له فى أن يكون له رأى •

ذلك أن معتقدات الفرد منا ليست مسئوليته وحده ، ولا بالتى تخصه هو وحده ، وانما تخص المجتمع بأسره • فكل جيل انما يرث حصيلة افكار الجيل الذى سبقه ، تكون امانة لديه حتى يورثها الجيل الذى يليه بعد انمائها وتطهيرها • وهى مسئولية جسيمة بالنظر الى اسهامها فى تكييف مستقبل أبنائنا • واذ كان لكل رأى شخصى ، مهما بدا تافها ، تأثير فى مصير الآخرين ، يصبح من واجب معتنقه أن يتأكد من انه جاء نتيجة بحث حر غير هياب ، لا نتيجة تكاسل عن التمحيص ، أو جزع من مخالفة آراء السلف ، أو رغبة فى السلوان واغراق الهموم ، وميل الى خلق السراب وخداع النفس ، ويصبح من واجبه أن يحذر من التعجل فى بلورة معتقداته حذره من الطاعون الذى يمكن أن يصيب جسما فردا ثم اذا بالعدوى تنتقل منه الى الآلاف غيره •

(افلا تتفكرون ؟)

وقد سبق القول ان القرآن الكريم حذرنا فى آيات عديدة من مغبة التعلق بالآراء الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل والمنطق • فاعتناق الشخص للرأى لمجرد أنهم لقنوه اياه فى طفولته ، أو أقنعوه به فى صباه ، وميله بعد ذلك الى كبت كل شك بصدده يقفز الى خاطره ، والثورة على كل

سؤال من شأنه أن يزعزع من ثقته فيه ، يجعلان من حياته خطيئة فى حق مجتمعه • أو كما قال ميلتون :

« اذا صدق المرء رأيا لمجرد ان القس فى كنيسته قد ذكره ، او أن المجتمع الذى يعيش فيه قد اعتنقه ، دون أن يعرف لهذا الرأى أسبابا ومبررات ، فانه حتى لو تبين أن هذا الراى هو الصواب بعينه ، يصبح هذا الصواب نفسه كفرا » !

ويقول كوليريدج :

« من بدأ بتفضيل المسيحية على الحق ، لا مفر من أنه سيفضل بعد ذلك كنيسته أو طائفته ومذهبه على المسيحية ، ثم ينتهى بتفضيل نفسه على كل ما عداها » !

ففى كل مرة يتبنى الانسان رأيا دون الاطمئنان الى أسسه وأدلته ، تضعف قدرته على ضبط النفس ، وعلى وزن الأدلة وتمحيصها تمحيصا عادلا موضوعيا • قد أسرق من آخر مبلغا من المال فلا يضار هو من سرقته بسبب تفاهة المبلغ • غير أنه من المؤكد انى ألحق الضرر بمجتمعى اذ جعلت من نفسى لصا • فانتقال الملكية بالسرقة لا يضير المجتمع بقدر ما يضيره أن يتحول الى وكر لصوص فتنتفى عنه صفة المجتمع • كذلك فاننى متى اعتقدت رأيا دون استناد الى أدلة شافية ، وبراهين كافية ، قد لا ينجم عندى ضرر كبير من جراء هذا الاعتقاد ذاته الذى قد يكون سليما • غير أنى بكل تأكيد الحق الضرر بمجتمعى اذ جعلت من نفسى امرءا ساذجا سريع التصديق ، وأضعفت فيها القدرة على التساؤل والاختبار والتمحيص ، وأهدرت بذلك آدميتى •

أضف الى ذلك أن اغفالى تحرى الدقة فى تمحيص معتقداتى ، يؤدى حتما الى اغفال الآخرين لتحرى الصدق فيما ينقلونه الى • فالناس انما

يصدقون القول فى خطابهم لمن يوقر الصدق ازاء نفسه وغيره ۰ وليس من حق احد ان يطالب الآخرين بأن يكونوا صادقين معه وهو غير مكترث للصدق مع نفسه ، ومقبل على اعتناق الآراء لمجرد أنه راغب فى اعتناقها اذ وجدها مريحة له ۰ فهو باستعداده لخداع ذاته قد شجع الآخرين على الخداع ، وبسذاجته وسرعة تصديقه قد جعل من الآخرين كذابين غشاشين ۰ وبالتالى فانه يلحق الضرر بمجتمعه ۰

اذكر انى سالت يوما استاذ علوم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عما اذا كان يمكن لطالب يعتقد أن الأرض مسطحة غير كروية ، أو أن الشمس هى التى تدور حولها ، أو أن عقل المرأة دون عقل الرجل ، أن يكون طالبا نجيبا فى العلوم أو الرياضيات او غيرها ۰ فأجاب الأستاذ بقوله انه احتمال مستبعد ۰ فالرأى الفاسد الواحد يجر وراءه حشدا من الآراء الفاسدة المماثلة . وذلك لسببين : الأول ، أن اعتناق الرأى الخاطىء الأول دون تمحيص فيه دلالة على فساد موقفه من المنهاجية العلمية ۰ والثانى ، أن عقائد الشخص عادة ما تكون فى نظام وتلاحم عضوى ، يصعب فيها فصل الرأى عن غيره ۰ ومهما بدا رأى معين تافها هامشيا ولا أهمية له ، فانه يهيىء العقل لتقبل المزيد من شاكلته ، ويضعف من قدرته على استقباله للرأى المخالف ، أو للرأى الذى يستند الى منهاجية مخالفة ، وبالتالى فهو يسهم فى تكييف طبيعة العقل كله ، ويطبع شخصية معتنقه بطابعه ۰

معنى قفل باب الاجتهاد

ان قفل باب الاجتهاد انما يعنى أن تمحيص الأدلة المتعلقة برأى معين لا يجوز أن يتم الا مرة واحدة ، وتظل النتيجة بعد ذلك قائمة الى أبد الآبدين۰ وهو يعنى بالتالى قمع حرية الشك فى هذا الرأى أو ذاك ، وهى حرية أساسية بالنسبة لتقدم العلوم والفكر والحضارة ۰ ويمكن بسهولة أن يرد

على القائلين بقفل باب الاجتهـاد بانه لو كان تمحيص الأدلة السـابق الذى اخذتم به تم على اكمل وجه كما تدعون ، بحيث لم تعد ثمة جدوى للعودة اليه ، لكان بالامكان ان نجابه بكل أمانة وثقة كل ما يثور من شـكوك حول صـحة الرأى ، وان نقنع الناس دون صعوبة . اما صعوبة أو استحالة الرد على التسـاؤلات والشـكوك والآراء المخالفة والاجتهادات الجديدة ، فلا تعنى غير ان تمحيص الأسـلاف للرأى قبل اغلاقكم باب الاجتهـاد لم يكن كافيا ، ولا كانت ادلتهم قاطعة ، وبالتالى فليس ثمة مبرر لقفل باب الاجتهاد .

قد يعترض البعض بأن انشـغاله وضيق ما فى جعبته من الوقت يحولان دون العناية بتمحيص الآراء ومقارنة الحجج قبل تبنيه اياها . غير اننا نرد عليه بانه ان كان وقته لا يسـمح بتمحيص الرأى ، فلا ينبغى ان يسـمح وقته باعتناق الرأى .

وان دفع بأن الأسـلاف كانوا رجالا افاضل عظاما ومن ثم وجب الاقتداء بهم فى افعالهم ومعتقداتهم ، اجبنا بان فضـلهم لا ننكره ، غير أن الفضـل وحده لا يصـلح دليلا على سـلامة الرأى ما لم تتضـافر الأدلة الشـافية على صـحته ، وان النظرة الى آرائهم باعتبارها مجموعة من الأحـكام الأزلية ينبغى علينا ان نتقبلها دون نقاش ، ودون اقتناع بالأسـباب ، ودون اجتهـاد من جانبنا ، لا تسىء الى انفسـنا فحسب ، وانما تخل أيضـا من واجبنا الذى يفرض علينا المسـاهمة فى البناء الذى سنورثه أبناءنا . وبالتالى فان كل من اعتنق الآراء لمجرد أن غيره قد قالها واخذ بها ، ودون أن يفـكر فيها بنفسه ، تضحى شهادته مردودة ، وآراؤه مرفوضة .

الإسلام في عالم متغير

ازاء التغيرات الضخمة المتلاحقة التى يشهدها العالم المعاصر ، تغدو المشكلة المحورية التى يتحتم على المفكرين فى العالم الاسلامى أن يحلوها مكان الصدارة فى قائمة اهتماماتهم هى :

هل من المصلحة تكييف المفاهيم والقيم الاسلامية وفق الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة ؟ فان كانت الاجابة بالايجاب ، انتقلنا الى التساؤل : كيف ؟

ونبدأ بتقرير حقيقة واقعة قد لا تكون لها صلة كبيرة بالمفكرين : وهى أن المفاهيم والمعتقدات والقيم فى أى دين لا تبقى أبدا على حالها ٠ فهى فى مسيحية العصر الوسيط تختلف اختلافا جوهريا عنها فى زمن الحواريين وعنها فى زمننا هذا ٠ وقد ذكرنا فى مقال سابق كيف اتجه مسلمو أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين ـ بتأثير صلاتهم بالفرنجة ـ الى التركيز على الصلة الوثيقة بين دين الاسلام وبين المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كالحكم النيابى ، والعدالة الاجتماعية والمساواة ، ووضع المراة ، والعناية بالتعليم والصحة ، الى آخره ، وهى صلة لم تكن لتخطر الا عرضا فى أذهان المسلمين قبلهم ، وما كانت لتشغل جانبا كبيرا من اهتماماتهم ٠

فتطور المفاهيم والقيم اذن حتمى سواء ساهم فيه المفكرون وخططوا له أم لم يفعلوا ٠ غير انى اعتقد أن هذا التطور ان ترك وشأنه دون تخطيط وتوجيه من جانب الصفوة قد لا يتخذ دائما سمتا ايجابيا محمودا ٠٠ قد

يسير أحيانا فى الاتجاه السليم : كتوقف عادة خروج علماء الدين والعامة فى مصر الى صحراء القلعة لتلاوة صحيح البخارى وقت ظهور الطاعون ، أو تاخر الفيضان ، لاعتقادهم الساذج أن هذه التلاوة تؤدى الى انكشاف الغمة ، أو سقوط الأمطار • غير أنه قد يسير أيضا فى اتجاه غير سليم : كتفشى ظاهرة تقديس النبى فى القرون الأخيرة بتأثير الفكر المسيحى ، بعد أن كان المسلمون الأوائل يرون محمدا بشرا مثلهم لا يختلف عنهم الا فى أنه يوحى اليه • وفى رأيى أنه فى عصرنا هذا الذى أخذت فيه معظم مجالات النشاط البشرى ، من سياسية واجتماعية وثقافية وعمرانية واقتصادية بمبدأ التخطيط والتوجيه ، فان التخطيط والتوجيه الواعيين فى المجال الدينى ليسا فقط ممكنين ، بل ولا غنى عنهما فى عصرنا الحديث من أجل الوقوف فى وجه المفاهيم الضالة ، وتعزيز الاتجاهات الحميدة •

نقطة الانطلاق

سيكون على هؤلاء المخططين والموجهين أن يتخذوا من الأسئلة التالية نقطة الانطلاق فى مهمتهم :

يعيش مسلمو اليوم فى مناخ حضارى يختلف اختلافا عظيما عن المناخ السائد وقت ظهور الاسلام • فهل بامكان المفاهيم والقيم التى أفادت اهل القرن الأول الهجرى أن تسهم فى حل مشكلات القرن الخامس عشر ؟ نحن نعلم علم اليقين ان الجانب الأكبر من التوتر والصراعات النفسية يرجع الى التناقض الكامن بين مواقف الأفراد الذهنية وقيمهم الروحية وبين الأوضاع دائبة التغير والتحول فى مجتمعهم • فهل بالاستطاعة ازالة هذا التوتر والتخفيف من حدة هذه الصراعات عن طريق توفير حلول اسلامية لا تتجاهل الواقع الحى ، وتتكيف بهذا الواقع ، وتضفى على الواقع فى نفس الوقت طابعها الروحى الاسلامى ؟ ان اعادة تفسير العقيدة على ضوء التغيرات المستمرة

من أجل مجابهتها مجابهة ايجابية ، أمر لا غنى عنه ان نحن أردنا لهذه العقيدة البقاء • بيد أن تعقد مظاهر المدنية الحديثة ، وتشابك العناصر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية فيها وتأثيراتها المتبادلة ، تجعل من أمر اعادة تفسير العقيدة أمرا بالغ الصعوبة والتعقيد • أفليس اذن من المصلحة أن تتصدى لهذه المهمة جماعة أو لجنة أو هيئة دائمة تضم نخبة لا من علماء الدين وحدهم ، وانما أيضا من كبار الخبراء فى علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وفى علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعى ، والأطباء وعلماء النفس واللغة وغيرهم ، سواء كانوا من العلمانيين أو من غيرهم ، مسلمين أو غير مسلمين ، من أجل المساهمة بمداولاتهم ونتائج نقاشهم فى الوصول الى صياغات جديدة ؟

هذا الاقتراح من جانبى ينبع عن حقيقة بالغة الأهمية : هى أن عالم اليوم بات يشهد سبلا متفرقة عديدة من سبل التفكير وأوجه التخصص ، كل منها له جوانبه الايجابية والسلبية ، وله تأثيره العميق الفعال فى منهاجية البحث واعادة التفسير والصياغة ، وبامكانه أن يسهم فى سد أوجه النقص الملموس فى السبل الأخرى •

المداولات

قد يبدأ العلمانيون أو دعاة التغريب والمعاصرة بتأكيد مفهوم « التقدم » ، وضرورة طرح القديم البالى متى شئنا مواكبة المدنية والتفاعل مع روح العصر • وقد يرد عليهم التراثيون والسلفيون بأن فكرة التقدم ذاتها قد باتت موضع شك ، وأن التقدم فى مجالى العلم والتكنولوجيا قد صاحبه فساد القيم ، وتدهور فى مستوى الأخلاق وفى الفنون والآداب ، وتفشى مشاعر القلق والتوتر والأمراض النفسية ، وأنه ليس من المفروض أن يكيف الدين نفسه وفق البدع المتغيرة من عصر الى عصر • وقد ينبهنا علماء النفس

الى أن خيبة الأمل الواضحة فى نمط مجتمعاتنا الراهنة ، وفى عصرنا الحديث ، بعد قرن أو قرنين من الايمان المبالغ فيه بأن العلم سيخلق لنا فى المستقبل عالما أفضل ، هى التى أدت بالبعض الى المبالغة فى حديثه عن عظمة الماضى وروعته ، وفى تأكيده أن القديم أفضل من الجديد لمجرد أنه قديم ، والسلف خير من الخلف لمجرد أنهم سلف ، وأن المصلحة والخير هما فى أن نعيد الى عالم اليوم كافة الأنظمة وأنماط العيش التي كانت سائدة بالأمس • وقد يشير علماء التاريخ الى تطور العقيدة والشريعة فى الاسلام عبر العصور ، وأنه من الخطأ والوهم أن نحسب مفاهيمنا الراهنة عن الاسلام من صميم الاسلام الذى بينه القرآن والسنة الصحيحة ، ويشرحون كيف ادى تطور الأوضاع فى المجتمع الاسلامى الى ظهور اتجاهات مثل التصوف أو تقديس الرسول والأولياء الصالحين ، والى وضع الأحاديث ونسبتها كذبا الى النبى ، وانقسام الجماعة الاسلامية الى مذاهب وفرق ، وكيف أنه لا ينبغى أن نسمح للدخيل على الاسلام مما لا نجده فى القرآن والسنة الصحيحة أن يقف عائقا دون مسايرة العصر ، وأنه بامكان هذا التحرر من الدخيل ثقيل الوطأة أن يؤدى الى تحرير قدراتنا الخلاقة ، والى التجاوب مع روح العصر تجاوبا لا يخالف التزامنا بالاسلام الحقيقى •

وقد يشرح التراثيون الجدد مدى ارتباط العاطفة الدينية بالتقاليد ، وكيف يؤدى هدم الاطار الاجتماعى للتقاليد الى تبديد المناخ المساعد على اذكاء العاطفة الدينية ، وينصحون بالتالى بالامتناع عن العبث بهذه التقاليد • ولا شك أن غيرهم سيبادر الى سؤالهم عن طبيعة العناصر المكونة للتقاليد : هل هى مجزد توقير القديم ؟ أم هى العادة والمألوف الشائع ؟ وسيرد علماء الاجتماع مؤكدين ارتباط التقاليد بالأحوال الاجتماعية السائدة ، وأن النمط الاجتماعي وشكل الانتاج لهما التأثير الأكبر فى تغذية العاطفة

الدينية واخمادها • ولكن قد يكون من اللازم من أجل التقدم وزيادة الانتاج تغيير الظروف الاجتماعية المقترنة بالتقاليد والعاطفة الدينية • فهل ترون التضحية بهدف زيادة الانتاج ، وبأساليب الصناعة الحديثة ، وبالمدن الكبيرة وغير ذلك ، من أجل الحفاظ على التقاليد ؟

وقد يسفر مثل هذا النقاش عن تراجع دعاة التغريب والمعاصرة بعض الشيء عن مفهومهم عن التقدم المطلق ، وعن اصرارهم على ادراج الظاهرة الدينية فى نطاق هذه الفكرة • وقد يعترف السلفيون بان العلم والتكنولوجيا يحققان تقدما لا انقطاع فيه ولا انحسار ، وبأنه بامكان الدين الاستعانة بطرق البحث العلمى الحديثة ووسائله فى تصحيح الأخطاء وتعديل المسار ، وتوسيع نطاق المعرفة ، واعادة طرح الفروض والنظر فى المسلمات وتصنيف المعارف المتراكمة ، وبأنه من الخطأ أن يقف الدين حائلا دون تقدم العلوم • وقد يقر رجال الدين بعد ذلك بضرورة زيادة الاهتمام بالحاضر والحياة الدنيا ، وبأن حيوية الحاضر تأبى النظر اليه باعتباره موقفا قديما قد تكرر ، وترفض أن يعالج الداء الحديث بعقار قديم • وقد يعترف علماء النفس بأن الانسان فى زمن الوفرة والسلام يميل الى الركون الى فكرة أن الرخاء المادى كفيل وحده بتحقيق السعادة والرضا ، وأن الأزمات التى يعانى منها عالم اليوم ساعدت الفرد على أن يدرك أن للمجتمع جذورا فى الروح البشرية هى أعمق مما كان يتصور •

تنوع المفاهيم والمواقف

وقد تناقش هذه اللجنة أو هذا المجمع موضوع فائدة البنوك ، فينبرى عالم الدين لطرح مفهومه عن الربا المنهى عنه فى القرآن ، وكيف أنه يعنى اية زيادة فى أصل الدين ، وبالتالى تصبح فائدة البنوك من الربا • وقد يأبى هذا العالم الأخذ بحجج رجل الاقتصاد وما ذكره من مبررات الفوائد

فى النظم المصرفية ، ونفيه أن تكون هذه الفوائد عن الودائع المصرفية التى تفيد الاقتصاد القومى من قبيل استغلال الدائن للمدين ، وهو الاستغلال الذى لا شك أن القرآن توخى الحيلولة دونه بتحريمه الربا ٠٠ ومع ذلك فقد يقبل عالم الدين حجة عالم اللغة اذ يذهب الى أن الربا فى اللغة هو النمو والزيادة (كقولنا « فلان يربى ولده » أى يشرف على نموه) ٠ وحيث أنه لا يعقل أن يكون القرآن قد نها عن أى نمو أو زيادة فى أى شىء ، فلا بد أن تكون الآية قد قصدت نوعا معينا من المعاملات فى الجاهلية ربما خفيت طبيعته عنا ، أو لم تعد معروفة لدينا اليوم شأنها شأن الأنصاب والأزلام ٠ وهنا قد يتدخل المؤرخ فيوضح ان الدائن فى الجاهلية كثيرا ما كان يقبل طالب المدين المعسر فيؤجل موعد الوفاء بالدين مقابل مضاعفة قيمته ، وأن هذه المضاعفة ، لا مجرد الفائدة ، هى المعنية بالتحريم ٠

وقد تناقش موضوعات أخرى مثل شهادة المرأة ، وما اذا كان من المنطقى فى عصر نالت المرأة فيه قسطا من التعليم مساويا لما ناله الرجل منه ، أن نصر على أن شهادة الرجل الواحد تعادل شهادة امرأتين ٠ وقد يثار موضوع حصة الأنثى من الميراث التى هى نصف حصة الذكر ، وما اذا كان من المصلحة على ضوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية الراهنة اعادة النظر فيها ٠ وقد يطالب الأطباء بالادلاء برأى الطب فى تأثير الصوم على نمو الصبيان وصحة الشيوخ ، ويطالب الاقتصاديون ببياناتهم عن حجم الانتاج خلال شهر رمضان ، وعلماء النفس والاجتماع برأيهم فى عواقب حجاب المرأة ، وسنعود الى الأطباء لسؤالهم عن صحة الزعم بأن نسل المحجبات أضعف من نسل السافرات ، لما لهذا الموضوع من أهمية تتعلق بالتكوين البدنى لأفراد الجيل التالى فى مجتمعنا ٠

وأكاد أجزم بأن اشتراك عدد كبير من علماء الأمة فى مناقشة

هذه الموضـوعات وغيرها ، فى جو من الحرية الأكاديمية المطلقة والصراحة التامة ، لا يعـكره تكفير او سباب أو ضيق صـدر ، ولا تفسـده المزايدة او الاتجار بالدين او مراعاة الاتجاهات الغوغائية ، لا بد أن يؤتى ثمارا بالغة الأهمية · كذلك أومن بأن اعادة تفسير المفاهيم والقيم الاسـلامية لا يمكن أن تتم على نحو ايجابى فعال الا من خلال جهـد جماعى تسـهم فيه الخبرات والتخصصات المختلفة لأناس متنوعى المشـارب والنزعات ، قد نشـأوا مع ذلك فى بيئة اجتماعية واحدة ، هى المجتمع الاسـلامى ، فبات يجمعهم – رغم اختلافهم ، وبالاضافة الى وحدة المصير – قدر لا يستهان به من أوجه الشـبه والاتفاق ·

التغيير العفوى والتغيير الواعى

وانه لمن المصـلحة أن تدرك الـكافة ، بادئ ذى بـدء ، أن الاسـلام لا ينفى ضرورة تغير القيم والمفاهيم بتغير الأزمنة والظروف · فكلمة الاسـلام تعنى الاذعان لارادة الله والتسـليم بغاياته ، مع العمل على أن تكون هذه الارادة هى العليا · وباستطاعة العالم الواعى الذى يدرس حركة التـاريخ وطبيعة التغيرات الطارئة بغرض استشفاف كنه الارادة الالهية ، أن يميز بين الاتجاهات التاريخية الحتمية التى تمثل قضـاء الله الواجب الرضـا به ، وبين الأحداث والاتجاهات التى تسير ضـد تيار التاريخ ، وتقاوم حتميته ، وتعرقل وصـوله الى هدفه ، فيدرك أن من واجبه أن يحارب تلك الاتجاهات الأخيرة ، وأن يجاهد فى سـبيل الله ضـدها ، « حتى تصـبح ارادة الله هى العليـا » · وعليه فانه يمكن أن نتصور أن يكون بعض الحركات المسـماة بالاسـلامية فى مجتمعنا ضـد ارادة الله ، (وبالتالى غير اسـلامية ويحق لنا مقاومتها) ، ان هى عميت عن كنه الارادة الالهية الكامنة فى التغيير ، وتجاهلت الحتمية التاريخية ، وأبت أن تغير مفاهيمها على ضـوء المعارف المستجدة ،

فى حين يمكن أن تكون جماعات غيرها ، دون ادراك واع منها ، اسـلامية حقا ، ان كانت ذات وعى بالاتجاهات التاريخية ، مساعدة بجهدها على دفعها الى غايتها المنشودة ٠

وقد أبدى المسـلمون الأوائل همة عظيمة فى سـبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الاسـلامية حتى أغلق باب الاجتهاد ٠ ثم زاد الطين بلة ما أدت اليه عزلة المسـلمين عن العالم الخارجى فى ظل الدولة العثمانية من جهل بالتطورات الايجابية الهائلة التى حدثت فى أوروبا خلال عصر نهضتها ٠ فكان من أثر هذا الجهـل ، مع ما اتصف به مجتمعنا لأكثر من أربعة قرون من سـمات الركود والتحجر وقلة التغيرات الطارئة فى كافة نواحى الحياة ، أن ضعفت أو خمدت حاجة المسـلمين الى تطوير القيم والمفاهيم والعقيدة ٠ فما فتحت أبواب الاتصال بأوروبا منذ قرابة قرنين حتى ثارت الأزمة الروحية التى ما كانت لتتسـم بذلك القدر الرهيب من الحـدة لولا طول أمـد العزلة والركود والاحجـام عن الاجتهاد ٠ عندئذ نشـأ الاحساس لدى الصـفوة بضرورة تطوير المفاهيم ، وأدلى البعض كالأفغـانى ومحمـد عبده بدلوه فى هذا الشـأن ٠ غير أن تلك الجهود الفردية ، مع استنارتها ، لم يجمعها تنظيم ولم يكن بوسـعها ادراك أهمية التخطيط الجماعى ، فلم يسفر عنها بالتالى غير نتائج محدودة ٠

ونحن اليوم مطالبون بخلق أداة للتغيير وللتوجيه العلمى الرشيد ليحلا محل التغيير العفوى أو اللاشعورى ٠ ومن هنـا تأتى أهمية فكرة المجمـع الاسـلامى التى أدعو اليها ٠٠ سيكون بوسع مثل هذا المجمع بنتائج مداولاته أن يضـع حدا لعملية الانسـحاب من التاريخ التى ينطوى عليها فكر الجماعات الدينية الرجعية فى أقطارنا الاسـلامية ٠ وسيكون من أهم واجباته ، بصفته

مجمعا اسلاميا ، توفير الاجابات الواضحة الشافية على الأسئلة الخمسة التالية :

- ما هى القيم الاسلامية الأساسية التى ينبغى أن تحكم أى اتجاه الى التكيف والمواءمة ؟
- ما هى طبيعة التغيرات الرئيسية التى يشهدها عالمنا المعاصر ؟
- كيف يمكن مواجهة هذه التغيرات على ضوء القيم الاسلامية الأساسية ؟
- ما هى التعديلات التى ينبغى ادخالها على القيم الأساسية من أجل ضمان كفاءة أكبر فى مواجهة التغيرات ؟
- ما هى حقائق البيئة المتغيرة التى يمكننا قبولها على ضوء القيم الاسلامية ، وما هى الحقائق التى تلزمنا تلك القيم بواجب مقاومتها ؟

غير أن هذا السؤال الأخير يقتضى منا بعض الايضاح :

حدود التكيف والمسايرة

نعلم جميعا أن الحياة هى عملية مستمرة من التكيف وفق مواقف دائمة التغير . واختيار القيم التى تحكم هذا التكيف جزء لا يتجزأ من هذه العملية . قد يصر علماء الدين على وجوب تطبيق مجموعة من الأحكام مهما تغيرت الظروف وطال الزمن واختلفت الأقاليم . غير أن من واجبهم أن يجيبوا بوضوح ، ما داموا على اصرارهم هذا ، على تساؤلنا : كيف تتسنى اطاعة هذه الأحكام ما دامت الظروف التى سنت الأحكام فى ظلها قد تغيرت ؟ وقد يهب الفلاسفة والملاحدة ينادون بطرح الأحكام والقيم القديمة التى تحول دون التكيف وفق الظروف المستجدة . غير أن من واجبهم هم ايضا أن

يجيبوا بوضوح على تساؤلنا : ألا يعنى التكيف لمجرد التكيف اغفال مفهوم الخير والشر سواء كان هذا المفهوم اسلاميا أو غير اسلامى ؟ ولو كان مجرد التكيف هو المطلوب ، فما معيار التفرقة فى هذه الحالة بين المتكيف المسلم وغير المسلم ؟

فى رأيى ، أن الهدف النهائى لدى المسلم الحق ليس هو مجرد التكيف حسب ظروف متغيرة زائلة ، أو بيئة محدودة معينة ، وانما التكيف عنده هو مجرد وسيلة لا يقبلها الا ان دخلت فى اطار مفهومه الدينى عن الحياة . فهو يتمسك بمجوعة من القيم الاسلامية يرى لزاما عليه أن يتسلح بها وهو فى معرض حل مشكلات الاستجابة للواقع المتغير ، والبيئة الاجتماعية المتطورة . وهو يعترف بأن نجاحه يستلزم تعديلا هنا وهناك فى هذه القيم . وهو يقبل مبدأ الاقدام على هذا التعديل . غير أنه لا يقبل أن يكون مجرد النجاح فى التكيف هدفا نهائيا ان كان معناه ضياع القيم ، وضياع معنى حياته الاسلامية بضياع القيم . ومن حق هذا المسلم أن يعترض على الرأى التحكمى القائل بأنه ازاء التغير والتطور ليس ثمة غير سبيل واحد للتكيف والاستجابة .. باستطاعته أن يرد بأنه حتى فى المجال البيولوجى تختلف استجابات الحيوان والانسان لنفس الظرف الاجتماعى باختلاف تكوينهما البيولوجى . فلدى سماع طلق نارى قد يعدو الأرنب هاربا ، وقد يختبئ الانسان وراء صخرة ، وقد يتصلب الضفدع فى مكانه دون حراك . بل ان ثمة اختلافا فى الاستجابة ورد الفعل لدى أفراد النوع الواحد باختلاف تكوينهم السيكولوجى . فقد ينبرى صبى فى شجاعة لمواجهة اعتداء عليه ، وقد يشرع صبى آخر فى العويل أو التوسل متى تعرض لاعتداء مماثل . ولا شك فى أن كل نمط من ردود الفعل هذه هو من قبيل التكيف والاستجابة . وما دمنا قد اعترفنا بأن التكيف وفق الظرف الطارئ الواحد أنواع ، فلا بد من الاقرار بأنه بالامكان أن نتصور

تكيفا اسلاميا وتكيفا غير اسلامى ازاء التغيرات فى الواقع . فالتكيف الاسلامى هو التكيف القائم على أساس من القيم الاسلامية حتى لو اقتضى الحال تعديل بعض هذه القيم . ولن يعنى هذا التعديل تنازلا أو تراجعا او هزيمة كما يدعى المتطرفون المتزمتون . فالمسلم قد يقرر قبول الأوضاع ، وقد يقرر مقاومتها ، ويكون كل من قراريه من قبيل التكيف . ومعياره فى هذا القبول أو هذا الرفض يحدده تفسيره الاسلامى للحياة ، ومفهومه عن السلوك . غير انه لن يتقاعس أبدا عن أداء واجبه الذى يفرض عليه اتخاذ موقف ايجابى واضح من البيئة المتطورة . وهو لن يرضى لنفسه أن ينسحب من التاريخ .

الاهتداء بالقيم الدينية

ان التمسك بالقيم الدينية هو وسيلة الشعوب الاسلامية لمقاومة فقر الحياة الروحية فى المجتمع الحديث . وانما تكمن المشكلة فى أن الرجعيين من المسلمين لا يعترفون بقابلية القيم للتكيف والتعديل مع ثبات جوهرها ، ولا يدركون أن الفشل هو مصيرهم المحتوم ما لم يترجموا التجربة الدينية الحقيقية الى لغة الظروف المستجدة ، وأن الشلل أو التخريب هو عاقبة كل محاولة لتطبيق الأحكام بصورتها القديمة على هذه الظروف .

وستكون من بين المهام الرئيسية للمجمع الاسلامى المقترح أن يهدىء من مخاوف هؤلاء عن طريق بيان انتفاء التعارض بين التمسك بمفهوم القيم وبين الاستجابة لاحتياجات البيئة الجديدة ، وأنه ان كانت الأولى هى الكفيلة بتحديد الهدف النهائى من تصرفات المسلم ، فان الثانية تمكنه من المعاصرة ، وتحول بينه وبين الانسحاب . كما سيكون عليه أن يعرض البدائل الراهنة فى ميدان اعادة البناء الاجتماعى للأمة ، ويساعد هذه الأمة على انتقاء ما يراها منه متمشيا مع المفهوم الأساسى الاسلامى عن الحياة ، ورفض ما عداها .

فقد يصل هذا المجمع بعد مداولات طويلة الى اعتراف صريح بأنه ليس ثمة نظم اسلامية مفصلة فى مجالى الاقتصاد والسياسة ، رغم زعم الزاعمين وهراء المؤلفين فى هذه الموضوعات . وهناك العديد من الأمور مما لا يتناوله الاسلام ونجد لزاما علينا مع ذلك أن نطبقه ونأخذ به . غير أن بوسعنا دائما أن نستعرض البدائل والنظم الراهنة ، وأن نتبنى بعد دراستها ما نرى من النظم الاقتصادية والسياسية أنه أكثرها تمشيا مع روح الاسلام ، وما نقتنع بانه سيتيح أمام نمط الحياة الاسلامية فرصة أكبر للنمو والازدهار .. أكرر : لن تكون هذه الأنظمة اسلامية ، غير أنها ستخلق من الظروف ما يمكن المسلم فى ظلها من أن يحيى حياة اسلامية غنية .

سيحدد هذا المجمع سلفا للمخططين الاقتصاديين المظالم المنافية للاسلام التى نريد استئصالها فى ظل النظام الاقتصادى الجديد . وسيحدد للمخططين السياسيين اشكال السلطة المرغوب فيها ومفهومه عن توزيع السلطات ورقابتها . وسيحدد لواضعى سياسة التعليم والمسئولين عن وسائل الاعلام الأهداف التى ينبغى أن يتوخاها المجتمع الجديد . وسيكون على جميع هؤلاء وغيرهم أن يلتزموا بهذه الأهداف عند تخطيطهم للنظم الاقتصادية والسياسية والتعليمية والاعلامية وغيرها . ذلك أنه لا سياسة ولا بناء ما لم نبدأ بمناقشة المبادىء الهادية ، وتحديد الأهداف المنشودة . أما أسلوبنا الراهن فى مواجهة كل مشكلة على حدة ، وكيفما اتفق ، دون مفهوم شامل مسبق ، ودون ادراك للصلة العضوية الوثيقة بين كافة المشكلات ، فلن يجدى فتيلا .

التحدى والاستجابة

لقد بات مجتمعنا اليوم أشبه شىء بخلية النحل التى فقدت ملكتها . قد نرى النحل مستمرا فى مجيئه وذهابه ، وقد نحسب هذه الحركة حياة .

غير أننا متى اقتربنا من الخلية لنتأملها بعناية ، ستهولنا مظاهر الفوضى التى ضربت أطنابها فيها بعد رحيل الملكة ، والتى جعلت من الأجدى التخلص من الخلية بالقائها طعمة للنيران . وفى اعتقادى أنه بوسع هذا المجمع الذى اقترح تاسيسه أن يعيد الى مجتمعنا الاسلامى حقه فى البقاء على قيد الحياة بين الأمم النشطة الحيوية المتوثبة حولنا .. لقد كان من حسن حظنا أن ووجهنا بالتحدى الغربى ، ثم بالتحدى الاسرائيلى ، فأخرجنا الأول من عزلة قاتلة ، وأيقظنا الثانى من سبات عميق . وقد خلق التحدى لنا مشكلة حضارية ضخمة . غير أن المشكلة ليست مستعصية على الحل .. هى احدى تلك المشكلات التى وصفها نيتشه بانها ان لم تقتلنا زادتنا قوة .. ولكى لا تقتلنا هذه المشكلة لا بد من التقاء خيرة العقول فى كافة المجالات فى مجتمعنا فى تنظيم كى تتضافر على رسم معالم نظام اجتماعى جديد ، والتخطيط له تخطيطا واقعيا لا هو بالمثالى ولا بالرجعى ، مهتدية بالقيم الاسلامية التى احتضنها المجتمع البدوى فى القرن السابع ، والتى يمكن مع ذلك أن نوسع من مفهومها وأن نعدله حتى يشمل البيئة المغايرة التى نعيش فيها فى القرن العشرين .

انه لمن الثابت أن الانسان يتأثر شعوريا أو لا شعوريا بنمط الحياة فى مجتمعه . فان كان هذا النمط مشربا بالقيم الدينية كان لهذه القيم من الأثر فى تكوين الفرد ما يفوق أثر العلاقة الخاصة الانعزالية بين الفرد وربه ، بالنظر الى أن هذا الأثر الأول سيكون من نتاج الالهام المكثف للأمة كلها ، فيرتفع بذلك مستوى أدائه فوق مستوى أداء الفرد الذى يعتمد على طاقته الروحية وحدها ، ويغدو الخلاص الروحى خلاصا جماعيا .

ومهمة هذا المجمع هى التخطيط لهذا النمط المنشود عن طريق

تلاقى الآراء والمواقف والأشـكال المختلفة ، وتوفير الاطار الدينى المرن لنمو مجتمـع حيوى ، يهيىء لهذه الاتجاهات المتعددة فرصة التعايش والتلاقح ، وفرصة صياغة نتائج مناقشاتها الحرة فى صـورة خطة ، حتى تحول دون نهوض القوى المدمرة نيابة عنها بتكييف طباعنا ، وتحديد مصيرنا ٠

(قال رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، انه هو السميع العليم) •

سورة يوسف ٣٣ ـ ٣٤

البيان العاشر
لقائد الثورة الإسلامية

باسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وازواجه اجمعين •

أيها الاخوة المسلمون :

أما وقد مضت ثلاثة أشهر على قيام ثورتنا الاسلامية المباركة ، ثورة الرابع من شوال سنه الف واربعمائة و ٠٠٠ من هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وعلى الاطاحة بقوى الشر والظلام وعهد الجاهلية ، وبولاة السوء وعبدة الطاغوت ، فقد راينا ان نقدم لهذه الامة التى هى خير امة اخرجت للناس ، كشف حساب عما قدمته أيدينا خلال تلك الاشهر ، وما أنجزناه ونعتزم انجازه فيما نستقبل من الأيام ، باذن من الله جل وعلا ، وهو القائل فى كتابه العزيز (وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين) • صدق الله العظيم • فان كنا قد نسينا او اخطانا ، فما على الناصحين الأبرار من أبناء هذه الأمة الا ان ينبهونا ويقوموا خطانا ، وهو ما كان الصديق ابو بكر وصاحبه الفاروق عمر رضى الله عنهما يوصيان الرعية به ، ويحثانها عليه • وانا لعلى نهج العمرين وسنة الصحابة والسلف الصالح سائرون باذن الله وتوفيقه ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون •

غير أنى بادىء بالقول ان الفتنة التى أطحنا بالآلاف من رؤوسها خلال الشهر الأول من ثورتنا المباركة ، قد عادت مؤخرا تطل بوجهها الكئيب من جديد . وانى والله لأرى رؤوسا اخرى قد أينعت وحان قطافها ، وانى لصاحبها . (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . فان كنا قد أفلحنا بتوفيق من الله وفضله فى أن نستأصل فى الأسابيع الأولى شأفة العلمانيين والدنيويين ورؤساء أهل الذمة والفنانين والملاحدة والشيوعيين والاشتراكيين والناصريين والوفديين وغيرهم من أتباع المذاهب الضالة الهدامة ، فاسترحنا بذلك وأرحنا ، فقد بدأت تظهر مؤخرا وجوه كئيبة كثيرة من طوائف أخرى لأناس كنا نحسبهم من انصار هذا العهد ، ومن أتباع هذا الدين القويم ، بل وكانوا من اقرب المقربين الينا وتولوا فى ظلنا وبرضانا رفيع المناصب ، واسندنا اليهم جليل المسئوليات ، فاذا الأقنعة بحمد الله تسقط ، والحقيقة برحمته تستبين ، واذا هم من اشرس أصحاب البدع ، وأخطر القائلين بالضلالات والترهات ، وأحرص الناس على حياة ، وعلى السلطان والجاه ، دون حقيقة الاسلام ، ومصالح هذا النظام . (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين) ، (يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون) .

وقد تطرق الظن الى بعضكم ، بل واعلم على اليقين أن أفرادا منكم قد شرعوا يتهامسون فيما بينهم ، بأن تصدعا قد طرأ على قيادة الثورة الاسلامية المباركة ، وبأن الخلاف والشقاق قد دبا بين أفرادها ، وذلك لمجرد أننا قمنا خلال الأسبوع الفائت باعدام حفنة اخرى من المارقين العصاة فى هذه القيادات ، فى حين أن عددهم لا يتجاوز ألفين وثمانمائة فى جميع محافظات القطر . (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) . وأحب أن أطمئن المسلمين الأبرار من المستمعين الى أن قيادة هذه الأمة فى خير ، وعلى ما تحبون

وتشـــنهون ، وأن المحنـــة الأخيرة التى اجتازتها قد زادتها صـــلابة وقوة ، وتضامنا وعـزيمة ، والى اننا قد لا نلجأ الى المزيد من التطهير على مدى الأسابيع الثلاثة او الأربعة القادمة .

وقد بلغنى من جهـاز مباحث امن الدولة أن بعضكم قد استفظع بالأخص اعـدام الشيخ صـــالح الفرماوى من بين من أعدموا فى الأســبوع الماضى ، رغم ما يزعمونه عن اضـــطلاعه بدور هام فى ســبيل انجاح الثورة الاسلامية ، ورغم توليه لمنصب رئيس الوزراء مـدة شهر كامل من عهدنا ، وما بدا من تمتعه بثقتنا . وســـيأتى عن قريب الوقت الذى نشرح فيه لهذه الأمة الطيبة طبيعة ذلك الدور « الهـــام » المزعوم ، ونضع امامها كافة الحقـــائق مدعمة بالوثائق والمســـتندات والتسجيلات الســـمعية والبصرية . (فلا تأس على القوم الفاسقين) . ويكفينى الآن ان اذكر أنه قد ثبت فى التحقيق الذى دام يوما كاملا ســـابقا على اعدامه ، انه كان عميلا لدولة أجنبية من حزب الشيطان ليس من المصـــلحة ان ادلى الآن باســـمها ، وأن جنود الشرطة الاســـلامية حين دهموا داره ليلة القبض عليه عثرت فيها على ايصـــالات بالمبالغ التى كان يتقاضـــاها من تلك الدولة ، (وتحت يـدى هذه الايصـــالات التى ستنشر الصحف صـــورا لها صباح غد باذن الله تعالى) كما عثروا من بين ما عثروا عليه ، ويا للخزى والحسرة ، على زجاجات خمر وأشرطة فيديو لأفلام جنســـية فاضـــحة ، وغير ذلك من الأشـــياء التى تحمر الوجوه لذكرها ، ويندى لها الجبين ، وتأنف الألســـنة ان تتحدث بها ، وقانا الله شر الزيغ والجحود ، واعاننا على فضـــح النفاق وأهله ، انه سميع مجيب . (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) . صدق الله العظيم ...
وقد أبى الشـــيخ — لا رحمه الله — ان يعترف بما اقترف حتى حملناه حملا ،

وبوسائل ضغط معينة ، على الادلاء باعتراف كامل قبل اعدامه • وهو اعتراف مسجل بصوته ، او صوت قريب من صوته ، وسيذاع عليكم خلال أيام باذن الله جل شانه ، حتى تكون الحقائق كاملة امام هذه الأمة الطيبة • (وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم ، والله عليم حكيم)•

اما عن خلافنا مع طه البديعى نائب الرئيس الذى أعدمناه هو أيضا عقب صلاة الجمعة الماضى فى ميدان الفاروق عمر • فيرجع فى الحقيقة الى اختلافه فى الراى معنا حول موضوعات حيوية شتى هى لصيقة بجوهر الدين ومن اركانه • فقد افتى هذا الفاسق الفاسد المبتدع ، خلال الأسابيع الأخيرة من حياته ، بأن صبغة اليود لا تنقض الوضوء ، وبان ظاهر قدم المراة ليس بعورة ، وبان اقتناء الصور الشمسية لأدميين لا غبار عليه (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين) وانى لأصارحكم بكل هذا لكى يدرك اخواننا الى أى حد قد بلغت بهذا الأستاذ جرأته على الله وعلى إمذا الدين ، رغم كل ما ورد فى الأحاديث الشريفة واقوال الائمة والسلف الصالح فى هذه الأمور وغيرها من نصوص صريحة لا تقبل التبديل ، ولا تحتمل التجريح والتعديل • (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون • الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) • صدق الله العظيم •

على أى حال فقد اراحنا الله وأراحكم من هاذين المارقين وامثالهما (انا كفيناك المستهزئين) • وما دام منطلقنا فى الحكم هو اطاعة احكام الله والالتزام بالشريعة الغراء ، فان ضميرنا هادىء مطمئن ، وسريرتنا نقية طاهرة ، وعزمنا اكيد وطيد ، على اجتثاث جذور كل معارضة لهذه الأحكام ، وكل انحراف عن هذا الالتزام • ولن يزعجنا ان ينزعج الكثيرون منكم لشنق بعض المسمين ظلما وجهلا بالمفكرين الاسلاميين من امثال طارق البشرى

وعادل حسين وغيرهما ، ممن يظن الغافلون أنهم كانوا يدعون قبل ثورتنا المباركة فى حماس الى تطبيق أحكام الشريعة ، وارساء دعائم نظام اسلامى . فقد اتضح لنا على نحو قاطع لا يقبل الشك أنهم كانوا يتسربلون بزى الدين ، وينتحلون سمت المؤمنين المتقين ، وهو ما يجعلهم فى الواقع أخطر على هذا الدين المتين من أولئك العلمانيين الذين اعدمناهم فى ميدان الخلفاء الراشدين خلال الأيام الأولى لثورتنا البيضـاء ، من أمثال زكى نجيب محمود ، ويوسف ادريس ، وفؤاد زكريا ، ولويس عوض ، والفريد فرج ، وفرج فودة ، وحسين أحمد أمين ، لعنة الله عليهم أجمعين . (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء . ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) .

ولن أخفى عليكم أن بعض هؤلاء المسمين بالتراثيين الجدد الذين أعدمناهم مؤخرا بلغت به القحة حـد المطالبة ببعض حقوق الانســان للذميين من أقباط مصر ، وأن البعض الآخر كان يتفوه فى مجالسه الخاصة بأقوال توحى بأنه لا يقيم وزنا كبيرا لاطلاق اللحية ، ويلمح من بعيد الى أنه من غير المصـلحة الانشغال فى الظروف الراهنة بطول الجلباب ، وأنه يحل للمرأة أن تظهر من نقابها عينين اثنتين لا عينا واحدة !! (انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا) . ثم أترك لكم بعد ذلك يا اخوانى تقدير ما اذا كان من مصلحة هذا المجتمع الاســلامى الجديد ، أم من غير مصلحته ، أن احميه واقيه من الفتنة بالقضاء قضاء مبرما على هؤلاء الذين يبغونها عوجا .

يطالب بعضهم بحقوق الانســان !!! وكأن للانســان — والعياذ بالله — حقوقا فى مواجهة خالقه !! وكأن للانســان حقا فى حرية أن تكون له آراء تخالف ما أجمعت عليه هذه الأمـة التى لا تجتمع على باطل ، وفى أن يتبنى عقيـدة تستنكرها عقيـدتنا ، وفى أن يعبر عما يراه مما لا نراه نحن ! هى

حقوق مزعومة لا أصـــل لها غير بدع الفرنجة وأوهامها وأباطيلها ، قد آمن بها بعض المضللين السـفهاء منكم ممن بهرته الحضارة الغربية التى هى من حبائل الشـيطان ومصائده ، ومن مؤامرات الغرب ومكائده ، واغتر بها كما اغتر من قبل بمفاهيم الديموقراطية والحرية والمسـاواة والحياة النيابية والحزبية ، وكلها أمور ما أنزل الله بها من سـلطان ، ولا أساس لها من الشريعة • وبالتالى فانه على الأبرار المتقين من أبنـاء هذه الأمة أن ينسـوها ، وأن يضـعوها دبر آذانهم وتحت أقدامهم ، رغم كل غوايات الغاوين ، وألاعيب العلمانيين الملحدين المتفرنجين ، وألا يعودوا الى ذكرها والتفوه بها • (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين) •

خلاصـة القول أننا لن نسمح لأحد بأن يعطل من مسيرتنا ، وأن يحولنا عن طريقنا وكعبتنا • وقد أغنانا الاسـلام عن اقتباس النظم من الأمم حولنا ، ووجدنا فى القـرآن الـكريم والسـنة الشريفة كل ما بوسـعه أن ينظـم شئوننا ، وكافة تفاصيل حياتنا وأمورنا • ولن يجعلنا حديثهم الأجوف عن الديموقراطية وحرية الصـحافة وحق تكوين الأحزاب وما شـابه ذلك ، (وكان بوسـعنا أن نسمح فى دولتنا بقيام حزب غير حزب الله !!) ، نحل ما حرمه الله ، أو نحرم ما أحله • أعاذنا الله واياكم من هذا الشر ، وأسعدنا جميعا بطاعته ورضاه •

وقد تمـادت ببعض المـاكرين الخبثاء من رعيتنا الجرأة حتى همسـوا باننا فى عهـد الجاهلية ، وأثناء اشـتغالنا بالجهاد الأكبر من أجل اسـقاط نظام الحـكم السابق ، قد أفدنا فى جهادنا من ديموقراطية الجاهلين ، ومن حرية الصـحافة والتعبير فى ذلك الحين ، ومن احتلالنا للمقاعد فى مجالسهم النيابية ، ومن حق اصدار الكتب والصحف والمنشورات الاسـلامية ، فتمكنا بفضـل ذلك كله من التغلغل فى صفوف الأحزاب والنقابات والجيش والشرطة

والاتحادات الطلابية ، ومن نشر دعوتنا على أوسع نطاق ، وفى جميع الآفاق . وهم ينعون علينا أننا الآن قد تنكرنا لهذه المبادىء التى كنا نصر عليها ، وأدرنا ظهورنا للديموقراطية والحرية ، بحلنا للأحزاب ، واغلاق الصحف ، واحراق الكتب ، ومصادرة الرأى ، وفرض الرقابة ، واستئصال المعارضة ، وسجن المخالفين لنا فى العقيدة ، واعدام المناوئين للنظام ، فى حين كان من واجبنا - فى زعمهم - ان نسمح لخصومنا فى عهدنا بما سمحوا به لنا فى عهدهم . (قالوا انما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون) .

غير أنى قائل لكم ان الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله ، وان الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله . فان كل رجال العهد البائد من السذاجة بحيث أتاحوا لنا من الحقوق ما أتاحوا ، وأباحوا لنا ما أباحوا ، فتمكنا بذلك من قهرهم وقلب نظامهم ، واقامة حكم يرضاه الله ، فلسنا من السذاجة أو البلاهة بحيث نتيح لهم نفس الحقوق التى قد تمكنهم من العودة بأمتنا الى ظلمات الجاهلية . (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . صدق الله العظيم .

والخلاصة أنى قد سئمت من نقد المنتقدين ، وهمسات المتشائين الساخطين ، وغمزات أعداء الدين . (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) . وانما تجىء غمزاتهم وهمساتهم فى الوقت الذى نكرس فيه كل طاقاتنا وجهدنا من أجل تحرير فلسطين ، واقامة دعائم نظام يرضى عنه الله وجمهور المؤمنين . فنحن اليوم فى خضم معركة حامية الوطيس ، ولن نسمح لأى صوت بان يعلو فوق صوت المعركة .. (فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) .. ولا أريدكم أن تفهموا من قولى هذا ان نظامى لا يسمح بحرية النقد على اطلاقها . فالحق فيه مقبول ، بل ومطلوب ومكفول ، ولكن ... ولكن شريطة أن يكون نقدا بناء مهذبا ، سليم النية نبيل الهدف ، اسلامى المضمون ، صادرا عمن

تتوافر فيه أهلية النقد ونراه أهلا له ، لا نقد الحـاقدين الهدامين الموتورين البؤسـاء • (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا واطعنا ، واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور) • ونحن هنا - كما سبق القول - على سـنة الصديق أبى بـكر والفاروق عمر رضى الله عنهما ، وأحسن اليهما ، وجزاهما عن أمة الاسـلام خير الجزاء •

ولعله من الخير ان أذكر لكم الآن أمثلة من هذا النقد الخبيث الهدام ، حتى تدركوا معنا مدى اجحافه بنا ، وافتئاته علينا :

فالبعض - لا رحمه الله - كان يذهب قبل اعدامه الى أن الآمال العريضة التى كانت معقـودة بثورتنا قد خابت وتعثرت • (كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا) • وقالوا ان الوعود التى كنا فى زعمهم ، نكيلها كيلا ، باستئصال الشرور كافة ، وتحقيق الرخاء ، واقامة المجتمع المثالى ، لم تتحقق • كما ذهبوا الى أنهم انما منحونا تاييدهم ، وشـاركوا فى الثورة والاطاحة بالعهد البائد ، أملا منهم فى رفع مستوى معيشتهم ، ورفع المعاناة عنهم ، فاذا هذه الآمال تتبدد ، واذا بالمشاكل والمتاعب والمعاناة هى فى زعمهم قائمة لم تزل ، بل وتتفاقم وتتعقد •

وأبادر بالرد على هؤلاء المفترين الجاحدين الكاذبين (رغم أنهم الآن فى العالم الآخر) ، بأنه لم يحدث أبدا أن أدليت بمثل هذه الوعود التى يتحدثون عنها ، وانما هى وعود وردت فى كتب لمفـكرين سـذج كسـيد قطب ومحمد قطب ، كانوا غافلين عن واقع الأحوال وملابساتها ، غير مدركين لمدى تعقد المشكلات وصعوبة حلها ، واقتضاء هذا الحل لسنوات طوال • كذلك فقد كان ثمة من الخبثاء سيئى النية والطوية من كان يتظاهر فى زمن الجاهلية بانه معنا وفى صـفوفنا ، وهم فى قرارة أنفسـهم من أعداء الاسـلام ، فكالوا الوعود فى كتاباتهم ، وصوروا للناس أن معاناتهم وكافة المشكلات ستزول

فى غمضة عين متى قامت الثورة الاسلامية ، وكان هدفهم الحقيقى الخبيث أن يصاب الشعب بخيبة أمل قائلة متى رأوا الأمور باقية على حالها بعد تاسيس النظام الاسلامى ، فيدفعهم السخط والاستياء الى قلب نظام الحكم ، أو الاستخفاف بالدين ، والشك فى قدرة الجمهورية الاسلامية على تحقيق الرخاء والرفاهية ... كذا كان هدفهم أيها الاخوة المؤمنون . (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

وقد اثبتت التحقيقات التى أجرتها اجهزتنا ، واشرفت عليها بنفسى رغم كثرة أعبائى ومشاغلى ، أن بعض هؤلاء كانوا عملاء للصهيونية العالمية ، فاستاصلناهم واسترحنا من شرهم وفتنتهم . (والله لا يحب المفسدين) ... غير أنى شديد الثقة فى حكمتكم وقدرتكم على أن تروا فى وضوح وجلاء أنه من قبيل البلاهة والغفلة أن يظن امرؤ أنه بالوسع بضربة واحدة ، وبين غمضة عين وانتباهتها ، ازالة كافة ما كنا نعانى منه أثناء حكم الجاهلية ، وأن يحل النظام الاسلامى فور قيامه ما ورثه عن العهد البائد من تركة ثقيلة ، من مشكلات الاسكان والمجارى ، والكهرباء والمياه ، والصناعة والزراعة ، والتعليم والصحة ، والادارة والبيروقراطية ، والفقر والأمية ، والغذاء ونقص السلع الاستهلاكية ، الى آخر ما تعرفون من المشكلات .

فان كنت فى بعض البيانات الأولى التى أدليت بها بعد الثورة ، خاصة البيانات أرقام ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٩ ، قد أثرت بعض الآمال فى تحسن بعض الأحوال ، ووعدت بازالة بعض المظالم ، وتحقيق بعض الاصلاحات ، فان لدى من الشجاعة والصراحة ما يمكننى من أن أعترف الآن بأننى لم أكن فى ذلك الحين ، بسبب كثرة مشاغلى وبياناتى الى الأمة ، قد أجريت دراسة وافية دقيقة لهذه الموضوعات ، ولم يكن زملائى من الخبثاء الذين استأصلنا شأفتهم قد اطلعونى قبلها على كافة الملابسات والتفصيلات والأرقام والبيانات .

أما الآن فهى فى متناول يدى ٠ وقد أتضح لى ، بعد القاء نظرة عليها ، أن الأمر ليس بهذه السهولة والبساطة التى يتصورها البعض ، وأن الحل يحتاج الى زمن طويل ، وجهد جهيد ٠ ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ٠ فالصبر الصبر ! والجلد الجلد ! ٠ قال تعالى (واصبر وما صبرك الا بالله) ، وقال : (واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) ، وقال : (انى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) ، وقال : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) ٠ صدق الله العظيم ٠

غير انى قائل لكم ، رغم كل هذا ، ان الأزمة الاقتصادية زائلة باذن الله ، والمعاناة سترفع عن كاهلنا بعون منه وتوفيقه ، متى صبرنا وصابرنا وثابرنا ٠ اذ أنه من المحال ومن غير المعقول أن يترك الله عباده المخلصين ، ومجتمعنا الاسلامى الرشيد ، فى كرب وضائقة دون أن يجعل لنا منهما مخرجا ٠ (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا) ٠ وبوسعه جلت قدرته ، متى رآنا قد قضينا قضاء مبرما على أعداء الاسلام ، ولم يعد بين ظهرانينا غير المؤمنين الصادقين ، أن يمدنا بجنود من عنده ، وأن يكشف لنا فى أرضنا عن حقول نفط دونها حقول نفط دول الخليج ، وعن كنوز قارون وكل مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، فنباهى بهذه النعمة الأمم ، ونقيمها دليلا أكيدا على رضوان الله ورحمته ، فتبادر الأمم والشعوب بالدخول فى الاسلام أفواجا ، اذ رأوا البرهان المكين على صحة هذا الدين ٠

ثم ثمة أفراد تعساء فى هذا البلد الأمين قد ساءهم — ويا للمهزلة ! — أننا قد أغلقنا المسارح والمتاحف ، ودور السينما والملاهى ، وكافة أوكار الموبقات والفواحش ، وبلغ بهم السفه والقحة حد التعبير عن الاستياء اذ قصرنا برامج الاذاعة والتليفزيون وأعمدة الصحف والمجلات على المواد

الدينية ، ومنعنا التغنى بغير التواشيح ، والكتابة الا عما يعزز الايمان ، والحديث الا فيما يزلزل الباطل . وهم يدعون انهم رغم ايمانهم وتقواهم فى حاجة الى ساعة للقلب حاجتهم الى ساعة للرب ... وانى أرد على هؤلاء السفهاء بجملة واحدة لا غير ، فأقول : ان كل الساعات للرب لا شريك له . (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب) . أما الأغانى التى هى مفتاح الزنا ، والرقص الذى لا يفيد غير اثارة الشهوات ، والتمثيليات التى هى من حبائل الشيطان ، والأفلام التى هى من مكائد الفرنجة ، والقصص والروايات والمسرحيات التى تلهى عن ذكر الله ، فانا لها لقامعون ، ولشأفتها لمستاصلون ، ولجذورها لمجتثون ، ولرجالها ونسائها لرادعون وكابحون وكابتون .

وقد كان بفضل الله من عواقب قرارنا هذا الذى لم نبتغ باتخاذه غير وجه الرحمن وحده ، آثار جانبية عادت على مجتمعنا بالخير من حيث لا نقصد .. ذلك أنه اذ عزف الكفرة الملحدون عن الاستماع الى الاذاعة ومشاهدة التليفزيون ، واذ بات الكثيرون يأوون الى فراشهم فى ساعة مبكرة من المساء لضيقهم ببرامجنا الدينية الرشيدة ، خف الضغط على استهلاك الكهرباء ، وهو احدى المشكلات المستعصية التى كنا نعانى منها فى العهد البائد . كذلك فان اغلاق المسارح ودور السينما واللهو ، والكازينوهات والمراقص والمقاهى ، ومحلات تصفيف الشعر ، وعدد كبير من المتاجر والمكتبات وبيوت الأزياء ، الى آخره ، كان من شأنه ان يخفف الضغط على استخدام وسائل المواصلات ، اذ لم يعد لدى الغالبية من أفراد الشعب أدنى رغبة فى الخروج من ديارهم ... وكلنا يعلم كيف كان حال المواصلات فى زمن الجاهلية ، وكلكم يلمس ما طرأ عليها من تحسن ملحوظ ، وهو ما أعتبره انجازا من أعظم انجازات الثورة المباركة ، ان لم يكن أعظمها طرا . (فاعمل اننا عاملون) . صدق الله العظيم .

والبعض ينعى علينا أننا بعنا لدول أجنبية آثار الفراعنـة الجـاهلين وتماثيلهم ومعابدهم وهياكلهم ، ويتكلفون الحزن والأسى ، ويتباكون عـلى تراث يدعونه بالمجيد ·· مجيد حقا !! الأصنام التى أمرنا الله تعالى بهدمها تراث مجيد ! والمعابد التى أقاموها ليعبدوا فيهـا الشيطان تراث مجيد وصور النساء عاريات الصـدور والرجال مكشوفى العورات تراث مجيد نعم ! غير أنى سائل هؤلاء الباكين المحزونين : هـل ترك المسلمون أصـنام الجاهلين قائمة بعد فتح مكة حرصا منهم على الابقاء على تراث الأقدمين ؟ ألم يسمعوا بقوله صلى الله عليه وسلم الوارد فى سنن ابن ماجه « لا تدخـل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » ؟ ·· فكما أن الملائكة لا تدخل بيتا فيـه تمثال أو صورة ، فانها لا تحل ببلد فيه صور أو تماثيل ·· وقد اقتضت حكمتنا الا نكسرها او نحرقها ، وأن نبيعهـا بدلا من ذلك الى دول كافرة لا ترى باسا فى اقتنائها ، (وأكثرهم لا يعقلون) لتعرضها فى متاحفها ، وتزين بها ميادينها ، فتزيد رؤيتها أبناءها غواية على غوايتهم ، وضلالا على ضلالهم ، ونشيد نحن بالأموال التى بعناها بهـا المسـاجد التى يعمرها جمهور المصلين ، ودور السكن اللائقة بقـادة الثورة العاكفين على خـدمة وحماية هذا الدين ·

ويقودنا ذكر دور السكن هذه الى الحديث عن شكوى بعض الخبثاء من ان قادة الثورة يوسعون على أنفسهم ، فاتخذوا من قصور رجال العهد البائد سكنا لهم ، واقتنوا السيارات الأنيقة ، والتحف الثمينة ، ولبسوا اللين من الثياب · وهم فى اتهامهم هذا لنا يستشهدون بآية (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الـكتاب) · وانى ارد عليهم بأن الشيطان بوسعه أن يقتبس ويستشهد بما شاء من الكتاب المقدس لاثبات حجته ! ثم انى لسائلهم : الم يسمعوا فى حياتهم تلك الآية الكريمة (قل من حرم

زينة الله التى أخرج لعبـــاده والطيبات من الرزق) ؟ ثم انى لســـائلهم ومفحمهم : أليس أنيق الثيـــاب والمســكن والمركب والمـآكل والمشرب من الطيبات من الرزق ؟ ثم يكفينى أن أذكر أن هذه الأموال التى ننفقها عـلى أنفسنا ليست من أموال الشعب كما يدعون ، وبالتالى فانه ليس لأحد من أبناء رعيتنا فيها نصيب • فهى من الأموال التى يرسلها الينا شخصيا بعض الأكـارم الفضـلاء من بعض دول الخليـج ، كى نستعين بهـا فى حيـاتنا التى كرسناها لنشر تعاليم الاسلام واعلاء صوته ومكانته فى الدنيا بأسرها• وهى ليست كأموال هؤلاء الطاعنين فينا والمؤلبين علينا مما توافيهم بهـــا موسكو الملحدة ، أموال كرست لهدم الاسلام كما كرست أموال دول الخليج لخدمته • (وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزئون • فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين) •

ويدعى هؤلاء المـاركسيون الشيوعيون والاشتراكيون والناصريون أن مذهبنا نحن ، لا مذهبهم هم ، هو الهدام الضال • وقالوا اننـا هدمنا نظم التعليم ، ومنعنا تدريس اللغات الأجنبية ، وقتلنـا السـياحة الى بلادنا ، وأحرقنا الكتب ، وقضينا على حقوق القبط ودفعنـا المثقفين الى الهجرة من ديارنا ، وأهدرنا آدمية المرأة ، الى آخر افتراءاتهم وأكاذيبهم وضـلالاتهم • (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم • ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) صدق الله العظيم •

وانى لمجيبهم : أجل هدمنا نظم تعليم الجـاهلية التى كانت تنفث سمومها وترهاتها فى عقول أبنائنا ، وتلقنهم نظريات دارون وكوبرنيكوس وجاليليو ونيوتن واينشتاين ، مما يخالف ما أتى به القرآن ، ويشــغل العقول بعلوم لا يرضى عنها الرسول ، وأقمنا نظم تعليم تحل فيهـا مكان الصـــدارة كتب القسـطلانى ومتولى الشــعراوى ، وابن تيميـة وعمر

عبد الرحمن ، وابن حزم وعبد الحميد كشك ... أجل منعنا تدريس اللغات الأجنبية واستيراد كتب الفرنجة ، وأحرقنا الآلاف المؤلفة من المجلدات . غير أننا انما فعلنا ذلك وقاية وحفظا لعقول أبناء هذه الأمة من اباطيل خصوم الاسلام . فان كان نظامنا قد أبعد السياح الأجانب عنا ، فانما ذلك فضل من الله ورحمة ، اذ وقانا شر أجانب لا حياء لديهم ولا خلاق لهم ، يسيرون بالشورت فى طرقاتنا ، وتكشف نساؤهم عوراتهن على شواطئنا ، ويتعاطى جميعهم المنكر جهرة وعيانا ، فيفسدون بذلك من أخلاق شبابنا ، ويطأون باقدامهم تقاليدنا ومقدساتنا . فان كنا قد حرمنا بابتعادهم من دخل تاتى به السياحة ، فليست الايرادات وزيادة الدخل القومى بالغرض من هذه الحياة الدنيا الفانية . (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) . وانما غرض الحياة وهدفها طاعة الرحمن ، لا السير فى طريق الغواية والشيطان . ولسنا باية حال من الأحوال ، ومهما عانينا من الفقر وتدهور الاقتصاد وانخفاض الدخل ، بهاجرى ديننا من اجل حفنة من الدولارات ! (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون) .

فاما عن القبط وشكواهم من اعادة فرض الجزية عليهم ، وحرمانهم من حق الدفاع عن الوطن ، ومنعهم من تولى المناصب الرئاسية فى أى من الميادين ، ومن بناء الكنائس الجديدة وترميم القديم منها ، فامور أمر بها الدين ولا نملك الا الانصياع لها وان كره الكافرون . (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير) . صدق الله العظيم . كذلك فقد أمر المرأة بأن تقر فى بيتها . فان كره البعض قرارنا بحرمان النساء من الحقوق السياسية ومن حق العمل ، وقال ان

نصف أفراد المجتمع قد أخرجوا بذلك من ميادين الانتاج ، قلنا ان هذا هو تفسيرنا لمعنى الآية الكريمة ، وليس بوسعنا أن نسمح بغير تفسيرنا مما يريد السفهاء الأخذ به ... (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) وأضيف الى ذلك أنه وان كان نصف أفراد المجتمع قد أبعدوا بقرارنا هذا عن ميادين الانتاج ، فقد أبعد أيضا عن وسائل المواصلات العامة والشوارع ، حيث كانت النسوة يزاحمن الرجال ، وكلكم لمس ما طرأ من وقتها على هذه المواصلات من سهولة ويسر ، وقلة عدد المارة فى الطرق ، وهو ما سبق أن ذكرته أنه من أهم انجازات الثورة .

وأما عن قولهم ان الآلاف المؤلفة من المثقفين قد اختارت الهجرة من البلاد ، وأن العمل بالادارات الحكومية وغير الحكومية قد تأثر بهجرة «العقول» والكفاءات وتدهورت نوعيته ، فانى ذاكر أنه لا رغبة لدينا فى أن يبقى بين ظهرانينا وفى هذه الأمة المسلمة هؤلاء العلمانيون الملحدون المعارضون المدعوون بالمثقفين . ويكفينى هنا أيها الأخوة المؤمنون أن أشير الى أنه ما من دين واحد من بين كافة الأديان السماوية قد وعد بالجنة المثقفين ، أو أورد كتابه المنزل ذكرهم . وانما ذكرت الكتب السماوية المتقين لا المثقفين ، ووعدتهم بجنات النعيم . وعلى أى فانما نحن أحوج الى أهل الثقة منا الى أهل الخبرة . وعلى الله توكلنا وهو خير الحافظين ونعم الوكيل . فان شاء المزيد منهم الهجرة فهنيئا لهم بها ، وبالعيش فى مجتمعات الشياطين وأمم الجاهلين . وليصحبوا معهم من شاء من أهل الذمة ، والنساء الفواجر ، والموسيقيين والممثلين ، وكتاب المسرح والروائيين ، والرسامين والنحاتين ، وكل من ساءه تطبيق أحكام الشريعة الغراء وتوقيع الحدود . غير أنى محذرهم من أننا متى علمنا أنهم يستغلون اقامتهم فى دول المهجر للاساءة الى سمعتنا ، والتنديد بنظامنا ، والافتراء على شخصنا ، فان لله جنودا

بمقدورهم أن يصلوا اليهم ، وأن يريحوا الاســـلام منهم ، ولو كانوا فى اقصى الأرض أو فى بروج مشيدة · وعـــلى أى حال فاننا لا نقيم وزنا ولا نلقى بالا لمـا قيل ويقال وسيقال عنا خارج قطرنا · وقد اســتنكروا فى الشرق والغرب بالفعل قطعنا ليد السارق والسارقة ، وشنق العلمـانيين والملاحدة ، ووصفوا نظامنا بالهمجية ، ورجاله بالوحشية · وانا والله لا نعبأ بما ينعتوننا به من صفات ، ولا نقيم اعتبارا لغير رضا الله وطاعته · (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) صدق الله العظيم ·

ويشـــكو البعض من أن أواصر الحيـاة العائلية فى قطرنا وفى ظـل نظامنا قد بدأت تتفكك وتضعف اذ نكرر وصـيتنا لشـباب حزب الله أن يبادروا بابلاغ المباحث العـامة عما يحاك فى محيط اسرهم من مؤامرات ضد الدين ، وعمن يهجر الفروض كالصــوم والصـلاة من الآبـاء والأمهـات ، والاخوة والأخوات ، وأبناء الأعمام والأخوال والعمات والخالات · وقالوا ان الشـك قد بات يداخل كل فرد من العـائلة فى بقية أفرادها ، وأننا بتنا نرى الكثير من الزوجات يطابن الطـلاق بدعوى ان أزواجهن ، لـكفرهم ، ليسوا حلا لهن ، والكثير من الأبناء يخاصمون آباءهم وأمهاتهم لاصرارهم على اقتناء الصــور فى المنازل ، أو لتكاسـلهم عن أداء الصـلاة ، أو لتناولهم نظامنا بالتهكم والسخرية ، أو لرفضهم التبرع لبناء المساجد · وأجيب على كل هذا بأننا كنا دائما نتوقع هذا ونشجع عليه ، تدعيما للاســلام ، وحماية للنظام ، وتحقيقا ومصداقا لمـا بشرنا به الله تعالى جلت قدرته فى القرآن ، اذ يقول فى سورة عبس (يوم يفر المرء من أخيه · وأمه وأبيه · وصاحبته وبنيه · لكل امرىء يومئذ شأن يغنيه) ·

على أى حال فانى مذكر اياكم بما تعـاهدنا عليه وقت قيـام ثورتنا الاســلامية المباركة ، وهو أن نقف جميعا صـفا كأننا بنيان مرصوص ،

محيطين بأعداء الثورة ، متنبهين لمؤامراتهم ودسائسهم وألاعيبهم (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) ٠ وعلينا أن نسعى دوما الى تعزيز ايماننا الذى هو وحده زادنا وطريقنا الى الله ٠ فان كنا نشكو هنا من ازمات طاحنة ، وضنك وكرب ، فقد وعدنا الله فى اليوم الآخر جنة عرضها السماوات والأرض ، نسكن فيها القصور الفسيحة ، قطوفها دانية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، وأنهار من عسل مصفى ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ٠ والمؤمن منكم من زادته آلامه قوة ، ومعاناته تصميما وارادة ٠ (واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الأمور) ٠٠٠ فالصبر الصبر أيها الاخوة والأخوات ، ولا تقنطوا من رحمة الله ٠ فوالذى نفسى بيده ، ان الصبر لمفتاح الفرج ٠ ولا أسمعن من الآن فصاعدا أحدكم يشكو من تدهور الأوضاع ٠ (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ٠ صدق الله العظيم ٠ ولا أسمعن أحدا يشكو من استمرار طفح المجارى ، أو انفجار مواسير الغاز ، أو تكرر انقطاع الماء والكهرباء ، أو ارتفاع الأسعار والتضخم ، أو انهيار المبانى على ساكنيها أو أشياء من هذا القبيل ٠ (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) ٠ فهى أمور وان كنا استنكرناها وانتقدناها وقت العهد البائد ، فقد ثبت لنا الآن بعد دراستها أنها من المتاعب الشائعة فى كل الدول ، ومن المشكلات العادية التى لا راد لها ، وقدر من الله عز وجل ، لحكمة يراها قد لا يكون بوسعنا سبر غورها ، ومعرفة كنهها ٠ وكلكم قد قرأ مؤخرا فى الصحف عن انهيار فندق فى سنغافورة ، وطفح المجارى فى كلكتا ، بل وانقطاع التيار الكهربائى عن نيويورك نفسها ٠ ولنذكر دائما أنه ما من آية واحدة فى القرآن الكريم ، ولا حديث شريف واحد ، قد أمر المسلمون فيها

او فيه باصلاح المجارى ، أو ضمان استمرار تدفق المياه ، وسريان الكهرباء ٠

بقيت كلمة قصيرة خاصة بالعلاقات الخارجية لجمهوريتنا الاسلامية ٠٠ واصارحكم يا اخوانى باننى حين توليت السلطة فى هذا البلد ، لم تكن عندى فكرى كبيرة أو صغيرة عن الأهداف التى ينبغى أن تتوخاها السياسة الخارجية لنظام حكم اسلامى ، اذ كنت مشغولا قبل ذلك بتدبير الانقلاب ٠٠ غير أنى كنت ادرك امرا واحدا اساسيا ، قرأته فى كتب المرحوم سيد قطب ، الا وهو أن العالم ينقسم الى قسمين : دار سلم ودار حرب : دار سلم يسكنها حزب الله ، وهو حزبنا نحن ، ودار حرب يسكنها حزب الشيطان ، وهو سائر الامم غيرنا ، وان الدين يقضى علينا بان نوسع من حدود دار السلم عن طريق الجهاد والغزوات واشهار الحرب على الكفرة ، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٠

وقد رأيت بعد استلام الحكم أنه قد يكون من المصلحة تاجيل الجهاد والغزوات بعض الوقت لعدد من الاعتبارات العملية :

أولها : أن الولايات المتحدة الأمريكية ومؤسسة تدعى صندوق النقد الدولى فى سبيلهما الى أن تزودانا بقرض لتجديد وترميم استراحات رئيس الدولة فى القناطر والهرم والفيوم وأسوان ٠

وثانيها : أنه قد تبين لنا من تقارير مخابراتنا فى الخارج أن بعض الدول الداخلة فى حزب الشيطان لديها أسلحة شيطانية ، كالقنابل المسماة بالذرية والنووية ، تجعل من الحكمة التروى الى حين أن يمدنا الله من لدنه باسلحة الهية ٠

وثالثها : أن التقارير تاتينا ساعة بعد ساعة ، بل لحظة بعد لحظة ، عن انتشار الاسلام بين رعايا دول كافرة كهولندا وزامبيا وبوتسوانا ،

مما يبشر بدخولها فى مستقبل الأيام فى حزبنا حين يشكل المسلمون الأغلبية فيها ، وبذا يكون الله قد آراحنا وكفى المؤمنين شر القتال ٠

فأما عن قرارنا بالدخول مع الولايات المتحدة الأمريكية فى حلف دفاعى لمدة تسعة وتسعين سنة ، فقد اتخذناه بعد اقتناعنا بشدة حاجة الأمريكيين الى الاستعانة بقواتنا وبالقواعد العسكرية فى أرضنا على مقاومة الزحف الشيوعى الالحادى فى كل اتجاه ، وخطر الثورة الايرانية الشيعية الكافرة على أصدقائنا من دول الخليج ، وهى مقاومة لا شك عندى أو عندكم فى أن غرضها الأوحد هو حماية الدين من مؤامرات الفاسقين المارقين ٠٠٠ قد يذهب بعضكم ، وعن حق ، الى أن الولايات المتحدة هى الأخرى فى حزب الشيطان ٠ نعم ٠ غير أنها تمثل الجناح المعتدل منه ، والأقرب الى مراعاة مصالح المسلمين من الاتحاد السوفيتى الذى نصب حربا لا هوادة فيها ضد كل العقائد الدينية ٠ وكلكم يعلم ما يعانيه اخواننا فى الجمهوريات الاسلامية السوفيتية من تعذيب وتنكيل ٠ وكلكم استمع الى حديث الرئيس الأمريكى فى الكونجرس مؤخرا الذى تحدث فيه بكلمات طيبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن المذهب السنى الذى نعتنقه ٠ وكلها أمور تبشر بالخير ، وتدعو الى الراحة والاطمئنان الى النوايا الأمريكية ٠ وعلى أى حال فانه باستطاعتنا ، ومن حقنا ، أن نعيد النظر فى موقفنا من هذا الحلف الدفاعى بعد انقضاء مدة سريانه ، وهى تسع وتسعون سنة كما ذكرت ، متى رأيناه قد حاد عن أهدافه ، أو بات لا يتفق مع مصالح الاسلام ٠

ثم كلمة « على الماشى » كما يقال ، بخصوص قضية فلسطين :

تعلمون يا اخوانى أن لهذه القضية بالذات موقعا خاصا فى قلوبنا ، ومركز الصدارة فى سياستنا ومخططاتنا ٠ فتحرير هذه الأرض المقدسة من مغتصبيها ، واعادتها الى أصحابها الشرعيين ، هما الهدف الذى سيظل

دوما نصب أعيننا ، والشغل الشاغل لنا ، ولن نحيد عنه قيد أنملة ، كما سبق ان ذكرنا فى كافة منشوراتنا وبياناتنا وكتبنا قبل قيام ثورتنا الرشيدة ٠

غير ان اجماع امتنا التى لا تجتمع على باطل ، يقضى الآن بتعليق شروعنا فى تنفيذ هذا الهدف الأسمى على شروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن تتعهد كل منظمات التحرير الفلسطينية سلفا ، ومن الآن ، بان يكون النظام الذى ستقيمه بعد تحرير الأرض نظاما اسلاميا ٠ اذ لا معنى ولا حكمة فى أن نحرر لهؤلاء الفلسطينيين ارضهم ثم يقيمون فيها نظاما جاهليا علمانيا او اشتراكيا او صديقا للاتحاد السوفيتى ، فاذا فلسطين التى حررناها بدمائنا الطاهرة وقد اضحت من حزب الشيطان! ولا يكفينا فى الواقع مجرد التعهد من جانبهم ، بل ينبغى أن يثبت لدينا بوضوح ، من مراقبة سلوكهم ، ان هذا هو عزمهم الصادق ونيتهم الاكيدة ٠

الشرط الثانى : ان تتحرر كافة دول العالم الاسلامى الأخرى من انظمتها الجاهلية ، وأن تقوم عقب ذلك الوحدة الاسلامية الكبرى فيما بين هذه الدول ، من أجل ضمان نجاح غزونا لفلسطين ٠

والشرط الثالث : ان يتم تحرير فلسطين باسلحة من انتاج الدولة الاسلامية الكبرى بعد تاسيسها ٠٠ أسلحة اسلامية لا شرقية ولا غربية ٠ فشراء الأسلحة من دول الكتلة الشرقية يا اخوانى سيعنى تسلل النفوذ الشيوعى الى دولتنا فى أعقاب ابرام صفقات السلاح ، وهو ما نأباه ونرفضه ٠ كما انه لا يعقل أصلا ان تبيعنا الولايات المتحدة الأمريكية او دول أوروبا الغربية ، (رغم ما يربط بيننا وبينهم من علاقات ودية) ، أسلحة فى مقدورها القضاء على صديقتها العزيزة اسرائيل ٠ غير انه بالنظر

الى أن اسرائيل المزعومة تتلقى أفضل صنوف السلاح من دول الغرب وأكثرها تقدما ، فان قدرة دولتنا الاسـلامية الكبرى على انتاج ما يوازيها أو يفوقها سيستغرق لا محالة بضع عشرات من السنين · وهى فترة سنكون قد تمكنا خلالها من تربية جيـل جديد لم يتلوث بجاهلية العهد البائد ، وتشـبع بمبادىء الاسـلام وروحه منذ نعومة أظفاره ، فنسلم اليه القيادة ، ونلقى على عاتقه القوى مهمة تحرير فلسطين ·

والى أن يتم هذا كله ، وتتحقق هذه الشروط جميعها (وهو كما ذكرت، ما قد يستغرق قرابة نصف قرن) ، ورغبة منا فى تجنب عواقب أن تكون اسرائيل هى البادئة بالهجوم والعدوان قبل أن نكون قد اعددنا انفسـنا الاعداد اللازم للمعركة المقدسـة ، فقد قررنا أن تستمر قائمة بيننا وبينهم، وبصفة مؤقتة ، معاهدة السـلام التى أبرمها معهم السـادات الخائن ، عميل الامبريالية والصهيونية ·

★ ★ ★

أيها الاخوة والأخوات ،

هذا بعض ما عن لنا اليوم بصدد الظروف الراهنة ، وعدد بسيط من الانجازات المجيدة لثورتنا الرشـيدة · وسالتقى بكم مرة أخرى باذن الله تعالى هذا المساء ، لتسمعوا منى البيان الحادى عشر لقيادة الثورة الاسـلامية عن المزيد من انجازاتنا ·

(ربنـا لا تؤاخذنا ان نسـينا أو أخطـأنا ، ربنـا ولا تحمل علينـا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنـا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

مشــهد من الحياة فى ظل الحــكومة الدينية :

بيــت القــاضى

[يدخل المؤلف من أمام الســتار فى بطء متأملا الجمهور يمنة ويسرة]

المؤلف :

على شـــمالى التجمـــع والوفـــد على اليمين
وامــامى الحــزب الوطنى وورايــا لا حـــزبيين
د يمجـــد زغلـــول باشـــا وده بيــاله لينين
والتــالت عنـــده مبـــارك ده حبيب المصــريين
والرابــع عبد النـــــاصر والخــامس زفت الطين
داخلين فى خنـــاقة وعــركة ومهــــاترة وســب الدين
والــكل يقـــول عالتــــانى خــونة وانتهـــازيين
ولا حــدش منهم شـــايف الخطـــــر الأكبــر مين
وحش متــربص بيهــم حاياكلهــــــم أجمعين
ونهار ما حايحصل حكم الـ .. اخــــوان المســـلمين
حانكون فى الســجن جميعا : والى وســــــراج الدين
وفـــرج فــودة وشــنودة وخـــــالد محيى الــدين
وســاعتها نقــول يا جمــاعة يــا خــوانا يـا بنى آدمين !
ضــيعتم مصـــــر ازاى ؟ ســــــلمتوا بــلادنا لمين ؟
موش كان احســن لو كنتــم من بــدرى متحـــــدين

ضـد الخطـر اللى بلعـكم وأكلـكم أجمعين ؟

* * *

حانشوف مع بعضنا مشهد من حكم رجال الدين
لا حبالغ ولا حاتجنى وحاكون عالحق أمين
وان كنتم بعد ما تخلص عن سياستهم راضيين
مبروك ان شا الله عليكم دولتهم . قولوا آمين !
دولة ريان وشريف والسعد أبو الملايين
بس أنا موش قاعد فيها وحاروح ان شا الله الصين
وحاييجى مؤكد يوم حاتكونوا فيه نادمين
وتقولوا صدق والله حسين أحمد أمين

[يخرج]

* * *

[يرفع الستار عن فؤاد وفوزية على وشك الانتهاء من وجبة العشاء .. الابن ، محسن ، (١٤ سنة) يجلس فى أحد أركان الغرفة يقرأ فى صحيفة] .

فوزية : انت موش طبيعى النهاردة !

فؤاد : لا النهاردة ولا أى يوم تانى .. لو كنت طبيعى كنت انتحرت .

فوزية : اعوذ بالله يا شيخ ! قابلت وزير العدل ؟

فؤاد : [متنهدا] قابلته !

فوزية : قال لك ايه ؟

فؤاد : قلت له يا سيادة الوزير القضية واضحة وضوح الشمس ، وممكن لطالب فى سنة أولى حقوق انه يفصل فيها ... وزير الداخلية فى

العهد السابق خارج من بيته ، ييجوا تلات شبان ، أعضاء فى منظمة شباب محمد ، يطلقوا النار عليه فى عز الضهر ، واكتر من عشرين شاهد فى الشارع شافوهم واتعرفوا عليهم ، واتمسكوا بعد كده ومعاهم الأسلحة اللى اطلقوا النار منها ... عايزين ايه أكتر من كده ؟ قال لى ده شانك انت وانا بلغتك تعليمات جاية من فوق ... قلت له لو كان القاضى بيتلقى تعليمات جاية من فوق . يبقى صنعته ايه ؟ فيه حاجة اسمها عدالة ولا مفيش ؟ قال لى العدالة هى ان القاضى يحكم بما يخدم النظام القائم والشريعة . قلت له الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه سلم لقريش راجل مسلم قتل واحد من المشركين بعد صلح الحديبية ، يبقى احنا ما نعاقبش مسلم حاول يقتل مسلم ؟!

فوزية : هم عندهم ان وزير الداخلية ده ماهواش مسلم .

فؤاد : وهم كانوا ربنا عشان يحكموا على واحد بانه مسلم او موش مسلم ؟ النبى ما قلش لأسامة بن زيد لما قتل واحد نطق بالشهادة « قتلته بعد ما قال لا اله الا الله ؟ هلا شققت عن قلبه لتنظر أصادق هو أم كاذب ؟ » القرآن ما قلش (ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا) ؟.. اللى مجننى ان كل يوم فى المحكمة دلوقت الفى اربعين خمسين واحد بالجلاليب والدقون جايين يحضروا القضية عشان يرهبونى واحكم بالبراءة « لعدم توافر الأدلة » ... عدم توافر الأدلة !!

فوزية : وانت تاعب نفسك ليه ؟ ما دام قال لك دى تعليمات جاية من فوق . يبقى انت ما لكش ذنب .

فؤاد : واحكم بالبراءة ؟

فوزية : ليه لا ؟ تفتكر حا يسيبوك فى وظيفتك اذا انت أدنت ناس من تنظيماتهم ؟

فـؤاد : طبعـا لا ·· [صمت] وما تقعشى القضية المهببة دى الا فى ايدى أنا ؟! ده ايه النحس ده ! [يتنهـد] حد سـأل على ؟

فوزية : مختار الشنتيوى اتصل بالتيليفون ·

فـؤاد : وحياتك اذا اتصـل تانى أنا موش موجود ·

فوزية : دى على فكرة رابع مرة يسأل عنك فيها وانت ماتكلموش · أكيد حايفهم ·

فـؤاد : يفهـم زى ما هو عايز ·

فوزية : ايه اللى خلاك تنقلب عليه كده مرة واحدة ؟

فـؤاد : قعدته بقت مملة ·

فوزية : ماكنتش بتلاقيها مملة ·· زمان كنت بتقول عليه انه أكبر مثقف قابلته فى حياتك ·

فـؤاد : وحيـاة أبوكى ماتفضليش كل شـوية تقولى لى زمان ·· زمان حاجة ودلوقت حاجة ·

فوزية : خليك صريح ·· مع نفسـك عالأقل ·· من ساعة ما جريدة « الهدى النبوى » ابتدت تشتمه وتقول عليه علمانى وملحد ، وانت بقيت تتهرب منه ·

فـؤاد : [فى حـدة] قصدك تقولى انى جبان ؟ [صمت] عايزانى أعمل ايه ؟ انتى عارفة انهم ممكن يقبضوا عليه فى أى لحظة ويقدموه للمحاكمة بتهمة نشر الالحـاد ؟ فى الحالة دى يبقى موقفى أنا ايه اذا اتعرف ان أنا لغاية آخر لحظة كنت بزوره وبيزورنى واننا صحاب ؟ لا يا ستى ! أنا موش ناقص مشاكل · [صمت · يتنهـد مرة أخرى] حتى الصـحاب الواحد دلوقت ما بقاش له انه يختارهم ·· ما بقيتش عيشة دى ! دى بلد دى ولا سجن ؟

فوزية : [تحدجه بنظرة ذات معنى] ما تـكررشى الـكلام ده كتير وحياتك ٠

فـؤاد : انا اتكلم زى مانا عايز فى بيتى عالاقل ٠٠ عايزانى أنـكتم حتى وانا فى بيتى ؟ عايزانى أنـ ٠٠٠٠٠٠

[تدخل الخادمة تحمل طبقا من الفاكهة ٠٠ يصمتان حتى تضعه على المائدة وتنصرف] ٠

فـؤاد : وما تلاقيش لنا شـــغالة الا بنت أخو عضـــو فى منظمـــة الجهاد ؟

فوزية : انت يا راجل موش كنت بتقول من كام يوم ان كون عمهـا عضو فى منظمة الجهاد له ميزة ؟

[تدخل الخادمة مرة أخرى تحمل صينية القهوة]

فوزية : خلاص يا اعتماد تقدرى تروحى دلوقت ٠٠ انا حابقى أشطب الفناجين بعدين ٠

الخادمة : تصبحوا على خير ٠

فوزية : وانتى من أهله ٠ [تنصرف الخادمة] ٠

فـؤاد : [يلتفت الى ولده] عامل ايه فى المدرسة يا محسن ؟

محسن : كويس ٠

فـؤاد : وزعوا عليكم الكتب ولا لسه ؟

محسن : لســه ٠٠ بيقولوا يمكن كمان أسبوعين ٠

فـؤاد : شهر من ســاعة ابتداء الدراسة من غير كتب ؟! [لفوزية] امبارح قابلت مدرس التاريخ بتاعهم ٠٠ تعرفى قال لى ايه ؟ بيقول الكتب لغـاية النهـارده ما توزعتش ، والواحـد مش عـارف يقول ايه فى الحصـة وما يقولشى ايه ٠٠ اشـتم فى محمد على ولا أمـدح فيه ؟ أمـدح فى سـعد زغلول ووطنيته ولا اقول عليه علمانى ومحابى للأقباط ؟ ما أقدرشى أدرس

الا لما تيجى الكتب واشوف مكتوب فيها ايه » !! قلت له ما تسأل الناظر . قال : « سألته ، قال ما اعرفشي وقول رايك لغاية ما الكتب تتوزع . بس انا موش عبيط ويحصل لى اللى حصل لمدرس الجغرافيا اللى قال للتلامذة من مخه ان الأرض هى اللى بتدور حوالين الشمس والشمس واقفة ، فاترفد تانى يوم لان كلامه بيقولوا مخالف للقرآن ! » وكل اللى بيعمله دلوقت انه بيتكلم كلام عايم ما حدش يقدر ياخد عليه حاجة لحد ما الكتب توصل .. حاجة تقرف !

فوزية : كل شوية دلوقت تقول حاجة تقرف .. زمان ما كنتش كده .

فؤاد : رجعنا تانى نتكلم عن زمان .. قلت لك ألف مرة ماتجيبيليش سيرة زمان .. زمان كانوا بيشوهوا عقول عيالنا بالطريقة اللى بيعملوها دلوقت ؟ [صمت] تعرفى انا بافكر فى ايه ؟

فوزية : خير .

فؤاد : موش امبارح كنت باحكى لك ازاى رجال الصناعة الكبار فى المانيا بعد الحرب الأولى ، كروب وبكشتاين وغيرهم ، هم اللى جابوا هتلر الحكم ولموه ، عشان المانيا تعمل حرب ، وتكسب أسواق جديدة لبضايعهم ، ومستعمرات فيها المواد الخام اللى محتاجين لها ؟ النهاردة الصبح فكرت وأنا رايح المحكمة : طيب ايه اللى خلاهم فى نفس الوقت ينقلبوا على اليهود ، ويثيروا حملة كراهية شعبية ضدهم ؟ ... هل ده كان لازم لتحقيق أغراضهم ؟ ... لقيت ان ايوه كان لازم ... لأنهم كانوا خايفين موت من الصراع الطبقى فى المانيا ، ومن الشيوعيين والاشتراكيين والعمال ، ولقوها طريقة كويسة يلهوا بيها الشعب الألمانى عن الصراع الطبقى اللى بيهدد مصالحهم وجيوبهم ، بانهم يوجدوا له كبش فدا تكون الطبقات كلها متحدة فى كراهيته ، ونفتكر انه هوه المسئول عن كل اللى بتعانيه ...

محسن : قريت يا بابا اللى ٠٠٠

فـؤاد : استنى لحظة ما تقاطعنيش ٠٠٠ وبعدين فكرت : مين اللى كان ورا الجماعات الدينية فى مصر وسـهل لها الوصول للحـكم ؟ ٠٠ قصدى مين الجهة الحقيقية اللى دبرت الانقلاب ؟ موش هم جماعة من اصحاب الملايين اللى برضـه خايفين من الصراع الطبقى فى مصر ، وعلى مصالحهم وجيوبهم ، ويكرهوا الاشـتراكية عمى ، فربوا دقونهـم وعملوا نفسـهم اسـلاميين ، واسـتمالوا ناس من كل الطبقات عشـان يلهوهم بفكرة « ضرورة تطبيق الشريعة ، واقامة حـكم يرضاه الله » وصوروا العهد الماضى بأنه عدو الاسلام ، عشان الشعب يتلهى عن اللى ماصص دمه وواكل لقمته ؟ ٠٠ ايه رأيك ؟ كلام معقول ، ولا موش معقول ؟ ٠٠٠٠ [يلتفت الى ابنه] كنت عايز تقول ايه ؟

محسن : قريت اللى كاتبينه عن فرج فودة ؟

فـؤاد : انت بتقرا ايه ؟

محسن : « رايـة الاسـلام » ٠ شفت كـاتبين ايه عن فرج فـودة والعلمانيين ؟

فـؤاد : [يخطف منه الجريـدة] انا موش عايزك تقرا الجريدة دى تانى ٠

محسن : مدرس العربى فى المدرسة بيقول لنا لازم نقراها كل يوم لان موضوعات التعبير حاتجيلنا دايما من المقالات المكتوبة فيها ٠

فـؤاد : مدرس العربى مالوش دعوة بالجرايـد اللى لازم نقراها ٠٠ احنا اللى نقرر نقرا ايه وما نقراش ايه ٠

فوزية : محسن ! خد الخمسة وعشرين قرش دول وانزل اشترى لك حاجة ٠

محسن : موش دلوقت عشان بتمطر . [يتجه الى النافذة يتطلع منها الى الخارج] .

فؤاد : نازلين على العلمانيين يلفقوا لهم بلاوى ويلطخوا سمعتهم .. الجريدة دى ما تدخلش بيتنا تانى .

فوزية : ما كل الجرايد بقت زى بعض .

فؤاد : اذا كانوا كلهم قذرين زى بعض يبقى موش عايزين جرايد خالص .. قال يعنى الواحد بيطلع منها بحاجة وبنفهم اللى بيحصل فى الدنيا !! [يفتح الجريدة ويقرأ منها :] « حكم الشرع فى قص شعر المرأة ... حقيقة اسلام الجن ... فتوى الشيخ المحلاوى فى موضوع من تزوج بالجن المتشكل بالانس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية ... جمهوريتنا الاسلامية حماها الله من مكائد العلمانيين بقلم جلال كشك » .. تعرفى جلال كشك ده ؟

فوزية : لا .

فؤاد : ما تسمعيش عن المفكر الاسلامى الخطير جلال كشك مؤلف كتاب « عظمة الحل السعودى » ، وكتاب « روعة الحل السعودى » ، و « عودة الحل السعودى » و « انتقام الحل السعودى » ! كل كتاب منهم أقوى من « سوراج » وأعظم من « سنجام » ؟ .. [يعود الى النظر فى الجريدة] « لا للعلمانيين الملحدين بقلم أحمد بهجت » .

فوزية : ده عارفاه .

فؤاد : ده اللى كان كاتب فى « الأهرام » سنة ٨٥ يقول ان اللى ابتدا المكارثية فى أمريكا هو الجنرال مكارثر بتاع حرب كوريا !! دول يا ستى اللى بيشكلوا الرأى العام وعقول أبناءنا واللى بتيجى من مقالاتهم موضوعات التعبير فى المدارس ! [يلقى بالصحيفة جانبا] هل يجوز تلطيخ سمعة

العلمانيين وتقويم الناس عليهم بالشكل ده ؟

فوزية : على العموم احنا ما لناش دعوة ٠٠ الحمد لله لا احنا علمانيين ولا ملحدين ٠

فـؤاد : يعنى هم ما شـاء الله اللى سمعتهم برلنت ؟ ده أنا حـكوا لى حكايات عنهم وعن نسوانهم واللى بيحصل فى معسكراتهم الاسلامية وزواج المتعة بينهم حاجات تشيب ٠

فوزية : على كل ما تقدرشى تنكر ان فيه صحوة اسلامية ٠

فـؤاد : صحوة اسلامية ؟! لو كانت الصحوة الاسلامية بالشكل ده أنا أفضل أكون نايم !

فوزية : [تتنبه] هو محسن فين ؟

فـؤاد : [يلتفت] موش عارف ٠

فوزية : انت شـفته خرج ؟

فـؤاد : لأ ٠

فوزية : [تنـادى] محسن ! محسن ! [تتجه الى باب غرفة ابنهـا وتفتحه] محسن ! راح فين دلوقت الولد ده ؟

فـؤاد : لازم خرج يشترى حاجة ٠

فوزية : الدنيا بتمطر ٠٠ ممكن يكون راح فين ؟

فـؤاد : ومالك عصبية كده ان الولد خرج ؟

فوزية : انت فاكر كويس انت كنت بتتكلم عن ايه دلوقت ؟

فـؤاد : وده دخله ايه بان الولد خرج ؟

فوزية : لا يا فؤاد ، انت الأيام دى ما بقتش تاخد بالك من الكلام اللى بتقوله قدام محسن ٠

فــؤاد : ايه اللى انتى بتقوليه ده ؟ كلامى اللى بقوله دخله ايه بان الولد خرج ؟

فوزية : انت عارف كويس قوى انه بيقعد يسمع وياخد باله من اللى احنا بنقوله ٠

فــؤاد : وبعدين ؟

فوزية : وبعدين ممكن يخرج يقول لده أو ده عن اللى احنا بنقوله فى البيت ، والنتيجة تبقى موش كويسة ٠٠ وانت دلوقت دايما بتشـتم قدامه وتتريق على منظمة الجهاد ، وعارف انهم هناك يشجعوا العيال انهم ينقلوا لهم كل اللى قرايبهم بيقولوه فى البيت عن نظام الحـكم ٠٠٠ حاجة غريبة الطريقة الى اتسحب بيها من الأودة !

فــؤاد : بس بلاش كلام فارغ ٠

فوزية : انت ما شفتوش وهو خارج ؟

فــؤاد : لأ ٠٠ كان آخر حاجة واقف هنا جنب الشباك ٠

فوزية : يا ترى سمع ايه وما سمعش ايه من الكلام اللى قلته ؟

فــؤاد : [فى حـدة] بس هو عارف كويس ايه اللى بيحصـل لى بيتبلغ عنه ٠

فوزية : ورايك ايه فى الولد اللى كان عبد الخالق بيحكى لنا عنه ؟ بلغ عن أبوه ولســه أبوه معتقل لغاية النهارده ٠٠٠ يا ترى خرج قبل ما تتكلم عن جلال كشك ولا بعدها ؟ ٠

فــؤاد : وحياتك تبطلى الكلام ده ٠٠ [يهرع فجأة الى باب غرفة ا، وينادى] محسن !

فوزية : ويخرج كده من غير ما يقول ولا كلمة أو هو رايح ؟

فــؤاد : موش ممكن يكون راح لحـد من صحابه ؟

فوزية : يبقى عند مصطفى ٠٠ حاكلم أم مصطفى فى ا يفـون [ترفع سماعة التليفون وتطلب رقما] ٠

فــؤاد : ما تكبريش المســالة اعملى معروف !

فوزية : [فى التيليفون] آلو ! مدام عبد الغفار ؟ أنا فوزية يا رجاء ·· الله يسلمك ·· يا ترى محسن ابنى عندك مع مصطفى ؟ لأ ؟ اما ل راح فين الولد ده ؟ طيب وحياتك يا رجاء ، ما تعرفيش اذا كان مكتب منظمة الجهاد بيبقى فاتح يوم الخميس بالليل ولا لأ ؟ فاتح ؟ يادى المصيبة ! ·· قصدى ·· قصدى حاسالهم دلوقت ·· مع السلامة ·

[تضع السماعة ·· فترة صمت طويلة]

فــؤاد : تفتكرى سمع ايه ؟

فوزية : كنت الأول بتتكلم عن فكرتك المهببة بتاعة الصراع الطبقى · وبعدين عن « راية الاسلام » ·· ما كانش حقك تقول اللى قلته عن زواج المتعة واللى بيعملوه فى المعسكرات الاسلامية · انت عارف انه حساس قوى بالنسبة للموضوع ده ·

فــؤاد : وانا قلت ايه عنهم ؟

فوزية : انت عارف كويس ··· ان سمعتهم ماهياش برلنت وانهم بيعملوا أعمال تشيب ·

فــؤاد : أنا ماقلتش كده ! أنا قلت ان ناس حـكوا لى عنهم حاجات تشيب · وممكن الحكايات دى تكون موش صحيحة ·· وبعدين كونى قلت ماهياش برلنت ده موش انتقاد ·· مين اللى سمعته زى البرلنت ؟ كل واحد فيه عيوب ·· والشيخ الطرابيشى نفسه فى خطبته الشهر اللى فات قال ان المعسكرات الاسلامية فيها عيوب لازم نتخلص منها ·· قلت أنا ايه أكتر من اللى قاله الشيخ الطرابيشى ؟ ··· وكونى قلت ان ناس « حكوا لى » موش معناه ان أنا مصدق كلامهم ··· وبعدين أنا أعرف منين هم بيعملوا ايه فى المعسكرات بتاعتهم أو اللى بتعمله نســوانهم ؟ أعرف منين أنا ؟ لا عمرى

دخلت معسكر ولا كلمت فى حياتى واحدة منقبة ··· وبعدين كلنا بشر وبنخطىء ، ودول بشر زينا وموش معصومين ·· يبقى ممكن أؤاخد على كلامى ازاى ؟ أنا قاضى وعارف كويس ايه الكلام اللى يؤاخذ عليه واللى ما يؤاخذش عليه ·· والشيخ الطرابيشى نفسه بينتقدهم ساعات وبكلام اقوى مين اللى أنا قلته ·

فوزية : [فى ذهول] ايه يا فؤاد اسم الله عليك ؟ انت بتتكلم معاى موش فى القسم !

فـؤاد : والله الواحد ما بقى عارف هو بيتكلم مع مراته وعياله ولا فى القسم ! حـد عارف انتى مع صحابك بتدردشى تقولى ايه عن كلامى معاكى ·· ما يمكن بتقوليلهم كل اللى باقولهولك ··

فوزية : اسـمع يا فؤاد ! أضبط اعصابك أرجوك ··· [لحظة صمت] صلى على النبى ···

فـؤاد : ؟ ؟

فوزية : باقول صلى على النبى ·· يا اخى رد قول اللهم صلى عليه ، دا انت حاتودينا ان شاء الله فى ستين داهية !

فـؤاد : اللهم صلى عليه ·

فوزية : دلوقت لمـا قلت ان العهد ده يقرف ···

فـؤاد : [فى حـدة] أنا ماقلتش العهد ده يقرف ·· أنا قلت « حاجة تقرف » ·

فوزية : ايه يا فؤاد انت فاكرنى البوليس ولا ايه ؟ أنا مجرد بافكر فى ايه اللى ممكن الولد يكون سمعه ·

فـؤاد : أنا ما قلتش العهد ده يقرف ·

فوزية : وما قلتلش كمان ان جرايدهم كلها كدب ، وانك تفضل النوم على الصحوة الاسلامية بالطريقة بتاعتهم ؟ ··· طول النهـار انت بتتسكلم الكلام ده قدام الولد ·· حرام عليك يا شيخ ·· وأمير الجماعة بتاعتهم كل يوم يقول لهم « مستقبل الاسلام فى أيديكم ، وأنتم حماة الدين ضد الكفرة والزنادقة » ! ··· الولد يعمل ايه ؟

فـؤاد : [سـاهما] تفتكرى صحيح انه ممكن يبلغ ؟

فوزية : [تهز كتفها] ·

فـؤاد : عن أبوه ؟

فوزية : أنا عارفه ؟

فـؤاد : هو غضبان منى بقى له مدة ·

فوزية : غضبان ليه ؟

فـؤاد : عشان ما جبتلوش البسكلتة فى عيد ميلاده ·

فوزية : بس دى بقى لها مدة ·

فـؤاد : لكن شايلها فى قلبه لغاية النهاردة ·

فوزية : وبالذمة ماجبتلوش بسكلته ليه ؟

فـؤاد : انتى موش شايفة الشوارع بقت ازاى والمرور شكله ايه ؟ اجيب له بسكلتة تدهسه عربية تانى يوم ؟ ··· وعالعموم أجيبها له مفيش مانع ·

فوزية : بعد ايه ! بس هو ما أثارشى الموضوع ده معاك تانى ·

فـؤاد : لأ ·· ولسـه أول امبارح مديله خمسـة جنيه يجيب قلم حبر ·· فيه حاجة تانية بيطلبها وباقول لأ ؟

فوزية : حا يفتكر ان دى رشوة عشان ما يبلغش عنك ·

فـؤاد : قصـدك ايه ؟

فوزية : قصـــدى انه ابتدا يحس انك بتديله فلوس عشان تراضيه ٠

فــؤاد : بتقولى « يحس » ؟! يا دى المصيبة ! لـما الأب يدى ابنه حاجة تبقى رشــوة ؟! [صمت]

فوزية : تفتكر ممكن يعملوا فيك ايه لو حصل انه بلغ ؟

فــؤاد : ممكن يعملوا فى أى حاجة ٠٠ يا رب يا لطيف !

فوزية : هل هم ماسكين عليك حاجة ؟

فــؤاد : كل واحد ماسكين عليه حاجة ٠٠ كل واحد شكين فيه ومحل شبهة ٠

فوزية : طيب هل ممكن انهم يقبلوا شـــهادة ولد عيل ؟ هل شـــهادة العيال مقبولة فى الشريعة الاسلامية ؟

فــؤاد : لأ ٠٠ بس من امتى هم بيحتاجوا لشهود عشـــان يعتقلوا واحـــد ؟

فوزية : ممكن الأب يكون ضرب ابنه عشان عمل حاجة والولد يشتكيه ويقول عنه كلام كدب ٠٠ يقبلوا كلامه ازاى ؟ ٠٠٠ المهم ٠٠ أحسن حاجة نفكر من دلوقت ايه اللى ممكن ترد بيه لو حققوا معاك عشان تقنعهم ان الولد فهم غلط ٠

فــؤاد : موش فاكر حتى أنا قلت ايه ٠٠٠ أنا قلت ايه ؟ أنا عمرى ما هاجمت الشيخ الطرابيشى ولا قلت عنه كلمة وحشة ٠٠ وبعدين أنا من ســنة ٨٣ وأنا بتنبأ بان النظام الاســلامى حاييجى مصر ، وأيدت الاخوان فى انتخابات ٨٧ ٠

فوزية : اسمع ٠ دلوقت ما بقاش فيه وقت للكلام ده ٠ المهم نفكر بسرعة قبل ما ييجوا ترد بايه لـما يحققوا معاك ٠

فـؤاد : [سـاهما] ما تهيأليش ان محسن ممكن يعمـل كده فى أبوه ٠

فوزية : نبتدى بنظريتك المهببة بتاعة الصراع الطبقى ٠

فـؤاد : دى مش حايكون فهمها ٠

فوزية : طيب « راية الاسـلام » ٠ قلت انها مليانة قذارة وموش عايزها تخش بيتك تانى ٠

فـؤاد : أنا ماقلتش انها ماليانة قذارة ٠

فوزية : قلت ٠

فـؤاد : ماقلتش ٠٠ أنا قلت حابطل اشتراكى فيها ، انما ماقلتش انها مليانة قذارة ٠

فوزية : القصـد ٠٠٠ ممكن ترد ان كان قصدك ٠٠٠

فـؤاد : [ثائرا] لا يا ستى موش حارد وموش عايز أقول حاجة ! عايزانى أرد وانا فى قفص الاتهام وابنى جايبينه شاهد اثبات ضدى ؟!

فوزية : اهـدا يا فؤاد وحياتك ٠ [صمت]

فـؤاد : الغلطة انى فضلت مدة بعد الثورة أقابل مختار الشتيوى

فوزية : بس هو ما جرى لوش لسه حاجة ٠

فـؤاد : لسـه ٠٠ بس الـكلام عليه كتر وأكيـد حايتمسـك ٠٠ [صمت] ٠ تفتكرى البواب ممكن يكون زعلان مننا فى حاجة ؟

فوزية : قصـدك لو استدعوه شاهد فى التحقيق ؟ ما اعتقدش ٠٠ أنا لسه فى العيد اللى فات بعتاله لحمة وعيدية خمسة جنيه ٠

فـؤاد : بس محمود جارنا اداله عشرة جنيه فى العيد ٠

فوزية : ده عشـان شيوعى وخايف يتمسك ٠٠ انما انت لا شيوعى ولا يحزنون ٠

فـؤاد : امبارح البواب بيقول لى : « يعنى يا فؤاد بك ما شفناكشى فى الجامع فى صلاة الجمعة اللى فاتت » ! وبيقولها بطريقة معينة عشان يفهمنى انه ملاحظ .. تعرفى ؟ أنا قلبى حاسس انهم مسلطينه يقول لى كده من قبيل الضغط على فى قضية وزير الداخلية .

[يدق جرس التيليفون]

فـؤاد : التيليفون !

فوزية : أرد ؟

فـؤاد : [واجما] موش عارف .

فوزية : ممكن يكون مين ؟ [يتوقف الجرس]

فـؤاد : لو دق تانى ردى . [ينتظران ... لا شيء] اسمحى لى دى ما بقتشى عيشة دى ! [يهب واقفا فى هياج]

فوزية : فؤاد !

فـؤاد : ما بقتشى عيشة دى ! ابنى ! لحمى ودمى ! قاعد يطفح معانا الأكل اللى بنوكلهوله ، وهو قاعد يراقب بنقول ايه عشان يبلغ ؟!!

فوزية : بس يا فؤاد وحياتك .. أرجوك . [صمت . يعود الى مقعده]

فـؤاد : تفتكرى الواحد يحضر شنطته ولا يستنى اما ييجوا ياخدوه ؟

فوزية : هو حايجيبهم معاه ولا حاييجوا بعدين لوحدهم ؟

فـؤاد : أعرف منين أنا ؟ [صمت] تفتكرى نزود ماهية الشغالة ؟

فوزية : أكتر من اللى هى بتاخده ؟ ... زودها اذا حبيت ... [فجأة] استنى ! انت كنت شلت صورة الشيخ الطرابيشى من الصالون ورميتها فين ؟

فـؤاد : فى الفراندة ورا الكنبة .

فوزية : على فكرة الشغالة لاحظت يوم ماشلتها . [تنهض] أروح أجيبها واعلقها تانى قبل ما ييجوا ؟

فـؤاد : [مستسلما] على كيفك ... وجيبى معاكى سجادة الصلاة أفرشها هنا عشان لما ييجوا يلاقونى باصلى .

فوزية : طيب ولو محسن قال لهم انك كنت شلت الصورة ومارجعتهاش الا لما حسيت انه راح يبلغ عنك ؟

فـؤاد : يبقى كلب ابن كلب .

[يسمع صوت الباب الخارجى وهو يفتح]

فـؤاد : [هامسا] الباب ؟

فوزية : [هامسة] أيوه .

فـؤاد : [هامسا] فوزية !

فوزية : [هامسة] هدى نفسك يا حبيبى .

فـؤاد : [هامسا] خشى بسرعة حضرى لى شوية حاجات فى الشنطة .. سجادة الصلاة فين ؟

[يدخل محسن وفى يده كيس - فوزية تمسك بيد زوجها فى قلق .. الاثنان يراقبان محسن فى وجوم أثناء دخوله] .

محسن : [يتوقف] مالكم ؟ مالكم بتزغرولى كده ؟

فـؤاد : كنت فين ؟

محسن : [يريهما الكيس] نزلت اشترى شوكولاته .

فوزية : بس ؟ تشترى شوكولاته بس ؟

محسن : وعلبة لبان .

فوزية : وبعدين ؟

محسن : وبعدين جيت .. ايه ؟ جرى ايه ؟

[يدخل حجرته وهو يقضم قطعة من الشوكولاته ـ يظل والداه يراقبانه حتى يختفى ويغلق الباب] ٠

فـؤاد : تفتكرى بيقول الحق ؟

فوزية : ان شا الله يا رب ٠٠ [ثم فى حدة لزوجها] بس وحياة ربنا اذا انت فتحت بقك بكلمة بعد كده عن النظام ، ما انا قاعدة لك فى البيت ! سامع ؟

فـؤاد : خلاص يا ستى ٠٠ قسـما بالله العظيم لا حاجيب سيرة النظام تانى ، ولا منظمة الجهاد ، ولا « راية الاسـلام » ، ولا الصراع الطبقى ، ولا حتى جلال كشـك ٠٠ وحاحكم فى القضـية بان وزير الداخلية هو اللى حـاول الانتحار ٠٠ « حاول الانتحار وهو يهم بركوب سيارته » ٠٠٠

ســتار ـ يدخل المؤلف

المؤلف :

دا مجـرد مشـهد واحـد   م اللى حايجرى يا مسـاكين
وان كان فيه عمـر حاواصل   على شرط تـكونوا راضيين
ربنـا يحمى لنـا بـلادنا   من حـكم الفاشـيين
من شر عصـابة غرضـها   تحـكمنا باسـم الـدين
ويرد لمصـر صـوابها   اهتفـوا ويـاى آمين

كتب اخرى للمؤلف

الـكتاب الحائز على جائزة احسن كتاب
فى معرض القـاهرة الدولى للـكتاب عام ١٩٨٤
دليـل المسـلم الحزين
(الطبعة الثالثة ـ مكتبة مدبولى)

قالوا عنه :

● من أخصب ما قرات من كتب اسلامية ، كتاب يشحذ الذهن ، فى صياغة بالغة الرقة والسلاسة .

أحمد بهاء الدين (صحيفة الأهرام)

● يتجه مباشرة الى قلب المشكلة بوضوح وقوة .

أنيس منصور (مجلة اكتوبر)

● هو أهم كتاب دينى قرأته خلال عام ١٩٨٣ .

فتحى رضوان (مجلة الهلال)

● كتاب خطير وهام ، يتكلم بدرجة عالية من الصدق والمعرفة .

علاء الديب (مجلة صباح الخير)

● صوت جاء فى مرحلة التدهور والتراجع والشتات ليقف على أرض ثابتة من التراث والمعرفة ، يتكلم بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والعلم عن الاسـلام المطلوب لزماننا هذا ، وليكمل المشـوار الذى بدأه الشـيخ محمد عبده .

يوسف القعيد (مجلة الهلال)

- كتاب جدير بالقراءة والاهتمام · خرج عن نطاق الكتابة الدينية التقليدية الى آفاق تحمل سمات الحداثة والاستنارة · وهو دراسة كبيرة مجتهدة ، شائقة ذكية مشكورة ، تستحق جائزة أحسن كتاب صدر فى عام ١٩٨٣ التى حصل عليها من معرض القاهرة الدولى للكتاب ·

مصطفى بهجت بدوى (مجلة عالم الكتاب)

- يكتب بلغة تهز السكون القاتل ، ويطرح أشياء جديدة لم نتعودها ، ويفتح باب الاجتهاد مرة أخرى ·

يسرى حسين (صحيفة العرب اللندنية)

- يطرق عقولنا بمطرقة صلبة ·

محمد نور فرحات (مجلة الأهرام الاقتصادى)

- أسلوب غير تقليدى ، وجهد كبير ، وبحث عميق ودقيق فى قضايا حيوية وأساسية من مفكر اسلامى كبير ·

السيد حجازى (صحيفة الأنباء الكويتية)

- جرأة افتقدها الاسلام منذ عصر العلماء الأوائل ·· والتجريد الذى يضفيه حسين أمين على الأصول الدينية خالعا عنها كل الشوائب التى ألمت بها منذ غابر الأزمان يجعله من تلاميذ أحسن مدرسة المصلحين الذين مروا فى فترات تاريخية متعاقبة بدءا بأحمد بن حنبل وابن تيمية ومرورا بمحمد بن عبد الوهاب وانتهاء بالشيخ محمد عبده ·

احمد الدعيج (كتاب « أين الطريق ؟ »)

حول الدعوة الى تطبيق الشريعة الاسـلامية

(الطبعة الثانية ـ مكتبة مدبولى)

قالوا عنه :

- كتاب فذ للـكاتب الثائر والمثير الأستاذ حسين أحمد أمين الذى أفزعت كتاباته قوما وأسعدت قوما وأهمت آخرين ·· انه يضرب بمعول كبير يحمله ساعد شديد فى موروثات عزيزة على المسلمين والعرب ، غير ملق بالا لمـا يبعثه من ألم وحسرة هذا العمل الجرىء ·

فتحى رضوان

- وصلت الى اقتناع بأن حسين أمين هو خير ما فى مصر اليوم ، وضوح فكر ، وروعة قلم ، وشجاعة اتجاه ·

ب · فاتيكيوتيس

- التحليل الرائع والشـجاعة الفائقة هما السـمتان الغالبتان على كتابات حسين أمين ، وهما سمتان طالما أثارتا اعجابى ·

نورمان دانييل

- حسين أمين ظاهرة فكرية بكل المقاييس ، يملك قدرة نادرة على أن يخط لنفسه مسارا منفردا ، ويعيد منحنى مدرسة التجديد الاسـلامى للصعود مرة أخرى ·

صلاح عيسى

- رؤية عصرية متنورة لبعض القضـايا الاسـلامية · ومهما كانت درجـة الاختلاف مع اجتهادات المؤلف فان شجاعته فى طرحها تجعل من صدور

هذا الكتاب حدثا لا جدال حول أهميته ·· انه يواصل سيره فى الطريق الصعب الذى بدأ بكتابه المثير للجدل « دليل المسلم الحزين » ·

مجلة « العربى » الكويتية

- فرضت شخصية حسين أمين نفسها بسرعة عظيمة باعتباره أحد القادة المعاصرين للفكر الاسـلامى المستنير ·

فيليب كاردينال

- قرأته بشغف بالغ ، فزادتنى قراءته اعجابا بشجاعة مؤلفه وقوة قريحته ·

ايمانيويل سيفان

● **فى بيت أحمد أمين (دار الهلال)**

« هو أهم كتاب صدر فى عام ١٩٨٥ » .

د. سيد عويس

« يرسم صورة شخصية لنفسه ولطفولته بالغة الصراحة والعنف . وهو هنا يمارس صفة الأديب بعد أن أثبت فى كتبه الأخرى صفته كباحث ومفكر ، وهى صفات اجتمعت عنده كما اجتمعت عند والده الكريم .. وهو يقدم لنا فى كتابه هذا نموذجا طيبا لأدب الاعتراف ، وعملا تربويا هاما يستطيع به أن يقف فى صفوف المعلمين وغارسى القيم » .

عــلاء الديب

« قطعة أدبية صغيرة ممتعة » .

ب. فاتيكيوتيس

هذا الـكتاب الخليق بالاعجـاب لا يحيى الماضى فحسب ، بل وينقــل الى القارئ كل نكهته ومذاقه » .

ايمانيويل سيفان

« ان نجاح وجودة هذا الكتاب يدفعنا دفعا الى وضعه في مصاف كتاب « الأيام » لطــه حسين » .

فيليب كاردينال

● **الحروب الصــليبية في كتــابات المؤرخين العرب المعــاصرين لها (مكتبة النهضة المصرية) .**

● **ألف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم ـ المجلد الأول (دار الشروق)**

« جرعة ثقافية ومتعة ذهنية للقارئ .. انها زهور من حديقة التراث

العربى القـديم . والحقيقة أن الـكاتب أحسن اختيـار أجمـل القطوف والثمرات من أمهات الكتب » .

محمود فوزى

« كتاب قد يكون نسخة معاصرة (مع الاحتفاظ بكل نكهة التراث) عن كتاب « الأغانى » لأبى الفرج . يعكس كل الداخل العربى عبر قرون عديدة . ولو سلمت هذه الحكايات الى شخص آخر لمـا خرجت بالانتقاء والتنظيم والبراعة التى خرجت بها . فحسين أمين لا يزيح الغبار بل انه يجلو اللآلىء وينظمها بصورة فذة » .

صحيفة « الوطن » الكويتية

- **ألف حـكاية وحـكاية من الأدب العربى القديم ـ المجلـد الثـانى (دار الشروق)**
- **فضل الاسـلام على الحضارة الغربية ـ مترجم عن مونتجومرى وات (دار الشروق)**

« هو أفضل كتاب صدر بالعربية فى بيروت خلال عام ١٩٨٣ » .

مجلة « الحوادث » اللبنانية

« كتاب هام وجدير بالقراءة » .

مجلة اكتوبر

- **معضـلة الرجل الأبيض ـ مترجم عن لورد بويد أور (سلسـلة الألف كتاب)**

كتب بالاشتراك مع غيره :

- التسامح الدينى والتفاهم بين المعتقدات (اتحاد المحامين العرب)

- التراث وتحديات العصر (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت)
- L'Islam en Questions (دار برنار جراسيه - باريس)
- تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى (المركز الاقليمى العربى للبحوث الاجتماعية - القاهرة)

تحت الطبع :

- الف حكاية وحكاية من الأدب العربى القديم - المجلد الثالث (دار الشروق)

كتب معدة للنشر :

- مسرحية « الامام »
- متنوعات
- مصابيح أقوال العزب
- حوليات العالم الاسلامى
- محمد

الاسـلام فى عالم متغير

المحتـويات — الصفحة

المؤلف

- ولد فى القـــاهرة فى ١٩ يونيو ١٩٣٢، وهو نجل المؤرخ الاسلامى الكبير الدكتور أحمد أمين ·
- تخرج فى كلية الحقوق ، جامعة القـــاهرة عام ١٩٥٣ ، ثم درس الأدب الانجليزى بجامعة لندن ·
- عمل محاميا ، فمذيعـا بالاذاعـة المصرية ، فمذيعـا بالقسم العربى بهيئة الاذاعة البريطانية ·
- التحق بالسلك الدبلوماسى المصرى وعمـل ملحقا فسكرتيرا ثالثـا بالسـفارة فى أوتاوا (كنـدا) ، فسكرتيرا ثانيـا بالسـفارة فى موسكو (الاتحاد السوفيتى) · فمستشارا بالسفارة فى لاجوس (نيجيريا) ، فوزيرا مفوضا بالسفارة فى بون (ألمـانيا الاتحادية) ، فقنصـلا عاما فى ريو دى جانيرو (البرازيل) ، ورقى الى درجة سفير عام ١٩٨٧ ·
- يعمل حاليا سفيرا لمصر فى الجزائر ·
- انتدب خـلال عمله بوزارة الخارجيـــة مستشارا فنيا لوزير الثقافة ، واعير للعمل نائبا لمدير مركز الأمم المتحدة للاعلام بالقاهرة ·
- يجيد الانجليزية والفرنسيةوالروسية والألمانية والبرتغالية·
- حصل كتابه « دليـــل المسلم الحزين الى مقتضى السلوك فى القرن العشرين » عــلى جائزة « أحسن كتـاب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب» عام ١٩٨٤ ، وترجم الى الفرنسية·
- كمـا أهدت له حكومة ألمـانيا الاتحـادية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣ ·
- له العديد من المقالات والبحوث نشرت فى مجلات « الثقافة » و « الرسالة » و« المجلة » و« المسرح » و« روز اليوسف » و « صباح الخير » و « الأهرام الاقتصادى » و « أكتوبر » و « المصـــور » و « العربى » الـكويتية و « الفيصـــل » السـعودية و « الدوحة » القطرية ، وجرائد « المصرى » و « الأخبار » و « الجمهورية » و « الوطن » الكويتية · كما أذيعت له تمثيليـات فى اذاعـة الشرق الأدنى والاذاعتيـن المصرية (البرنامج الثانى) والبريطانية (القسم العربى)·
- متزوج وله ثلاث بنات ·



رقم الايداع ١٩٨٨/١٧٠٠
الترقيم الدولى ١ - ١٧٢ - ١٣٣ - ٩٧٧